

محاضرات

تأريخ الإسلام من الألف إلى الياء

الجزء الأول

تأليف

السيد محمد الحصري بك
مدرس التأريخ الإسلامي بالجامعة المصرية

الطبعة: الثالثة

obeykandi.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أما بعد فقد عهد إلى مجلس إدارة الجامعة المصرية أن أقوم بإلقاء محاضرات على طلابها في تاريخ الأمم الإسلامية فقامت بما عهد إلى به على قدر ما منحت في العزيمة والوقت ، وقد رأت إدارة الجامعة أن تجمع هذه المحاضرات وتخرج للناس حتى يكون النفع بها عاما فبذلت الجهد في تحريرها وتهذيبها حتى يسهل على قرائها الاستفادة منها ، وهاهي ذي تعرض على المؤرخين ورجال العلم ، وأرجو أن أكون قد وفقت لتذليل صعوبة كبرى وهي صعوبة الاستفادة من التاريخ العربي من كتبه

هذا وأنا أعلن شكري الوافر وثنائي العظيم على مجلس إدارة الجامعة لما نالته من ثقته حتى اعتمد على في أداء هذه المهمة وأخص بثنائي وإخلاص رجل المهمة والعزيمة الأمير الجليل (١) أحمد فؤاد باشا رئيس إدارة الجامعة الذي بثاقب نظره وقوة عزمته أزهر هذا المعهد العظيم وأينعت ثمراته ونراه كل يوم يخطو إلى الامام فأسأل الله سبحانه أن يوفقه ويسدده في القول والعمل انه نعم المجيب

محمد الخضرى

(١) نودى بجلالته ملكا على مصر في ١٥ مارس سنة ١٩٢٢ سدد الله خطاه وابقاه ذخرا لمصر وخاصة وللإسلام عامة وأقر عينه بولى عهد المحبوب سمو الأمير فاروق

obeykandi.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المحاضرة الأولى

في التاريخ الاسلامي

مباحث التاريخ الاسلامي — ما يلزم المؤرخ — جزيرة العرب

ووصفها — شعب قحطان ومقاماته

اذا ذكر الاسلام اتجهت النفس الى ذلك الدين الذي جاء به سيدنا محمد ابن عبد الله بن عبد المطلب فأصلح به من شأن الشعوب العربية وألف بين قلوبها وهبأها لان تسيح الي ما جاورها من الاقاليم وتؤسس سلطانا واسعا يرتكز على دعامة ذلك الدين . فؤرخ الاسلام يرجع بحثه الى ثلاثة أمور يستتبع بعضها بعضاً الاول — الدين الاسلامي وكيف تأسست قواعده وتقررت مبادئه والمصاعب التي وقفت في طريقه حتى غلبها الثبات والصبر

الثاني — تأثيره في النفوس العربية حتى استعدت لبسط سلطانها على ما جاورها من الاقاليم وما كان منها في سبيل ذلك من الحروب والاعمال حتى عظم قدرها واتسع سلطانها منقادا الى سلطان الدين

الثالث — ما كان من انتقال هذا السلطان عن الامم العربية الى غيرها من الامم التي دانت بالاسلام وما كان للدين من التأثير في قيام دولة وسقوط أخرى وفي حضارة الامم التابعة لسلطانها

ولما كان مهدهذا الدين هو بلاد العرب ومحل التأثير به لأول مرة ثم العرب لم يكن لنا بد من ذكر مقدمة اجمالية في تخطيط بلاد العرب وذكر الشعوب العربية وحالهم قبل مجيء الاسلام لئلا نكون امامنا منهم صورة تفهمنا مقدار استعدادهم للتأثر بذلك الدين : الا اننا سنقدم كلية صغيرة في أول واجب على من يدرس تاريخ أمة أو فرد . كثير ممن اشتغلوا بالتاريخ كانت عواطفهم تتحكم في حوادثه تحكما تضيق به الفائدة من دراسة التاريخ فان عاطفة الحب تجعل كل ما ليس بحسن حسنا وتجتهد في تأويل الحوادث بوجه ليس فيه غضاظة حتى ما أدى منها الى سقوط فاعله وخيبته . وعاطفة الكراهة تدعو الى ضد ذلك فتجعل الحسن قبيحا وتستنبط من الخير شرا ولم يخلص من هذا الشر العظيم الذي يطمس معالم التاريخ ويضيع الفائدة من تجارب الأمم الا نفر قليل جدا . واذا نظرنا الى انفسنا نجد هذا التحكم على شيء من الحوادث التي تشعر بها حكما بحسب ما تستحق قرب فعل صدر ممن نحبه فنحمله محملا حسنا جيلا ، والفعل نفسه يصدر ممن نبغضه فنحمله على أسوأ محامله : نحكم على متصدق بالتبذير لانه تذكر الفقراء والمعوزين في حال رغبته ولا نأبه بتلك الصدقة من آخر ، بل نسمه بأنه مرء يحب الشهرة الكاذبة : والتجرد من هذه العواطف في دراسة التاريخ أمر صعب المنال لا يصل اليه الانسان الا بعد عقبات شديدة لا بد له من اجتيازها ان كان المراد تمثيل الأمم والحكومات بما كانت عليه لا بما تحب أن يكون فلا بد أن نجعل أمام أعيننا أناس يدرس تاريخ أمم ان كانت أخطأت في بعض تصرفاتها فليس علينا من تبعه ذلك الخطأ شيء ، وليس لنا الا ان نعرفه

وأنستفيد منه وان كانت أصابت المحجة فان ذلك لا ينفعنا اذالم يكن لنا مثل أعمالهم
لذلك يحتاج دارس التاريخ الى سعة صدر لتحمل كل ما يرد على تاريخ قومه
من نقد حتى لا تبقى حقائق الاشياء محجوبة بسحب عاطفتي الحب والبغض
جزيرة العرب

يطلق العرب على قطعة الارض التي نشأوا فيها جزيرة العرب
مع انها لم تتم احاطتها بالماء كما قال ياقوت ^(١) في معجم البلدان نقلا عن
هشام ^(٢) بن محمد السائب عن ابن عباس ^(٣) انما سميت بلاد العرب جزيرة
لاحاطة الانهار والبحار بها من جميع أقطارها وأطرافها فصاروا منها في
مثل الجزيرة من جزائر البحر وذلك أن الفرات ^(٤) أقبل من بلاد الروم فظهر
بناحية قنسرين ^(٥) ثم انحط على اطراف الجزيرة وسواد العراق حتى وقع
بناحية البصرة ^(٦) والابلة ^(٧)

(١) هو ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي الاصل أسر من بلاده صغيراً فتعلم ببغداد
ساح سياحات مهمة وألف كتباً نافعة في التاريخ والتقويم منها معجم البلدان ومعجم
الشعراء ومعجم الادباء وغير ذلك من السكتب المفيدة وكان ثقة في النقل توفي سنة
٦٢٦ بظاهر مدينة حلب

(٢) نسبة عربي له كتاب الجهرة في النسب وله مصنفات كثيرة كلها في أخبار العرب
توفي سنة ٢٠٤ (٣) هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب جد الملوكة من بني العباس
من فقهاء الصحابة الممتازين بتفسير القرآن توفي في خلافة ابن الزبير سنة ٦٨ (٤) نهر
عظيم ينبع من بلاد أرمينية ويمر على كثير من المدن العظيمة حتى اذا قارب البصرة أمجد بدجلة
وصبأ بها في خليج عمان من بحر الهند (٥) قنسرين مدينة جنوبي حلب وكانت اسما
لكورة عظيمة من ضمنها مدينة حلب فتحت سنة ١٧ هـ (٦) مدينة عظيمة على
مجمع دجلة والفرات قريبا من المصب في خليج عمان مصرت أيام عمر بن الخطاب
سنة ١٤ هـ (٧) بلدة على شاطئ النهرين في زاوية الخليج الذي يدخل مدينة البصرة

وامتد الى عبادان ^(١) وأخذ البحر في ذلك الموضوع مغرباً مطيقاً ببلاد
العرب منعطفاً عليها فأتى منها على سفوان ^(٢) وكاظمة ^(٣) الى القطيف ^(٤)
وهجر ^(٥) وأسيف البحرين ^(٦) وقطر ^(٧) وعمان ^(٨) والشحر ^(٩) ومال
منه عنق الى حضرموت ^(١٠) وناحية أبين ^(١١) وانعطف مغرباً
منصبا الى دهلك ^(١٢) واستطال ذلك العنق فطعن في تهائم اليمن بلاد
فرسان ^(١٣) وحكم ^(١٤) والاشعريين ^(١٥) وعك ^(١٦) ومضى الى جدة ^(١٧)

(١) مدينة في الجزيرة المتكونة عند مصب دجلة في خليج عمان منسوبة الى عباد بن الحصين
وكثيراً ما ينسب اهل البصرة باضافة ألف ونون الى آخر المنسوب اليه (٢) ماء على قدر
مرحلة من باب المار بد البصرة وهو أول منزلة بجادة البصرة الى البحرين (٣) جو على سيف
البحر وهي المنزلة الثانية في جادة البصرة الى البحرين (٤) مدينة بالبحرين وهي قصبتها
(٥) مدينة بالبحر بن وقيل وهي اسم كورة من كور البحرين قصبتها الصفا (٦) اسم جامع
لبلاد على ساحل خليج بين البصرة وعمان وكانت هي وعمان في أيام بني العباس عملاً
واحداً وسيف البحر ساحله (٧) قرية على سيف الخط بين عمان والعقير وهذه بحذاء هجر
(٨) كورة عربية على ساحل بحر اليمن والهند وتنتهي الى البحرين وقصبتها مدينة
صحار (٩) صقع على ساحل بحر الهند بين حضرموت وعمان (١٠) ناحية واسعة في شرقي
عدن وحولها رمال الاحقاف ومدينتها الكبرى شبام (١١) مخلاف باليمن منه عدن
(١٢) جزيرة في بحر اليمن وهو مرسى بين بلاد اليمن والحبشة وكانت منق في زمن
بني امية (١٣) جزيرة من جزائر اليمن بالقرب من ساحله الجنوبي (١٤) قبيلة
قحطانية تنسب الى حكم بن سعد من قضاعة ثم من حمير ينسب اليهم أبو نواس الحكمي
(١٥) قبيلة قحطانية تنسب الى الاشعر بن ادد من كهلان بن سبا ينسب اليها أبو موسى
(الاشعري) (١٦) قبيلة قحطانية تنسب الى عك بن عدنان من الارد ثم من كهلان
(١٧) فرضة على ساحل بحر القلزم بينها وبين مكة مرحلة

ساحل مكة والجار (١) ساحل المدينة ثم ساحل الطور (٢) وخليج ايلة (٣) وساحل رايه (٤) حتي بلغ قلزم (٥) مصر وخالط بلادها وأقبل النيل في غربى هذا العنق من أعلى بلاد السودان مستطيلا معارضا للبحر حتى دفع في بحر مصر والشام ثم أقبل ذلك البحر من مصر حتى بلغ بلاد فلسطين (٦) فربع سقلان وسواحلها وأتى صور (٧) ثم وسواحل الاردن (٨) وعلى بيروت وذواتها من سواحل دمشق ثم نفذ الى سواحل حمص وسواحل قنسرين حتي خالط الناحية التي اقبل منها الفرات منحطا على اطراف قنسرين والجزيرة (٩) الى سواد العراق وهذا التحديد وان كان يسهل علينا فهم تسمية البلاد العربية بالجزيرة يقتضى ان ولايات الشام كلها معدودة من جزيرة العرب وهذا غير مرضى عند المؤرخين فانهم يحددون بلاد العرب من الشمال بالجزيرة وبلاد الشام

(١) فرضة على ساحل بحر القلزم وهي جنوبى ينبع (٢) شبه جزيرة في شمالى خليج القلزم وهي كورة مصر (٣) مدينة على ساحل بحر القلزم وهي آخر حدود الحجاز وكانت منزلة للجماعة بين مصر ومكة (٤) كورة من كور مصر البحرية (٥) مدينة كانت على منتهى الخليج المبتدىء من المندب وبها اسمي الخليج والمسافة بينها وبين القرما التي كانت على بحر الروم مقدار القناة الاولى في مكان السويس والثانية في مكان بور سعيد (٦) آخر كورة من كور الشام من ناحية مصر قصبتها البيت المقدس ومرفؤها يافا ولها من ناحية مصر رفح وهو الحد بين مصر والشام ومن موانئها عسقلان (٧) مدينة من أعمال الاردن على ساحل بحر الروم بينها وبين عكة ستة فراسخ (٨) كورة من كور الشام منها طبرية وصور وعكة وما بين ذلك والاردن نهر يصب في بحيرة طبرية (٩) وهي الجزيرة بين دجلة والفرات وتسمى جزيرة أقور

وفلسطين فهذان خارجان عنها وان كان العرب قد سكنوا قبل الاسلام جزءا
مهما من بلاد سوريا كما سكنوا جزءا من الجزيرة وعلى ذلك لابد من القول
ان هناك تسامحا في اطلاق لفظ الجزيرة في البلاد العربية

أقسام الجزيرة الطبيعية :

قسم العرب جزيرتهم الى خمسة أقسام بحسب طبيعتها وهي :

تهامة — الحجاز — نجد — اليمن — العروض

فاما تهامة ويقال لها الغور فهي الاراضى التى على شاطئ بحر القازم ممتدة
عرضا الى سلسلة جبل السراة وسموها تهامة لشدة حرها وركود ريحها
من التهم وهو شدة الحر وركود الريح : يقال تهم الحر اذا اشتد وسموها غورا
لانخفاض أرضها ، وأما الحجاز فهو سلسلة جبل السراة الممتدة من أقصى اليمن
الى الشام في عرض أربعة أيام (١) يزيد كسر يوم في بعض المواضع وقد
ينقص مثلها في أخرى فبدأ هذه السراة من أرض اليمن أرض المعافر
وهي قبيلة قحطانية كانت تسكن شرق عدن ثم تمتد حتى تبلغ الشام وتقطعها
الوديان في بعض جهاتها ، وانما سميت حجازا لانها حجزت بين الغور ونجد
وأما نجد فهو مادون ذلك الجبل الى شرقيه يبتدىء جنوبا من أدنى
حدود اليمن وينتهى الى السماوة وينتهى من الشرق الى العروض واطراف
العراق وسمى نجدا لارتفاع أرضه

(١) اليوم أربعة وعشرون ميلا أو ثمانية فراسخ والفرسخ ٤٤٤م لان محيط الارض
عند خط الاستواء تسعة آلاف فرسخ وهو ٤٠٠٠م وتكون الاربعة أيام ١٤٢م تقريبا

وأما اليمن فهو ما كان جنوبي نجد الى ساحل بحر الهند ويمتد شرقاً
الى حضر موت والشحر وعمان وفيه التهامم والنجد

وأما العروض فينظم بلاد اليمامة والبحرين وما والاها وفيه نجد
وغور لقربه من البحر وانخفاض مواضع منه ومسائل أودية فيه وسمي
عروضا لاعتراضه بين اليمن ونجد والعراق

الوصف الطبيعي لجزيرة العرب

ارض جزيرة العرب كثيرة الجبال الجرداء المختلفة اللون ومنها الحارار
جمع حرة وهي الجبال السوداء التي كأنها فحم محترق ويتخلل هذه الجبال كثير
من الوديان اعدتها السيول ليجرى فيها ماؤها والصحاري الرملية المترامية
الاطراف

فما كان من ارضها قريبا من هذه الوديان اخصب وانبت السكلاً والرعى
فتمكن اهله من الإقامة فيه حيث يجدون ما يشربون ويسيمون فيه انعامهم
وما بعد عنها اقفر ولم يصاح للسكنى

واعظم واد ببلاد العرب الدهناء وهو الوادي الذي في بلاد ابني تميم
ببادية البصرة يمر في بلاد بني اسد فيسمونه منعجاثم في غطفان فيسمونه
الرمة، وهو اول نجد ويصب في الرمة اودية اخرى اكبرها وادي الجريب
والعرب تقول على لسان الرمة

كل بني فانه يحسني الا الجريب فانه يروني

ثم يمر في بلاد طي فيسمونه حائلا وهو واد في جبل طي ثم يمر في بلاد

كأب فيسمونه قراقرم، ثم في بلاد تغلب فيسمونه سمودى وإذا انتهى إليهم عطف إلى بلاد كأب فيصير إلى النيل وهو نهر يتخارج من الفرات الكبير يخترق بلدة اسمها النيل في سواد الكوفة ومتى أخضبت الدهناء رعت العرب جميعا سعتها وكثرة شجرها ، طيبة التربة ، طيبة الهواء

وبلاد اليمن كثيرة الوديان منها ما يقطع السراة حتى ينتهي إلى البحر ومنها ما هو على عكس ذلك الاتجاه

فمن أعظم الوديان المتجهة إلى البحر وادى مور وهو ميزاب تهامة الأعظم ويتلود في العظم وبعد المائي وادى زبيد ، ومن أعظم الوديان المتجهة إلى الشرق ميزاب اليمن الشرقى وهو يضارع مورا ويصب فيه كثير من الوديان وهو الذى يفضى إلى موضع السدسد مأرب ويسقى بعدها أرض الجنتين وأرض السبئين

وهناك وديان كثيرة في الجوف بين الجبلين

العرب تسمى المواضع التى يستنقع فيها الماء رياضا وهو جمع روضة وذلك الاسم خاص بما يكون فى الأرض الواطئة فإن كانت فى أعلى البراق (١) والقفاف (٢) فهى السلقان واحدها سلق وإذا جاءتها المياه أنبتت ضر وبامن العشب والبقول لا يسرع إليها الهيج والذبول وإذا أعشبت تلك الرياض وتتابع عليها الوسى (٣) رعت العرب ونعمها ورما كانت الروضة واسعة يكون تقديرها ميلا

(١) البرقة أرض ذات الوان مختلفة وجمعها البراق وقد ذكر ياقوت ١٠٠ برقة من براق الجزيرة (٢) القفاف جمع قف وهو ما ارتفع من الأرض ولم يبلغ أن يكون جبلا (٣) وسمى أول مطر يصيب الأرض والثاني يسمونه الولى

في ميل فادا عرضت جدا فهي قيعان وقيعة واحدها قاع وأصغر الرياض مئة ذراع وكل روض يفرغ اما في روض واما في واد . وحدائق الرياض ما أعشب منها والتف ، وقد ذكر ياقوت من رياض العرب ١٣٦ روضة في جهات مختلفة وهي المعروفة بأسماء أصحابها

ولهم مياه يسمونها الاحساء والحساء جمع حسي وهو موضع رمل تحته صلبة فاذا أمطرت السماء على ذلك الرمل نزل الماء فمنعته الصلابة أن يفيض ومنع الرمل السماء أن تنشفه فاذا بحث ذلك الرمل أصيب الماء

ولما كانت مياه هذه الاودية لا تسد حاج الجزيرة كان الجذب أغلب عليها ولا سيما أن كثيرا من مياهها يفيض في باطن الارض فلا يمكنهم الانتفاع به الا بصناعات ومعاناة لم يكونوا من أهلها الا ما كان من بلاد اليمن التي أمكنها فيما مضى أن تتحكم في مجاري الوديان فتوجهها الى جهة ثم تبني سدا محكما يحجز الماء خلفه في أرض صلبة للانتفاع به حين الحاجة فلا يتسرب الى رمال الصحراء ويفيض في الارض ولهذا عدت اليمن قديما من البلاد الخصبة المستعدة لان تزرع فيها المزروعات الدورية وتنبت فيها الاشجار الباسقة حتى أطلقوا عليها اسم العرب الخضراء

أما ما عداها فان شمال الحجاز تقل به هذه الوديان وجل اعتماد أهلها على العيون الضئيلة التي لا تروى الا الشارب مع الجهد وربما جادهم الغيث فنبت الكلا في بعض سهولهم القريبة من الوديان — وأما نجد والعروض ففيهما وادي الدهناء وما يصب فيه من صغار الاودية ، ولكن الانتفاع بجميع مائه غير

ميسور لان الكثير من مائة يفيض في الرمال وربما تأخر المطر فاشتدت
الحال بمن يقيم عليه من القبائل

ومن هنا قاما كان العرب في بواديهم يبقون في مكان واحد وانما يتبعون
مواقع القطر أي كان لتربع أنعامهم وتنفرج كربتها
وحاجة العرب الدائمة الى الرحيل أكسبتهم النشاط والخفة الى العمل
لما يستدعيه ذلك من كثرة شد الرحال والتسيار

ولما كانت قلة الماء وعدم انتظامه يستدعيان - بحكم الضرورة - عدم الاعتماد
على ما تنبتة الارض من المزروعات الدورية التي لا تصالح للانسان كان جل اعتماد
أهل البادية على انعامهم ولا سيما الابل منها يأكلون لحومها ويشربون ألبانها
ويكتسبون بوبرها وتحمل أثقالهم في تلك الصحارى القفرة الى ما يرومون
من الجهات أما بلاد اليمن فانها كانت تزرع لكثرة المياه هناك والتمكن من
الارتفاع بها والمدن بها أكثر من أي جهة أخرى في الجزيرة لان تمدن المدن في
غير السواحل البحرية يعتمد على المياه الوفيرة وسهولة الحصول عليها

جو البلاد

أما ما كان من الجزيرة مائياً مجاور شواطئ البحر فالحرارة فيه شديدة مع
الرطوبة لمكان البحر وأبخرته منها وكذلك يشتد الحر في الجبال اذا صهرتها
الشمس بمحارقتها خصوصاً الحرار منها لسواد لونها ويشتد بالجبال البرد في
الشتاء حتى ضربت العرب بشدته الامثال

أما نجد فما كان منها مجاوراً للأودية ومسايل المياه فإن الهواء يكون به معتدلاً وما بعد عنها حراً أكثر

وجو اليمن وهواؤه معتدل في فصلي الشتاء والخريف، أما الربيع ففيه المطر الكثير والرطوبات التي تستمر زمناً طويلاً ويشتد به الحر في فصل الصيف

محاج الجزيرة

في هذه الجزيرة طرق من الحواضر الكبرى الى مكة وغيرها وكل طريق منها يسمى محجة ومعروفة هذه المحاج لما استغلق من عبارات أصحاب التقويم من العرب فانهم اذا عرفوا بقريّة أو جهة جمعوا المحجة أساساً لذلك التعريف فيقولون هي على جادة البصرة أو الكوفة أو عن يمين السائر الى البصرة أو الكوفة فان لم يكن المطلاع علم بذلك كانت جدواه قليلة

وقد فصل هذا الجواد أبو محمد الحسن بن أحمد الهمداني المتوفى سنة ٣٢٤ في كتابه وصف جزيرة العرب وبين منازلها وما بين كل منزلتين من الاميال ودرجة عرض كل منزلة وأوضحها أيضاً عبيد الله بن خرداذبة في كتابه المسالك والممالك . ومن أعظم هذه الجواد جادة بغداد منها الى مكة مارة على المدينة وبها ٣٤ منزلة وطولها ٨٣٠ ميلاً ، وجادة الكوفة الى مكة وهي تفارق الاولى من معدن النقرة في الشمال الشرق من المدينة وعلى بعد ٩٨ ميلاً منها

وجادة البصرة الى مكة مارة بالمدينة وهي تتحد مع جادة الكوفة في معدن النقرة الذي يلي منزلة النجاج وجادة البصرة الى مكة ولا تمر بالمدينة

ومنها في الجنوب جادة صنعاء النجدية وعدد منازلها ٢٢ ومقدار أميالها ٤٢٠ :
وجادتها التهامية وعدد منازلها ٢٢ كالأولى

ومنها محجة عدن تلتقي مع محجة صنعاء في منزلة اسمها اثربا علسير ١٦
منزلة ولخضر موت محجتان منها العليا وتتقابل مع محجة صنعاء في صعدة ومنها
السفلى وتتقابل مع محجة صنعاء في تبالة وترعى نجران
ومنها محجة البصرة الى البحرين على ساحل خليج عمان (انظر الخريطة)

﴿ الشعوب العربية ﴾

العرب قبائل شتى ترجع في نسبها الى شعبين عظيمين الاول شعب قحطان
والثاني شعب عدنان

فأما شعب قحطان فهذه بلاد اليمن وقد تشعبت قبائله وبطونته من سبأ بن
يشجب بن يعرب بن قحطان فكان منه بطون حمير وأشهرهم زيد الجمهور وقضاة
والسكاسك : ومنه بطون كهلان وأشهرهم همدان وأنمار وطبيء ومذحج وكندة
ولخم وجذام والازد الذين منهم الاوس والخزرج وأولاد جفنة ملوك الشام :

وكانوا يسمون مقاماتهم باليمن مخاليف والواحد منها مخالف ويضاف الى
اسم القبيلة التي اختصت به ذكر منها ياقوت ٣٦ مخلافاً

وكان الملوك المتقدمون قد فكروا في الاستفادة بمياه السيول التي تنقذف
في الوديان فيذهب الكثير منها هباء في جوف الارض أو في البحر فأقاموا بمأرب
سدّاً وصفه ياقوت نقلاً عن شيخ من أهل صنعاء قال هو بين ثلاثة جبال يصب ماء
السيول الى موضع واحد وليس لذلك الماء مخرج الا من جهة واحدة فكان الاوائل

قد سدوا ذلك الموضع بالحجارة الصلبة الرصاص فيجتمع فيه ماء عيون هناك مع ما يجتمع من مياه السيول فيصير خاف السد كالبحر ، فكانوا إذا أرادوا سقي زروعهم فتجروا من ذلك السد بقدر حاجتهم بأبواب محكمة وحر كات مهندسة فيسقون حسب حاجتهم ثم يسدونه إذا أرادوا

ويظهر أنه لما تطاوت الازمان على ذلك السد أهمل من شأنه فتصدعت جوانبه ولم يحمل هجمات السيول المتواردة عليه والمياه الكثيرة المحجوزة خلفه فانكسر وفاضت المياه على ما أمامه من القرى والمزارع فأتلفها وكان ذلك سنة ١٢٠ ق م كما قاله العالم سيديو

وهنا اختلفت كلمة المؤرخين من العرب فمنهم من يقول ان هجرة أهل مأرب كانت قبل أن ينهدم السد ، لان كاهنة أخبرت رئيس القوم بما سيحدث فصدقها وهاجر بأهله وولده ومن تبعه من عشيرته ومنهم من قال ان الهجرة انما كانت بعد أن خرب السد وأتلف الارض والمزارع ولم يمكنهم إعادة السد كما كان فتعرضت البلاد لهجمات السيل ولم تعد تصلح للزرع كما كانت ونحن نرجح الرأي الاخير لسببين

الأول أن مفارقة البلاد عند النفس عدل مفارقة الروح وكلاهما أمر مكروه شنيع فيبعد جداً أن يقدم عليه شخص هو وأولاده وعشيرته لمجرد خبر لا يقطع أملاً خصوصاً انه سائر الى بلد لم يخبره

الثاني أن الكتاب لما قص علينا هذه القصة في السورة الرابعة والثلاثين قال (لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم واشكروا
(٢ - ٢)

له بلدة طيبة ورب غفور، فأعرضوا فأرسلنا عليهم سبيل العرم وبذلناهم بجنتهم جنتين
ذواتي أكل خبط وأثل وشي من سدر قليل) فهذا واضح في أن سبيل العرم أصابهم
وبدل من شكل أرضهم وهم يقيمون بها ومن سار على هذا الرأي العالم سيديو
كانت هجرة أهل مأرب بناء على رأي كبيرهم وسيدهم عمران بن عمرو
من يقياسيبدو لدا لاذ من كهلان خرج هو واخوته ومن معهم من عشائهم من ولد
الاذد يرتادون مواضع من الجزيرة تصالح لسكنائهم فصاروا ينتقلون في بلاد
اليمن ويرسلون الرواد ثم ساروا بعد ذلك إلى الشمال

فعطف ثعلبة بن عمرو ونحو الحجاز فأقام بين الثعلبية وذى قار يتتبع هو ومن معه
من أهله وولده مواقع القطر ولما كبر ولده وقوى ركنه سار نحو المدينة وبها ناس من
بنى إسرائيل متفرقون في نواحيها فاستوطنوها وأقاموا بها وغلبوا أهلها بعد عليها
فابتنوا الآطام وغرس خيل، والنوم من أبناء ثعلبة هذا الأوس والخزرج ابنا حارثة
ابن ثعلبة

ونحزع عنهم عند خروجهم من مأرب حارثة بن عمرو - وهو خزاعة - ومن معه
وافتحوا الحرم واجلوا عنه سكانه من جرهم

عطف عمران بن عمرو مفارقا لقومه نحو عمان وقد كان انقرض من بها طسم
وجديس فنزلها واستوطنها هو وبنوه وهم ازد عمان

وسارت قبائل نصر بن الازد - وهم قبائل كثير - نحو تهامة وهم ازد شنوءة
وسار جفنة بن عمرو إلى الشام وأقام بها هو وبنوه وهو ابو الملوكة الغساسنة
نسبة لغسان وهو ماء كان بنو مازن بن الازد نزلوا عليه فنسب هؤلاء اليه

وممن ترك اليمن من كهلان ثم من بنى ادد بن زيد قبيلة خلم بن عدي الذين معهم نصر بن ربيعة أبو الملوك المناذرة بالحيرة واول من اتخذها منهم منزلاً - عمرو ابن عدي بن نصر الذي ملك بعد جزيمة الوضاح

ومنهم طيء : ساروا بعد مسير الازد نحو الشمال حتى نزلوا بالجبلين أجأ وسامي لما رأوه هناك من الخصب، وهذان الجبلان في الشمال الشرقي من المدينة ويحترقهما وادي الدهناء ولهذا ذكر كثير في أشعار العرب الطائيين لما لها من المنعة والحصانة وبهما كانوا يستهينون بساطان الملوك من بني نصر: قال شاعرهم عارق الطائي

ومن مبلغ عمرو بن هند رسالة إذا استحققتها العيس تنضي من البعد
أيوعدني والرمل بيني وبينه تأمل رويداً ما أمانة من هند
ومن أجأ حولي رعان كأنها قبائل خيل من كبيت ومن ورد
ومنهم قبيلة كلب بن وبرة من قضاة أقامت ببادية السماوة وهي في آخر

شمال نجد وتتصل بأطراف العراق ويحترقها وادي الدهناء
هكذا تفرقت هذه القبائل اليمنية واحتلت أخصب الاراضي العربية

الشمال والغرب

وبقي باليمن كثير من قبائل حمير وكندة ومذحج وغيرهم وكان لحمير السيادة على البلاد ومنهم الملوك والاقبال

المحاضرة الثانية

شعب عدنان وتفرقه - معيشة العرب من بدو ومن حضر

حال العرب الاجتماعية

شعب عدنان

أما شعب عدنان فهذه مكة وما جاورها من أرض الحجاز وتهامة فإن عدنان
- باجماع كلمة المؤرخين من العرب - ينتهي نسبه الى اسمعيل بن ابراهيم
الذي جاء مكة وساكن جرحم وصاهرم والسكرتاب ينسب اليه وإلى أبيه بناء
البيت الحرام (وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسمعيل ربنا تقبل منا
انك أنت السميع العليم) ولم تزل أبناء اسمعيل بمكة تتناسل هنالك حتى كان
منه عدنان وولده معد ومنه حفظت العرب العدنانية أنسابها ، ويقال لبطون
هذا الشعب المعدية والنزارية

وقد تفرقت بطونه من نزار بن معد فمنه أباد وربيعة ومضر وهذان
هما اللذان كثرت بطونهما

وكان من ربيعة قبائل كثيرة لها شهرة وذكر عظيم في تاريخ العرب
حيث كانوا يناصون مضر في الشرف والرفعة ، ومنهم كان أكثر الخوارج
في الاسلام

ومن ربيعة عبد القيس ابن أفضى ومنها بكر وتغاب ابنا وائل ، ومن بكر حنيفة وعجل ابنا لجيم

وتشعبت قبائل مضر الى شعبتين قيس عيلان بن عيلان بن مضر ، وبطون الياس بن مضر

وقيس عيلان بطونها كثيرة ، فمنهم بنو سليم بن منصور وبنو هوازن وبنو غطفان : ومن غطفان ذبيان وعبس ابنا بغيض وأشجع بن ريث وغنى بن أعصر

وافترقت أولاد الياس فمنهم بطون تميم بن مرة وهذيل بن مدركة وبنو أسد بن خزيمه : وبطون كنانة بن خزيمه ، ومن كنانة قريش وهم أولاد فهر بن مالك بن النضر بن كنانة

وقد انقسمت قريش الى قبائل شتى من أشهرها جحج وسهم ابنا هصيص بن كعب وعدي بن كعب ومخزوم بن يقظة بن مرة وتيم بن مرة وزهرة بن كلاب وعبد الدار بن قصي وأسد بن عبد العزى بن قصي وعبد مناف بن قصي

وكان من عبد مناف أربع فصائل : عبد شمس ونوفل وعبد المطلب وهاشم . وييت هاشم هو الذي كان منه سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ابن هاشم ، والعباسيون أولاد عباس بن عبد المطلب والعلويون أولاد علي ابن أبي طالب بن عبد المطلب مساكن العدنانية

لما تكاثروا أولاد عدنان رأوا أن البلاد التي نبتوا بها لم تعد تكفيهم
فأخذوا يهجرونها متتبعين مواقع القطر ومنابت العشب

فهاجرت عبد القيس - من ربيعة وبطون من بكر بن وائل - إلى
البحرين فأقاموا بها وكان معهم بطون من تميم ومنهم كان أمير هذه
الجهة من قبل الفرس حين مجيء الاسلام، وذلك الأمير هو المنذر
بن ساوي من بني حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم

وخرجت بنو حنيفة بن صعب بن علي بن بكر إلى اليمامة فنزلوا بحجر قصبية
اليمامة وكان أميرهم عند مجيء الاسلام هو ذو بن علي الحنفى الذي يقول فيه الاعشى
من ير هوذة يسجد غير متشب اذا تعمم فوق التاج أو وضعاً
له أ كليل بالياقوت فصلها صواغها لا ترى عيباً ولا طبعاً
وكان أبو عمرو بن العلاء يقول لم ينتوج معدى قط وانما كانت
التيجان لليمن فسأله أبو عبيدة عن هوذة فقال انما كانت خرزات تنظم له
وكان هوذة يجير لطيمة كسرى في جنبات اليمامة

وأقامت سائر بكر بن وائل في طول الارض من اليمامة إلى البحرين
إلى سيف كاظمة ، إلى البحر فأطراف سواد العراق فالابتلة فهيت
وأقامت تغلب بالجزيرة الفراتية ومنها بطون كانت تسكن بكرًا وسكنت
بنو تميم ببادية البصرة وأقامت بنو سليم بالقرب من المدينة من وادي القرى
إلى خيبر ، إلى شرقي المدينة إلى حد الجبلين ، إلى ما ينتهي إلى الحرة فتلك
ديارهم لا يخالطهم إلا بعض الانصار

وسكنت ثقيف بالطائف وهو ازن في شرقي مكة بنواحي أوطاس -
وهي على الجادة بين مكة والبصرة

وسكنت بنو أسد شرقي تيماء وغربي الكوفة بينهم وبين تيماء ديار
يحتل من طيء وبينهم وبين الكوفة خمس ليال

وسكنت ذبيان بالقرب من تيماء الى حوران وبقي تهامة بطون كنانة
وأقام بمكة وضواحيها بطون قريش الا أنهم متفرقون لا تجمعهم جامعة حتى
ينبع فيهم قصي بن كلاب فجمعهم وكون لهم وحدة شرفتهم ورفعت عن
أقدارهم

بدو العرب وحضرهم

ينقسم العرب - بالنسبة الى مساكنهم - الى حضروهم سكان المدن
وبدو ، وهم الذين يقيمون في البادية . انما مساكنهم بيوتهم الشعرية لا
يصفو عيشهم الا في ذلك الجو الفسيح - لا يحجب فيه عنهم السماء ولا
الهواء وغذاؤهم اللبن ولحم الجوزور : وقد يطلق المؤرخون عليهم خاصة
اسم الاعراب ، وهو ما سنتبعه ويغلب على خلق هؤلاء الناس البساطة
وجفاء القول وذلك هو ما يسمى بالعنصرية

أما الحضرة : فهم سكان المدن وقد كان بالجزيرة مدن كثيرة أكثرها
ببلاد اليمن فكان فيها مأرب وصنعاء ويقول عنها اليمنيون انها أقدم مدينة
على وجه الارض ، وفيها زبيد وعدن وصعدة ومخا وشبام وغير ذلك ، وفي
شمال اليمن مكة : وهي تهامة والطائف والمدينة وهما حجازيتان وخيبر : وفي

نجد حائل وفي العروض حجر - قصبة اليمامة - والقطيف بالبحرين وأهل
المدن لا يظعنون عن مقامهم لا في صيف ولا في شتاء

تجارة العرب

كانت للعرب تجارات يتبادلون بها حاجهم وكانت لهم أسواق شهيرة
يجمعون فيها من كل صوب لشراء ما يبيعون ويبيع ما يحصلون عليه من
نتائج بلادهم وكانت اكسرى والنعمان لطائم يرساها الى نواحي الجزيرة
لتباع فيها بمحميها من غارات الاعراب كبير من كبار العرب تحمل البز
والثياب وما تحتاجه العرب : وكان لقريش رحلتان تجاريتان احدهما للشام
في زمن الصيف : والاخرى لليمن في زمن الشتاء : وبلاد اليمن كانت تتجر
بمحاصلات أرضها مع الحنشة والهند وبلاد فارس ولهم مرافئ تجارية كبيرة
ولم يعرف للامة العربية تقود كان بها التعامل ، وانما كانوا يتعاملون بنقود
الدولتين المجاورتين لهما وهما الفرس والروم

صناعة العرب

أما الصناعات فكانوا أبعد الامم عنها حتى أن البدو منهم كانوا
يحتقرونها ويعيبون المحترف بحرفة واذا تأملنا ما كان يلهمج به جريوالفرزدق
وكلاهما من تميم لانجده اكثر من أن أحد آباء الفرزدق كان محترفا بحرفة
هي جلاء السيوف ! وكان المعديون يعيبون أهل اليمن بدياغة الجلود لان الفرظ
لما كان كثيراً في جهة صنعاء استعملوه في دبغ الجلود واستعملها فيما تصاح له
من النعال وغيرها ، وكذلك حياكة الثوب : ويقول قائلهم هم بين دابغ جلد

وناسيج برد ، وكان نساء العرب كافة يشتغلن بالغزل - وكانوا يرجعون في صناعة البناء الى عمال من الروم أو الفرس كما يعلم ذلك من بناء الكعبة في زمن قريش وبناء الخورنق في زمن النعمان : وأمهر من اشتغلوا بالصناعات هم أهل اليمن والحيرة ومشارف الشام وكلهم من عرب قحطان

﴿ أحوال العرب ﴾

قد حصرنا أحوال هذه الامة التي تمثلها لنا اكبر تمثيل في الاحوال الاجتماعية والادبية والسياسية والدينية ، ونعني بالاجتماعية ما كان للفرد منهم من العلاقة باهله وولده وبني عمه دنيا : ثم ما كان من العلاقة بين القبائل المختلفة ونعني بالادبية ما كان لهم من الاخلاق التي توارثها خلفهم عن سلفهم فعرفوا بها ، ونعني بالسياسة ما كان لهم من الاستقلال بحكم أنفسهم أو التبعية لغيرهم ونعني بالدينية بيان معتقداتهم وما كانوا يعظمونه من بيوت العبادة

حال العرب الاجتماعية

الرجل في أهله - ونريد بالاهل خصوص الزوج
يظلم العربي من زعم انه كان ينظر الى المرأة نظرة استخفاف أو إهانة فانا اذا كننا نستقي تلك المعاملات من شعرهم الذي هو ديوان أخبارهم نرى الامر على العكس من ذلك فقد كان الرجل اذا أراد ان يتمدح بماله في نظر العرب للمقام السامي من الكرم والشجاعة لم يكن يخاطب في أكثر أوقاته الا المرأة التي ان رقي في نظرها فقد رضي الناس كلهم عنه ، وترى

ذلك واضحا جليا في أشعار حاتم الطائي شيخ الكرام وغنيرة العباسي شيخ
الشجعان ثم انظر الى أي شجاع من العرب هل كان يفتخر الا محدثا امرأة
من قومه بانه المدافع عن الحرم الحامي للحقيقة ؟

تراه اذا عدلته على السرف وأشارت عليه بالقصد يجيبها بأرق ما تجيب
به مخالف في الرأي

ألم تعلمي يا عمر ك الله أني كرم على حين الكرام قليل ؟
أو لا ترى ان جميع الشعراء اذا بدأوا قصائدهم التي بها يفخرون
بحامد قومهم وعظيم مقاصدهم - لا يذهبون الى شيء من ذلك حتى يعطوا
المرأة قسطها مما تحب من النسب يرون أن شعرهم بدون ذلك يفقد الطلاوة
المقبولة وتراهم حينما يخاطبونها وهي ذات زوج يلقبونها بخير الالقاب
فيقول أحدهم

ياربة البيت قومي - غير صاغرة ضحي اليك حال القوم والقربا
فأعطاؤها هذا اللقب الجميل يشعر بما كان لها في النفس من سمو الدرجة
وما أحلى احتراسه في قوله غير صاغرة ! ويقول الآخر لزوجته

سلي الطارق المعتري يا أم مالك اذا ما أتاني بين قدرى ومجزري
أيسفر وجهي وهو أول القرى وأبذل معروفه دون منكري
فلا يناديها الا بكنيته وهذا من سمات التشريف في عرفهم

وبالجملة فان المتبع لأشعار العرب لا يشتم منها رائحة الصغار والاهانة
المرأة ويفخرون بنسبتهم الى أمهاتهم كما يفخرون بنسبتهم الى آبائهم وكانت

المرأة فيهم اذا ارادت فرقت ، وان شئت جمعت فان اتجمت عواطفها
للسلام سعت اليه ونجحت وان وجهتها ارادة الانتقام الى الشر أشعلت النار
بين الاحياء

قال الحارث بن عوف المري لخارجة بن سنان - في اباد الحرب بين
عبس وذييان - اتراني اخطب الى أحد فيردني قال نعم : أوس بن حارثة بن
لام الطائي ، فقال الحارث لعلامه هبى الى مركبائهم ركب هو وعلامه
ومعهما خارجة ، حتى أتيا أوساً فوجداه في داره فلما رأى الحارث ركب به
وسأله عن مجيئه ، فقال جئتكم خاطباً فقال أوس : لست هناك فانصرف ولم
يكلمه ثم دخل أوس على امرأته مغضباً وكانت من عبس فقالت من
رجل وقف عليك فلم تطل ولم تسلمه قال ذاك سيد العرب الحارث بن
عوف قالت فمالك لم تستنزه قال انه استحمق جاءني خاطباً قالت أفتريد ان
تزوج بناتك قال نعم قالت فاذا لم تزوج سيد العرب فمن قال قد كان
ذلك قالت فتدارك ما كان منك فالحقه وقل له انك لقيتني مغضباً بأمر لم
تقدم مني فيه قولا فلم يكن عندي من الجواب الا ما سمعت فانصرف
ولك عندي كل ما أحببت فانه سيفعل ففعل ذاك أوس ورد حارثة فلما
وصلوا الى بيت أوس قال أوس لزوجها ادعي لى فلانة لكبرى بناته فأتته فقال
يا بنية هذا الحارث بن عوف سيد من سادات العرب وقد جاءني طالباً خاطباً
وقد أردت ان أزوجه منك ، فقالت لا تفعل لاني امرأة في وجهي ردة في
خلقى بعض العهدة ولست بابنة عمه فيرعي رحى وليس بجارك في البلد فيستحي

منك ولا آمن ان يرى منى ما يكره فيطلقني فيكون على ذات ما فيه ، قال قومي
بارك الله فيك ثم دعا الوسطى فاجابته بمثل جوابها وقالت اني خرقاء وايسر
بيدي صناعة ولا آمن ان يرى منى ما يكره فيطلقني فيكون على ذات
ما تعلم ، ثم دعا الثالثة وهي بهيئة صغراهن فلما عرض عليها قالت أنت وذاك
فاخبرها باباء اختها فقالت اكفى والله الجميلة وجها الصناعات يد الرقيقة خلقا
الحسبة أبا فان طلقني فلا اخلف الله عليه بخير فزوجها الحارث وهيئت اليه
في بيت أبيها فلما خلا بها وأراد ان يمد يده اليها قالت مه أعند أبي واخوتي .
هذا والله ما لا يكون فارتحل بها حتى اذا كان ببعض الطريق وأراد قربانها
فقال اكما يفعل بالامة الجليية أو السبية الاخذة لا والله حتى تنحر الجزر
وتذبح الغنم وتدعو العرب وتعمل ما يعمل لمثلي فرحل حتى اذا وصل ديار
قومه أعد لها ما يعد لمثلها فلما أراد قربانها قالت له أفرغ لنكاح النساء والعرب
تقتل بعضها اخرج الى هؤلاء القوم فاصالح بينهم ثم ارجع الى أهلك
فلن يفوتك فيخرج الحارث مع خارجه ابن سنان فاصلحا بين القوم وحملوا
الديات وكانت ثلاثة آلاف بعير في ثلاث سنين

فهذه الحكاية تدل على مكانة المرأة في نظرهم ومشاركتها لهم في جميع
أمرهم وكيف كان الرجل لا يزوج بناته الا بعد ان يستشيرها ويقف عند
إرادتها ولا يمكننا ان ندعى ان هذا كان أمراً عاماً عندهم بحيث تكون المرأة
محترمة الجانب في جميع الطبقات تعامل هذه المعاملة من جمهور الامة لان
وجود أفراد هذه معاملتهم لا يحتمل ان يكون برهاناً على أن هذا خلق

عامتهم كيف ونحن في بيئة لانعدم فيها من يرفع زوجه الى اعلى درجات الاحترام والرعاية ولا يستنتج من وجودهم ان احترام المرأة خالق عام للبيئة كلها ولكن الذى يمكننا ان نقوله هو ان ظهور هذا المعاملة على السنة الشعراء الذين هم بمثابة لسان الحال من غير ان يقابلوا بالذكير يدل على انه لم يكن عندهم بدعا من العمل بل كان شيئا لا تنفر منه طباعهم . يوجد بيننا حقيقة من يحترم المرأة احتراماً جلياً ولكن لا يحسر ان يخالف التقاليد العامة يوماً فيكتب في إحدى الجرائد قلت لامرأتى واستشرت امرأتى فى زواج بنى فكان منى ومنها كيت وكيت لو قال هذا لقابلته النفوس بالاستنكار لانه ليس من مألوف عادات القوم

ومن ذلك يمكننا ان نقول ان علاقة الرجل العربى باهله كانت على درجة من الرقي اكثر مما يخيّل الينا وكان لها من حرية الارادة ونفاذ القول القسط الأوفر وسيمر بكم كثير من آثارها الكبيرة فى الاسلام وهي مما يزيدنا تأكداً من هذا رأى إلا ان الرجل كان يعتبر — بلا نزاع — رئيس الاسرة وصاحب الكلمة فيها وكان الرجل يرتبط بالمرأة بعقد الزوج بعد رضا اوليائها ولم يكن من حقها ان تقتات عليهم بذلك وهذا الزوج هو ما عليه جمهورهم

وكانت عندهم انواع من اجتماع الرجل بالمرأة قاصرة على ذوى الدعارة من الشبان الذين لا يخلو منهم زمان او مكان لم يكونوا يطلقون عليها الا السفاح واتخاذ الاخذان ولم يكن ذلك امراً مستحسنًا عند جمهورهم اذ

المعروف عن العربي من غيرته على اهله ومحافظته على شرفه - يبعد ذلك
من الخطأ بعد ذلك أن يقال ان الزواج كان عندهم على انواع ويخرج
في ضمن هذه الانواع تلك المسافحات

وكانوا يعددون بين الزوجات الا انه لم يكن هناك حد معروف اليه
ينتهي الامر في هذا التعدد فقد ورد في الصحيح ان غيلان الثقفي أسلم ونحوه
عشرة نسوة

وكانوا يضاقون والطلاق بيد الرجل الا انه كان هناك نساء امتزجت
بشرف قومهن فكن يشترطن عند التزوج ان تكون الفرقة بأيديهن

وكانت عندهم اجتماعات تعقدتها شفار السيوف وأسنة الرماح فكان
إذا قابل أحد منهم آخر معه ظعينة وليس من قبيلته ولا من قبيلة لها معها
حليف تقاتلا فإذا قهر صاحب الظعينة أخذت منه سبيبة فاستحياها بذلك الغالب
ولكن الاولاد الذين تكون هذه امهم يلحقهم العار في مدة حياتهم ولذلك
كان من مفاخر الرجل منهم أن تكون أمه حرة نسبية لاسيية جليبة وان
كان قد بذغيره بشجاعته اعتمد على هذه الشجاعة في نفي العار عنه كما قال
عنترة :

اني امرؤ من خير عبس منصبا شطرى وأحى سائرى بالمنصل
وكان كبار العرب يترفعون عن ذلك خشية إلحاق العار بأولادهم
وهم يريدون لهم الشرف حتى كانوا اذا امنوا على أولادهم ذكروا في اول
ذلك انهم تخيروا امهاتهم وكانوا يقولون العرق دساس

وكانوا يحرمون انواعا من الاجتماعات : كزواج البنت والاخت
والعمة والخالة ومن غرائب ما يحكونه عن لقيط بن زرارة أحد اشراف بني
تميم انه تزوج بنته دختنوس ولعله يكون قد تأثر بمذاهب الاباحيين لمجاورته
للفرس والصحيح عند المؤرخين انه انما كان يحبها ويتيمين برأيها ولذلك
كانت تكون معه في غزواته

أما معاملتهم لابنائهم فكانت معاملة من يربي الولد ليكون له درعا
حصينة يتقي بها العدو ولذلك كانوا يتخيرون لهم شر الاسماء من كلب وأسد
وثور وفهر وماشا كل ذلك وكان لهم من الخنوع على الاولاد ما يعبر عنه
قول أحدهم

وانما أولادنا بيننا اكبادنا تمشي على الارض
وعرف عن بعض رجال من العرب انهم كانوا يشدون بناتهم اذا بشر
احدهم بالانثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء
ما بشر به ايمسكه على هون ام يدسه في التراب ولم يكن هذا في جميع العرب
بل كان في بعض بطون من تميم واسد ولم يكن بالطبع الا في طبقة منحطة
منهم لان ذلك انما كان يفعله من يفعله منهم خشية الفقر والى ذلك الاشارة
في قول الكتاب (ولا تقتلوا اولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم)
وكان هناك من اشراف تميم قبل الاسلام من كره الوأد وعابه وكان
يشترى البنات ممن يريدون وادهن بنوق تذهب عنهن الفقر والخوف منه
وعرف ذلك عن غالب بن صعصعة جد الفرزدق

ولا يمكننا بعد ذلك ان نعد هذا الواء من الاخلاق المنتشرة التي
تعد على الامة العربية بل انما تعد على أولئك الافراد الذين اجتروا عليها
أما معاملة الرجل لاختيه وبني عمه دنيا فبينها هذه الجملة التي قالوها
أنصرا خاك ظالما او مظلوما . وكانوا يسرون عليها بمعناها الحقيقي من غير
التعديل الذي جاء به الاسلام لان الاسلام فسر نصر الظالم بكشفه عن ظلمه
امام فكانوا ينصرون اخوانهم وبني عمهم نصراً حقيقياً على كل حال في
صوابهم وخطئهم وعدلهم وظلمهم والذي يتأخر منهم عن هذا الانتصار تقابله
السنة الشعراء بما يغض من كرامته وينقصه من قدره وربما اسباب الهم القبيلة
جمعاء من جراء جاذبة لم يقوموا فيها بنصر احدهم كما قال شاعرهم

لو كنت من مازن لم تستبح إبلى	بنو اللقيطة من قهل بن شيبانا
إذا لقام بنصري معشر خشن	عند الحفيظة ان ذو لوثة لانا
قوم اذا الشر أبدى ناجذيه لهم	طاروا اليه زرافات ووحدانا
لا يسألون أخاهم حين يندبهم	في النائبات على ما قال برهانا
لكن قومي - وان كانوا ذوي عدد -	ليسوا من الشر في شيء وإن هانا
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة	ومن اساءة أهل السوء احسانا
كأن ربك لم يخلق خشيته	سواهم من جميع الناس انسانا
واذا دخلت قبيلتان منهم في حلف كان لكل فرد من إحدى	
القبيلتين النصرة على أفراد القبيلة الأخرى ، وهذا الحلف قد يعقده الافراد	
وقد يعقده رؤساء القبائل والامر واحد في الحلفين	

بينما هذه حالهم في بنى ابيهم دنيا وفي حلفائهم اذا بك تراههم حينما
تتشعب البطون قد نافس بعضهم بعضاً في الشرف والثروة فتجد القبائل
يجمعها أب واحد ، وكل واحدة قد وقفت لاختها بالمرصاد تنهز الفرصة
للغض منها والاستيلاء على موارد رزقها وترى العداء قد بلغ منهما الدرجة
التي لا تطاق كما كان بين بطنى الأوس والخزرج وبين عبس وذبيان وبين
بكر وتغاب وبين عبد شمس وهاشم وكما تراهم في الجملة بين ربيعة ومضر
وبين قيس وكنانة وبين القحطانية والنزارية فكانت روح الاجتماع سائدة
بين القبيلة الواحدة تزيدها العصبية حياة ونمواً وكانت مفقودة تماماً بين
القبائل المختلفة فكانت قواهم متفانية في حروبهم والسبب في ذلك يرجع
الى أمرين :

الاول - التنافس في مادة الحياة بين بنى الأب الواحد فانا نعلم أن
حياة العرب كانت على مراعيهم التي يسمون فيها أنعامهم وعلى مناهلهم التي
منها يشربون وهي محل نزاع دائم لأنه لم يكن يوجد عند العرب حقوق
ملكية محترمة في الكلاً والماء : وأكثر ما يبتدىء ذلك النزاع بين رعاة
الأبل القائمين بشأنها فانهم قد يتنازعون فيمن يرد الماء أولاً أو في نفس
المراعي فيتجاوزهم النزاع الى ساداتهم فلا يجدون من الاقتراق بداً فينزح
أحد الأخوين عن داره مرغماً الى مكان آخر هو وأولاده ومن يلوذ به ولا
يكون ذلك الا بعد أن يشعر الراحل بقوة منازعه فينزح وفي النفس أثر من
(م - ٣)

الغضب يورثه الآباء للأبناء فيتناقلون بينهم أحاديث عن أسباب الخلاف والظلم يجسمها النقل ، وإذا تقارب مكان البطينين كان العداء أبقي : وهذا أمر نشاهده في ديارنا بين البلدين اللذين كان أصابهما واحدًا ثم انفصل قسم من أهله عن الباقين : رأيت بلدًا من مديرية المنوفية يذهب جميع من فيه مذهب الامام مالك في عبادتهم ، وجميع البلاد المحيطة بهم يذهبون مذهب الامام الشافعي ، فاستغربت ذلك ! وسألت ذوي الاسنان منهم عن سببه ، فأخبروني أن أهل هذا الكفر كانوا من أهل ذلك البلد الذي يجاوره ، فلما حصل النزاع والخلاف وغاب أهل الكفر على أمرهم استقلوا بأنفسهم وتركوا البلد وما فيه حتى مذهب أهليه

السبب الثاني -- تنازع الشرف والرياسة وأكثر ما يكون ذلك اذا مات اكبر الاخوة وله ولد صالح يكون موضع أبيه فينازع أعمامه رئاسة العشيرة ، ولا يسلم أحد منهما للآخر فيورثهما ذلك تباغضًا يزيد الايام شدة ، وقد يفارق رئيس أحد البيتين الديار مضمراً في نفسه ما فيها من العداوة والبغضاء ، وقد يبقيان متجاورين وفي هذه الحال يكون التنافر أشد كما كان بين الاوس والخزرج سكان المدينة وكما كان بين هاشم وأمية بمكة وبين عيس ، وذبيان من قيس وبين بكر وتغلب من ربيعة ، ودارم ويربوع من تميم

ولذلك نرى الحروب الهائلة والايام الممدودة انما كانت بين القبائل المتقاربة في الانساب ، المتقاربة في الامكنة

ولم يكن لهم نظام يلجأون اليه في الحكم بين المتنافرين في الرئاسة والشرف انما كانوا في بعض الاحيان يلجأون الى حكم منهم قد عرف باصالة الرأي ويقدم كل من المتنازعين بين يديه بمساعدة مريديه ما يشرفه في النفوس ويعظم أمره من نحر الجزر واطعام الطعام وكانت تكون المصيبة أشد اذا حكم الحكم لأحد الفريقين لان ذلك انما كان يزيد نار العداء ضراماً

واذا كان الحكم عارفاً بدخائل العرب سوى بينهما في الفضل والشرف كما فعل قاضيهم حينما حكم بين عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة العامريين ابني العم فانه قال لهما انما كررتي البعير وهذا حكم لا يحسم النزاع ولا يعدم كل منهما ان يمجده له شاعراً يلهبه ويزيد في نفسه نعمة الجاهلية كما فعل الاعشى في هذه القضية فانه قال القصائد الرنانة يفضل بها عامراً ويزعم أن الحكم قضى له ومما كان يزيد في هذه النيران شدة السنة الشعراء فقد كان ثم الواحد منهم أن يرفع عقيرته بكامة شعرية يعدد بها مفاخر قبيلته ومثالب القبيلة الاخرى واذا زل أحد افراد القبيلة زلة عدوها على القبيلة بأسرها ووسموها بتلك السمة حتى اذا قرأنا مجموعة من أشعار هؤلاء الغاوين وجدنا العرب كلها مثالب وتقائص لان كل شاعر يعدد مثالب القبيلة التي تعادي قبيلته المعترف لها بالتبريز في السيادة وفيها البيوتات الكريمة قد وسمت على لسان شاعر بما يستحي الانسان من انشاده ولم تسلم من ذلك الشر قبيلة واحدة

ومتى وجد النفور بين جماعتين او بين شخصين لا يحتاج شوب نار الحرب بينهما الى اسباب قوية لا يمكن حلها بل ايسر النزاع بين فردين من افراد القبيلتين كاف لشوب نار الحرب وتيتيم الاطفال وتأيم النساء لذلك كانت الجزيرة دائماً الحروب والمنازعات قلما يخاو منها زمان او مكان واذا رجعت الى اسبابها المباشرة وجدتها في بعض الاحيان تافهة كما كان في حروب الفجار وفي البعض الآخر تراها امورا يمكن حلها على اسهل الوجوه كالحروب بين عبس وذبيان وبين بكر وتغلب واسكن الاسباب الحقيقية سابقة على ذلك هي النفور المتأصل في القلوب لما ذكرناه



المحاضرة الثالثة

حال العرب السياسية

كان حكام الجزيرة — من هذه الجهة — قسمين القسم الأول منهم ملوك متوجون الا أنهم يرجعون الى سلطان أعظم منهم فهم في الحقيقة غير مستقلين والقسم الثاني : رؤساء عشائر لهم مالمولك من الحكم والامتياز الا أنهم ليسوا أرباب تيجان وهؤلاء قد يكونون على تمام الاستقلال وقد تكون لهم تبعية لملك متوج

القسم الاول

الملوك المتوجون

ملك اليمن

اذا نظرنا الى المولعين بارجاع التاريخ الى الازمان المتزامية الى الورا وتحدد ما بيننا وبينها من السنين والايام وجدناهم يتناقضون ولا يشعرون فانهم يبنون هذه التحديدات على مجرد خيالات وظنون لا تغنى من الحق شيئاً

يقولون أن قحطان بن عابر المعبّر عنه في التوراة بيقظان هو أول من سكن اليمن من بني سام بن نوح وكانت الارض خلاء ويتبع هذا الكلام

انه كان ملكا متوجا لبس التاج سنة ٢٠٣٠ ق م فتكون النتيجة انه كان ملكا على نفسه أو على أولاده ثم ملك بعده ابنه يعرب وهو من اعظم ملوك العرب ولا يدرون أن الذي يعطونه هذا اللقب لا تزيد رعيته عن ثلاثين من اخوته وبنيه

والمسعودي صاحب مروج الذهب المتوفي سنة ٣٤٦ يقول فيه ان أول من يعد من ملوك اليمن سبأ وهو الفرع الثالث لقحطان ويذكر انه ملك ٤٨٤ سنة

ثم يحكون أقاصيص عن ملوك اليمن وضيامة سلاطنتهم وهي بالخرافات أشبه فيروون عن الرأش بن قيس أحد ملوكهم انه غزا الهند ثم رجع الى اليمن وعاد فذهب الى بلاد طي ، ثم على الانبار والموصل ثم أرسل احد أتباعه الى اذربيجان فغزا وغنم . ويروون عن ابنه ذي منار أنه غزا بلاد الغرب وذهب الى أقصاها وان ياسر أنعم سار نحو المغرب حتى بلغ واديا يقال له وادي الرمل ولم يجد وراءه مجازا لكثرة الرمل ثم صنع صنما من النحاس نصب على صخرة على شفير الوادي وكتب على صدره بالسند هذا الصنم لياسر أنعم الحميري وليس وراءه مذهب فلا يتكلفن ذلك احد . وان تبعا دخل الصين غازيا فقتل مقاتلتها واكتسح ماوجد بها وخلف بالتبت اثني عشر الف فارس من حمير فهم أهل التبت الآن

وكل تلك الاخبار لا تقبل الا اذا ضحى جزء كبير من العقل ، وقد أوضح أسباب فسادها المؤرخ الكبير عبد الرحمن بن خلدون المغربي (المتوفي

سنة ٨٠٨) في مقدمة تاريخه المسمى بالعبر وديوان المبتدا والخبر ، وكذلك علي بن محمد الشيباني المعروف بابن الاثير الحزري المتوفى سنة ٦٣٨

وقد بين محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ حقيقة ملكهم في موضعين من كتابه تاريخ الرسل والملوك فقال عن اليمين لم يكن لملكهم نظام وأن الرئيس منهم انما كان رئيساً على مخالفه ومحجره لا يجاوز ذلك فان نزع منهم نازع أو نبغ منهم نابغ فتجاوز ذلك وان بعدت مسافة سيره من مخالفه - فانما ذلك منه عن غير ملك له موطن ولا لا بانه ولا لا بنائه ولكن كالذي يكون من بعض من يشردون من التلصص فيغير على الناحية بعد الناحية باستغفاله أهلها فاذا قصده الطلب لم يكن له ثبات ، فكذلك كان أمر ملوك اليمين كان الواحد منهم بعد الواحد يخرج من مخالفه ومحجره فيصيب مما يمر به ثم ينشمر عند خوف الطلب راجعاً الى محجره من غير ان يدين له أحد من غير أهل مخالفه بالطاعة أو يؤدي له خراجاً

وقال في موضع آخر ص ١٦٢ جزء أول طبع مصر :

وقد كان لليمن ملوك لهم ملك غير انه كان غير متصل وانما كان يكون الواحد منهم بعد الواحد وبين الاول والآخر فترات طويلة لا يقف على مبلغها العلماء لقلة علمهم بها وبمبلغ عمر الاول منهم والآخر ، اذ لم يكن من الامر الدائم فان دام شيء فانما يدوم لمن دام له منهم لانه عامل لغيره في الموضع الذي هو به لا يملك بنفسه اهـ

فالظاهر أن قبائل اليمن من قحطان تشعبوا في أنحاء اليمن كما تشعب

غيرهم وكان لهم رؤساء من قومهم وكان ينبغ من هؤلاء الرؤساء في بعض الاحيان من يوسع سلطانه الى ما يجاوز مخالفه ثم يرجع الامر الى ما كان عليه اذا ضعفت قوة التغلب في حياته أو ضعفت قوة أعقابيه

وكانت حمير وكهلان في قحطان بمنزلة ربيعة ومضر في عدنان شعبان يتنافسان في الملك والسطوة وقد قسموا البلاد بينهم مخاليف لكل بطن أو عدة بطون مخالف يتسع ويضيق حسب قوة القبيلة وضعفها وكل مخالف رئيس من القبيلة يحكمه

غير أن مخالف صنعاء كان أضخم هذه المخاليف وأخصبها فكان رؤسائه يدعون بالملوك وقد يعظم فيهم الرجل بعد الرجل فيوسع سلطانه الى ما وراء مخالفه بما يتاح له من القوة فاذا امكنه بسط سلطانه على حضرموت والشحر سموه تبعاً لا يستحق هذا القب غيره حتى اذا ضعفت تلك القوة في أيام هذا التغلب أو في أيام أبنائه عاد الأمر الى ما كان عليه ورجع سلطان المخاليف الاخرى الى ذوى السيادة فيها وكانوا يسمون بالاقبال والواحد قيل

ومن هذا يظهر ما بين الملك والملك من السنين الطويلة فيغتر بعض المؤرخين ويجعل للسابق مدة حكمه والفترة التي كانت بينه وبين الملك الذي يليه فربما جعلوا حكم الملك ٤٠٠ سنة وأكثر كما قدمناه عن نلسعودى

ومن أشهر ملوك اليمن بلقيس ملكة سبأ وقد ورد حديثها في التوراة بلقب ملكة سبأ وفي القرآن بهذا اللقب أيضاً

فذكرت التوراة أنها وفدت على سليمان بن داود ملك إسرائيل ورأت
عظمة ملكه وسمعت حكمته . والقرآن ذكر هذه الوفادة وفي سياق الحكاية
ما يدل على أن ملك اليمن لم يكن بتلك الضخامة التي تبث صاحبها على غزو
البلاد النائية والاستيلاء عليها فقد خافت الملكة لما جاءتها رسالة سليمان حيث
قالت (إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك
يفعلون) وقال سليمان لما أرسل إليها مهنداً (إرجع إليهم فلنأتينهم بجنود
لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون) وملك سليمان عليه
السلام لم يكن يتجاوز فلسطين وما حو اليها من تلك الاصقاع فهذا الخوف
من ملكة اليمن وذلك التهديد من ملك فلسطين مع ما بينهما من العدد
الشاسع ، وهو طول جزيرة العرب يجعلنا نفهم مقدار القوة التي كان عليها
ملوك اليمن اذ ذاك . ومن اشتهر من ملوكهم يوسف ذو نواس وكان
يهودياً فرأى أن بعض رعيته بنجران يديون بالدين المسيحي اتباعاً لدعاة
أرساهم الإمبراطور الروماني منذ سنة ٣٤٣ م فلم يكن من ذى نواس
الا أن مثل بهم حرقاً بالنار سنة ٥٢٤ ولما علم بذلك امبراطور الرومان
(جوستين) أمر النجاشي صاحب الحبشة المتدين بالنصرانية أن ينتقم من
ذوى نواس فبعث إليه قائداً حبشياً اسمه أرياط فتغلب على صنعاء ولما رأى
ذلك ذو نواس أغرق نفسه في البحر خشية العار وظل أرياط حاكماً على
صنعاء من قبل ملك الحبشة ثم اغتاله قائد من قواده اسمه أبرهة وحكم
بدله بعد أن استرضى ملك الحبشة فرضى عنه وأبرهة هو الذي جند الجنود
لهدم الكعبة وكان يريد أن يحرق الناس عنها الى بيت بناء بصنعاء فاصابه

هو وجنده بمكة ما أصابهم من الأمراض الثقيلة وقد بينها ابن هشام^(١) في سيرته بأنها الحصبة والجدرى : وروي ان هذا كان أول حصولهما بمكة فعاد منهزما وتوفي بعد عودته وأشار القرآن الى هذه الحادثة في سورة الفيل .

وحكم بعد أبرهة يكسوم ابنه ثم ابنه الثاني مسروق كان في ذلك الوقت من أولاد ملوك اليمن القحطانيين من يتطلع الى نيل الملك ولا يتبعده الا العجز وهو سيف بن ذي بزن الحميري فرأى من الضروري ان يستنجد بأحد الملاكين العظمين ملك الروم أو ملك الفرس ، ولكنه اخفق في استنجاهه بملك الروم فلستنجد ملك الفرس وهو كسرى أنوشروان فوعده كسرى خيراً ثم شغل عنه حيناً من الزمن فمات سيف^(٢) فذهب ابنه بعدي كرب الى كسرى يستنجزه وعده فإشار على كسرى كبراء دولته ان يعين بعدي كرب لما كان لهم من الامل في امتلاك اليمن فأمدوه بجند يقوده أحد الاساورة واسمه وهرز فركبوا مراكبهم من الابل وقطعوا خليج عمان حتى أتوا شواطئ حضرموت فنزلوا من احدى فرضها وتوجهوا الى صنعاء وقد تبعهم كثير من القحطانيين فقابلتهم الحبشة فانتصر وهرز ومن معه على الحبشة وأجلوهم عن البلاد

(١) هو أبو محمد عبد الملك بن هشام الحميري المتوفى سنة ٢١٨ جمع سيرة محمد ابن اسحاق رئيس أهل المغازي المتوفى سنة ١٥١ وسيرته من اجمع السير واضبطها وعليها معول من كتب بعد في السير

(٢) بعض المؤرخين يروي ان سيفاً هو الذي ملك اليمن لا ابنه

وحينئذ توج وهرز معد يكرز ملكا على اليمن وأبقى معه جنداً من
الفرس كانوا يسمون بعد بالابناء وينسب اليهم فيقال ابناوى

وقد وفدت الوفود على ابن ذى يزن يهنثونه بعودة الملك ، وممن وفد
عليه عبد المطلب بن هاشم شيخ مكة وكبيرها وهو جد محمد بن عبد الله صلى
الله عليه وسلم

كان معد يكرز قد أبقى معه من الحبشة جمعاً يخدمونه ويمشون في
ركابه فاغتالوه ذات يوم وبموته انقطع الملك من بيت ذى يزن الا أنه لما
علم كسرى بقتله أرسل وهرز ملكا على اليمن من قبله وما زالت الولاة من
الفرس تتعاقب على اليمن حتى كان آخرهم باذان الذى كان على عهد الفتح
الاسلامى لبلاد اليمن وكان باذان ممن أجاب الى الاسلام فجاء الاسلام
وصنعاء إيالة فارسية يحكمها كسرى بعامل من عماله يؤدى له الخراج ولم يكن
ملكه عاماً بل كان هناك أقبال آخرون يحكمون في مخاليفهم وكتب اليهم
النبي ﷺ كتباً مستقلة بصفتهم أقبالا ، كما كتب الى النعمان قيل ذى رعين
ومعافر وهمدان ، وكما كتب الى الحارث بن عبد كلال وأخيه . وكان
لكندة بحضر موت رؤساء مستقلون يشبهون الملوك

الملك بالحيرة

بعد ان انهزم دارا ملك الفرس أمام الاسكندر المقدونى في سنة ٣٣٢ ق . م
انحطت المملكة الفارسية عن درجه عظمتها السامية وتولاها ملوك
يعرفون في تاريخ الفرس بملوك الطوائف وكان للاسكندر أغراض في هذه

التجزئة وهي أن يسجل على بلاد الفرس ضعفاً أبدياً لا يتمكنون معه من إعادة الكرة على أملاك اليونان وقد نجح في هذه الفكرة فان ملوك الطوائف لم تكن لهم تلك القوة المجتمعة التي كانت للفرس من قبل واستمر ملوك الطوائف يحكمون البلاد الفارسية مجزأة بينهم الى سنة ٢٣٠ م وهو الوقت الذي نبغ فيه اردشير بن بابك وشكل الطبقة الرابعة من ملوك الفرس المعروفة بالدولة الساسانية او دولة الالكاسرة

وفي عهد ملوك الطوائف كانت هجرة العرب من اليمن بعد سبل العرم واحتلوا جزءاً مهماً من ريف العراق كان قبل ملكاً للدولة الفارسية ثم لحقهم بعد استقرارهم من هاجر من ولد عدنان فزاحموهم في تلك الجهات وسكنوا جزءاً من الجزيرة الفراتية

فالما نبغ اردشير وجدد المملكة الفارسية وادخل جميع مخالفيه من الفرس تحت طاعته وأعاد تلك القوة التي كانت لهم من قبل رجع الى العرب المقيمين على تخوم ملكه فاستولى عليهم وصاروا من رعيته وكان هذا سبباً في رحيل جمع من قضاة الى الشام . ودان له أهل الحيرة والانباء . وفي عهد اردشير كانت ولاية جذيمة الواضح على الحيرة وسائر من ببادية العراق والجزيرة من ربيعة ومضر وكان اردشير رأى انه يستحيل عليه ان يحكم العرب مباشرة ويمنعهم من الاغارة على تخوم ملكه الا بأن يملك عليهم رجلاً منهم له عصبية تؤيده وتمنعه ومن جهة أخرى يمكنه الاستعانة بهم على ملوك الرومان الذين كان يتخوفهم وليكون عرب العراق أمام عرب الشام الذين اضطنعمهم ملوك الرومان وكان يبقى عند ملك الحيرة كتيبة من جند الفرس

يستعين بها على الخارجين على سلاطانه من عرب البادية وكان يطلق على تلك
الكتيبة دوسر (يظهر انها تعريب دوشير وترجمته أسدان وهما شارة راية
الفرس)

ولجئمة هذا خبر ظريف مع آل أذينة ملوك العرب بشمال الجزيرة
ومشارف الشام فانه غزا ملكهم المسمى عمرو بن الظرب وقتله وكان له بنت
تسمى الزباء احتالت عليه حتى جاءت به الى بلادها وقتلته وكان له ابن
أخت اسمه عمرو بن عدى فأراد ان يأخذ منها بالثأر فأعمل الحيلة الى ذلك
بواسطة أحد المكورة من قومه المسمى قصيراً فسار قصير اليها حتى عرف
مداخل مدينتها وما عملته في قصرها للهرب عند الحاجة ثم استأذنها ليجيء
بتجارة من العراق فذهب وأمر عمرو أن يسير معه بجند ولما قاربوا مدينتها
أدخلوا الرجال في الغرائ على الابل ودخلوا مدينتها بهذه الحيلة ولما ادركت
جلية الامر ذهبت لتدخل المكان الذي أعدته لهربها فادرکها عمرو فقصت
سما وقالت بيدي لا بيد عمرو ، ولما وقعت أجهز عليها عمرو

وهذه الحكاية مع غرائبها ينكر صحتها المؤرخون من الافرنج ،
ويقولون ان الزباء هذه كانت ملكة على تدمر من قبل الرومانيين وليت
الملك بعد وفاة زوجها اذينة من بين السميذع الذين سكنوا بلاد العراق
وبرارى الشام وحوران وانتهى أمر الزباء بأن حاربها الرومان في عهد القيصر
اووليانس وقهروها وأخذوها اسيرة الى رومية حيث قضت هناك نحبها
وذلك في المدة بين سنتي ٢٧٠م و٢٧٣م وموت جزيمة كان حوالى سنة ٢٦٨م
وبعد موت جزيمة ولى أمر العرب عمرو بن عدى بن نصر الاخمي وهو

أول ملوك الازخمين بالحيرة ومدتهم من سنة ٢٦٨ م الى سنة ٦٣٢ م وهي السنة التي فتح فيها خالد بن الوليد مدينة الحيرة وعلى ذلك تكون مدتهم ٣٦٤ سنة الا ان الملك قد انقطع فيها عنهم مرتين كما تراه بعد . وكان ابتداء ملك عمرو في عهد سابور بن اديسر ولم تزل الملوك من بني نصر تتوالى على الحيرة حتى ولى الفرس قباذ بن فيروز وكان قد ظهر في زمنه مذهب الاباحية في بلاد الفرس على يد أحد فلاسفتهم المدعو مزدك فوجد المذهب رواجاً وتبعه خلق كبير ومنهم الملك قباذ فارسل الى ملك العرب بالحيرة وهو المنذر بن ماء السماء يدعوه الى ان يكون على ذلك المذهب فابى عليه ذلك حمية وأنفة ولما رأى ذلك قباذ عزله عن ملك الحيرة وولى بدله الحارث بن عمرو بن حجر الكندي الذي كان أميراً على قبائل بكر بن وائل وقدماءه بعد ان اجاب دعوته الى المذهب المزدكي

ولم يزل ملكا حتى مات قباذ وخافه كسري انوشروان وكان يكره هذا المذهب جداً ويراه مضرراً بالبلاد وبأنساب أهلها وتربية أبنائها فقتل مزدك وكثيراً ممن دان بهذا المذهب من الفرس واعاد المنذر الى ولاية الحيرة وطلب الحارث بن عمرو وكان بالانبار وبها منزله فهرب باولاده وماله وهجانه فتبعه المنذر بالخيول من تغاب وأياد وبهراء فاحق بارض كلب فنجا وانتهبوا ماله وهجانه وأخذت تغاب ٤٨ نفساً من بني حجر آكل المرار وفيهم عمرو ومالك ابنا الحارث فقدموا بهم على المنذر فقتلهم في ديار بني مرينا وهم الذين يعنيه عمرو بن كلثوم التغلبي في معاقبته

فأبوا بالنهاب وبالسبايا وأبنا بالملوك مصفديننا

ولم يزل حارث في ديار كلب حتى مات
ولما كان بالحيرة جاءه أشراف من نزار وطلبوا منه أن يولى أمرهم
بعض ولده فملك ابنه حجراً على بنى أسد بن خزيمة وعطفاك وملك ابنه
شرحبيل على بكر بن وائل بأسرها وملك ابنه معد يكرب على قيس عيلان
وملك ابنه سامة على تغلب والنمر بن قاسط وبنى سعد من تميم . ولم يكن
هذا الملك بالشئ الموطد لأن قبائل البدو لا تحتمل وما يستدعيه ولذلك
قامت بنو أسد على حجر بن عمرو وقتلوه بعد أن ظهر له منهم عسفه وشدته
وكان من نتيجة قتله أمر ابنه امرئ القيس وقيامه لأخذ الثار ممن قتلوا
أباه وكان يريد أن يملكهم قسراً فأب بالفشل بعد خطوب طويلة كانت
عليه في ذهابه الى ملك الروم واستنجاهه به على قتله أبيه

ولما عاد الملك الى المنذر بن ماء السماء استمر في عقبه حتى كان النعمان
ابن المنذر المكنى بأبي قابوس صاحب النابغة الذبياني وهو الذي غضب
عليه كسرى بسبب وشاية دبرها زيد بن عدى العبادي انتقاماً منه بحبسه
أباه حتى مات فلما أحكم زيد الأمر واشتد غضب كسرى على النعمان وأرسل
اليه يطلبه فخاف النعمان عاقبة الأمر وأيقن أنه هنالك ان توجه الى المدائن
فذهب يتنقل في أحياء العرب يريد منهم ان يحموه من كسرى فأبى عليه
القبائل ذلك ولم يزل متنقلاً حتى ورد ذا قار ونزل على بنى شيبان سرّاً فلقى
هانيء بن مسعود الشيباني وكان سيدهاً منيعاً والبيت من ربيعة في آل
ذي الجدين لقيس بن مسعود أخي هانيء وكان كسرى أطعمه الأبله فكره
النعمان أن يرفع اليه أهله لذلك وعلم أن هانيئاً يمنع مما يمنع منه أهله وولده

فأودعه أهله وماله وتوجه الى كسرى فحبسه حتى مات وولى على الحيرة بدله
إياس بن قبيصة الطائي وهو من أشرف طيء وأمره أن يرسل الى هانيء
بن مسعود فيطلب منه تسليم ما عنده فأبى ذلك هانيء حية. وأذنوا للملك
بالحرب فامر إياس أن يسير اليهم بالجنود ومعه مرزابة كسرى وكتائبه
ولما دنت الفرس من بني شيبان قال لهم هانيء يا معشر بكر لا طاقة لكم
بحرب كسرى فاركنوا الى الفلاة فاسرع الناس الى ذلك فقام حنظلة بن
ثعلبة العجلي وقال يا هانيء أردت نجاءنا فألقيتنا في الهلاك ورد الناس وقطع
وضن الهوارج وضرب على نفسه قبة وأقسم أن لا يفر حتى تفر القبة فرجع
الناس وانتظروا مجيء الفرس حتى جاءتهم : وكان بين الفريقين موقعة هائلة
انتصر فيها بنو شيبان وانهمزمت الفرس هزيمة منكرة وهذا أول يوم
انتصرت فيه العرب على العجم وهو بعد ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم
بقليل فانه عليه السلام ولد لثمانية أشهر من ولاية قبيصة على الحيرة

وكان مع إياس قائد من قواد الفرس وبعد موته ولى كسرى على
البلاد حاكماً فارسياً كما فعل في بلاد اليمن بعد موت معد يكرب

وفي سنة ٦٣٢ عاد الملك الى آل خنم فتولى منهم المنذر الملقب بالمغرور
وكانت ولايته الى ان قدم عليه خالد بن الوليد ثمانية أشهر وهو آخر من بقي
من بني نصر بالعراق

جاء الاسلام وملك العرب بالحيرة ضعيف جداً ، كما كان في اليمن
لان الملك كان عاملاً للفرس يأتمر بأمرهم ويؤدي لهم الخراج واذا شاء

ملوك الفرس ابقوه وان شاءوا عزلوه . ولم يكن سلطانهم على قبائل البدو سلطاناً تاماً وانما كان اسمياً لان العرب كثيراً ما كانوا يخالفون أمره بل ويقومون في وجهه محاربين وكان احياناً ينتصر عليهم اذا قاموا في اماكنهم واحياناً يخفق لأنهم يتركون منازلهم ويجمعون بباديتهم فلا يمكنه ان يتبعهم

وما يدل على مقدار سلطانهم على رؤساء العشائر العربية ان عمرو بن المنذر بن ماء السماء وامه هند بنت الحارث بن عمرو الكندي قال يوماً لجلسائه هل تعلمون احداً من العرب يألف ان تخدمه امي قالوا ما نعرفه الا ان يكون عمرو بن كلثوم التغلبي فان امه ليلى بنت مهمل وعمها كليب وائل وزوجها كلثوم وابنها عمرو فسكت عمرو على ما في نفسه ثم ارسل الى ابن كلثوم يستزيه ويأمره ان تزور امه هند بنت الحارث ام الملك فقدم ابن كلثوم في فرسان من قومه تغلب ومعه امه ليلى فنزل على شاطئ الفرات وضرب ابن هند خيامه بين الحيرة والفرات وصنع لاهل مملكته طعاماً وجلس هو وابن كلثوم ووجهاء الدولة داخل السرادق وليلى ام عمرو مع هند في القبة وقد قال ابن هند لامه اذا فرغ الناس من الطعام فنحى خدمك عنك فاذا دنا الطرف فاستخدي ليلى ومريها ان تناولك الشيء بعد الشيء ففعلت ما أمرها به ابنها فلما استدعي الطرف قالت هند ليلي تناوليني ذلك الطبق قالت لتقم صاحبة الحاجة الى حاجتها فألحت عليها فقالت ليلى واذا لاه يا آل تغلب فسمعها عمرو بن كلثوم فثار الدم في وجهه والقوم

يشربون وقام وتناول سيف ابن هند وهو معلق في السراقد وايس هناك
سيف غيره فاخذته وضرب به رأس ابن هند فقتله وقال في ذلك شاعر
التغليين :

لعمرك ما عمرو بن هند وقد دعا لتخدم ليلى أمه بموفق
فقام ابن كلثوم الى السيف مصلتا وأمسك من ندمانه بالخنق
وقال ابن كلثوم في معلقته :

بأى مشيئة عمرو بن هند تطيع بنا الوشاة وتزدرينا
بأى مشيئة عمرو بن هند نكون لقيلكم فيها قطينا
تهددنا وتوعدنا رويداً متى كنا لامك مقتوينها
فان قناتنا يا عمرو أعيت على الاعداء - قباك - أن تليها



المحاضرة الرابعة

الملك بالشام — الامارة بالحجاز — الحكم عند العرب

الملك بالشام

في العهد الذي سار فيه عرب اليمن الى ريف العراق كان من قضاة قبائل سارت الى مشارف الشام وسكنت بها لانها أرض خصبة يمكنهم ان يعيشوا فيها وكانوا من بني سليح بن حلوان الذين منهم بنو ضجعم بن سعد ابن سليح ويقال لهم الضجاعة نسبة الى ابيهم ضجعم وكانت هذه البلاد تحت ملك الرومان بعد غزوات الاسكندر المقدوني وفتوحاته فاصطنعهم الرومان ليمنعوا عرب البرية من الغيث وليكونوا عدة ضد الفرس وولوا منهم ملكا ومن أشهر ملوكهم زياد بن الهبولة وقد مكثت الضجاعة عهداً طويلاً يلون أمر العرب حتى أقبل عليهم بنو جفنة الغسانيون بمن معهم من عشائرتهم يقدمهم جفنة بن عمرو مزقياً فغالب السليحيين على ما يدهم وانتصر عليهم فولته الروم ملكاً على عرب الشام الذين كانوا يقيمون بنواحي الشام وكان هذا العصر عصر اضطراب في المملكة الرومانية ويسمى في تاريخهم مدة الفوضى العسكرية وانتهت سنة ٢٨٦ م

ولم تزل الملوك تتوالى من آل جفنة على الشام وما يليه من بادية العرب

بصفتهم عمالاً لملوك الروم حتى جاء الاسلام وكانت واقعة اليرموك سنة ١٣ من الهجرة وانتقاد للاسلام آخر ملوكهم جبلة بن الايهم في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب

وكان ابني جفنة بالشام مدنية اقتبسوها من الروم فبنوا كثيراً من المصانع والاديرة لانهم كانوا يدينون بالدين المسيحي وكان حسان بن ثابت كثيراً ما يمدحهم لانه ينتمى الى أحبابه وهو الازد وله فيهم المدح الجميلة منها قوله :

أولاد جفنة حول قبر أبيهم قبر ابن مارية الكريم المفضل
يغشون حتى ماتهم كلابهم لا يسألون عن السواد المقبل

وكان لآل جفنة مواقف معدودة انتصروا فيها للروم على الفرس وصدوا عنهم ملوك الحيرة من آل نصر ، فكان بين البيتين أيام هائلة منها يوم عين أباغ (وهي واد وراء الانبار على طريق الفرات - الى الشام) كان بين المنذر بن ماء السماء وبين الحرث الاعرج بن أبي شمر جبلة وهو من أعظم ملوك الغسانيين وكانت الغلبة في هذا اليوم لآل جفنة مع أن المنذر هو الذي بدأ بالشر لانه كان يريد من خصومه أن يدفعوا له الفدية بمعنى أنهم يعترفون له بالقوة عليهم وفي هذا سقوطهم أمام الروم الذين اذ طعنوهم

وكان من نتيجة هذا اليوم أن الاسود بن المنذر لما ولى بعد أبيه أراد الانتقام له فجهز جيشاً تحت قيادته وسار الى ان أتى مرج حليلة وهناك قابلته جيوش الغسانيين وكان لهؤلاء الظفر أيضا .

الامارة بالحجاز

كان يلي أمر مكة ولاية من جرهم قحطان - وهي جرهم الثانية - ولما جاء اسماعيل مكة مع أئيه ابراهيم صاهرهم : وكانت لاولاد اسماعيل بعد أئيههم مركز محترم لما لا يئيههم من بناء البيت وان لم يكن لهم من الحكم شيء . ولما ارتحل الازد من مأرب بعد السد ، كان منهم من عرج على مكة وهو حارثة بن عمرو الملقب بخزاعة وحارب جرهم فانتصر عليهم وأجلاهم من مكة حتى قال قائلهم :

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى : نحن كنا أهلها فأبادنا صروف الليالي والجدود العواثر

ووايت خزعة أمر مكة حينما من الزمن وفي وقت حكمهم تناسل العدنانيون وكثروا وانتشروا في نجد وأطراف العراق والبحرين ، وبقي بمكة أولاد فهر بن مالك وهو قریش وليس لهم من أمر مكة ولا البيت الحرام شيء حتى جاء قصي بن كلاب وهو الاب الخامس لمحمد بن عبد الله ﷺ فجمع شتاتهم ووجد كلمتهم فكانت لهم بذلك قوة أمكنهم أن يزاحموا بها خزاعة ويتغلبوا على أمر مكة ، ولما لم يبق الا أمر ولاية البيت أخذه قصي من سادته المكنى بأبي غبشان وهو صهر قصي ، ويقال انه اشتراه منه بزق خمر ، ولم يكن يمكنه مثل هذه الصفقة الا بالقوة التي كونها من عصية فهر بن مالك وبهذا كانت له اليادة التامة والامر النافذ في مكة ، وصار الرئيس الديني لذلك البيت الذي كانت تفد اليه العرب من جميع انحاء الجزيرة ، ومن ما أثر قصي

تأسيس دار الندوة بمكة وكانت مجمع قريش وفيها تفصل مهام أمورها ولهذه الدار فضل على قريش لأنها ضمنت لهم اجتماع الكلمة وفض الشاكن بالحنى : وكان لقصى من مظاهر الرئاسة والتشريف :

(١) رئاسة دار الندوة ففيها يتشاورون فيما نزل بهم جسام من الامور

وزوجون فيها بناتهم

(٢) اللواء فكانت لاتعقد راية الحرب الا بيده

(٣) الحجابة وهي حجابة الكعبة لا يفتح بابها الا هو وهو الذي يلي

امرا خدمتها

(٤) سقاية الحاج ورفادته : ومعنى السقاية أنهم كانوا يأتون للحاج

حياضاً من الماء يحلون بها بشيء من التمر والزبيب ، فيشرب الناس منها اذا

وردوا مكة : والرفادة طعام كان يصنع للحاج — على طريق الضيافة

وكانت قريش تساعد قصياً على ذلك بما تقدمه له من الخرج الذى تخرجه

كل سنة

كان كل ذلك لقصى بن كلاب وكان ابنه عبد مناف قد ساد فى حياة

أبيه فأراد ابوه أن يلحق به ابنه عبد الدار الذى كان أسن من

عبد مناف فأوصى له بما كان يليه من مصالح قريش ، فلم يناع عبد مناف

أخاه لاحترامه وصية أبيه : ولما مات كان له أربعة من الولد وهم هاشم

وعبد شمس والمطلب ونوفل فنافسوا بنى عمهم عبد الدار فى هذه المصالح

التي رأوا أنفسهم أحق بها لشرفهم وسيادتهم وكثرة عددهم وبذلك ابتداء

النزاع بين بنى العم ، وسببه المنافسة فى الشرف وافتقرت قريش فرقتين :

فرقة تساعد بنى عبد مناف وفرقة تساعد بنى عبد الدار ، وكاد يكون بينهم قتال لولا أنهم ألهموا الصالح على طريق لا يغض من الطرفين وهو اقتسام هذه المصالح فجعلوا بنى عبد الدار الحجابة واللواء والندوة ، وبنى عبد مناف السقاية والرفادة . ثم حكم بنو عبد مناف القرعة فيما أصابهم فخرجت لهاشم ابن عبد مناف فكان هو الذي يليهما ، ومن بعد بنوه حتى جاء الاسلام والامر على ذلك

وكانت قريش مصالح أخرى لا تساوي هذه في العظم — وزعت بين قبائل قريش وبذلك كانت مصالح الحكم والولاية موزعة بين رؤساء القبائل المختلفة من قريش حتى لا يكون هناك مجال للنزاع وهذا ما حفظ قريشاً مما أصاب سائر العرب من التنازع والقتال ، الا أنهم وان لم يصابوا بمصيبة الحروب لم يسلموا من المنافسة التي تكون حتما بين كبراء البيت الواحد ، اذا كان لكل واحد ما يساعده على الشرف والرئاسة ، وقد حدث ذلك بين هاشم بن عبد مناف وابن أخيه أمية بن عبد شمس ، فقد كان هاشم سيداً بماله من المصالح الكبرى في قومه ، وكان أمية ثرياً من المال والولد ، ولذلك كان ينافس عمه رئاسة قريش ، فكان بذلك جفاء بين البيتين وأعقابهما حتى جاء الاسلام ، ولكن لم يصل هذا النزاع يوماً الى حد شبوب القتال بينهم لان البيت القرشي كان يحاذر على احترام البيت ومنع الحرم من سيلان دم فيه ، لان ذلك لو وقع لانهط المركز السامي الذي نالوه بواسطة ولايتهم للبيت فان مكة كانت معروفة عند العرب بأنها حرم آمن من لجأ اليه فقد نجا من عدوه وكانت أشهر الحج عندهم أشهراً

حرماً يعتقدون فيها أسواقهم التجارية بجانب ذلك البيت العظيم وداخل حدود الحرم والناس تهرع الى هذه الاسواق من جهات العرب كافة لانهم آمنون على أنفسهم وأموالهم فاذا أخل ولالة الحرم بهذا العهد الوثيق قل احترامه من القلوب وسقطت هيئته فيجترى عليه غيرهم ، وبذلك يزول عنهم نفع عظيم كان ينالهم : فمن هنا كان التحكيم في الامور العظيمة من مألوف عاداتهم

ولما حصلت الحرب بين قيس وكنانة واضطرت قريش اليها اضطراباً ستمتها العرب حرب الفجار لما كان فيها من انتهاك حرمة الحرم والقتال على حدوده

ومما امتازت به قريش حلف الفضول ، وكان مداره على أن ترد كل مظلمة بمكة الى صاحبها لافرق في ذلك بين قرشي وغيره ، وهي روح تنافي الحمية الجاهلية التي كانت العصبية تثيرها

جاء الاسلام وقريش على هذه الحال من السيادة والاحترام — تعترف لها بذلك جميع العرب

الحكم عند الأعراب في بواديهم

كانت القبائل في نجد : ما كان بالقرب من الحيرة تبعاً لملك العرب بالحيرة : وما كان منها في بادية الشام تبعاً لملك آل جفنة بالشام ، إلا أن هذه التبعية — بالنسبة لقبائل البادية — كانت اسمية لا فعلية لان العرب لا يطبقون أن يحكموا حكماً ملوكياً يقيد حريتهم التي ليس عندهم ما يعدلها

وكان لهذه القبائل رؤساء منهم تسودهم القبيلة لما يظهر على أيديهم من الفعال وأعظم مسود كان عندهم الشجاعة والكرم والحلم ثم الثروة والعدد فتى وجدت هذه الصفات في رجل ساد العشيرة كلها ، وكانت تبعاً لرأيه يوجهها انى شاء ! تقيم باقامته وتظعن بظعنه ، واذا دعا للحرب لا تتأخر عنه واذا غنمت القبيلة أخذ حقوق الرئاسة والسيادة من الغنيمة يعدها لما يطرأ من النوائب وما يتحمله من الحملات فكان له المربع والصفى والنشيط والفضول : فالمرابع ربع الغنيمة والصفى ما يصفيه الرئيس لنفسه قبل القسمة والنشيط ما أصاب الرئيس في الطريق قبل ان يصل الى بيضة القوم ، والفضول ما فضل من القسمة مما لا تصح قسمته على عدد الغزاة كالبعير والفرس ونحوها : قال بعض الشعراء يخاطب بسطام بن قيس سيد شيبان

لك المربع منها والصفايا وحكمك والنشيط والفضول

وقد يورث الاب الرئاسة لابنه فاذا توالى من البيت الواحد ثلاثة رؤساء سادة عرف البيت بالشرف والمجد ، وكان بيت قيس في الجاهلية في بنى فزارة ومركزه حذيفة بن بدر ، وبيت تميم في بنى دارم ومركزه حاجب ابن زرارة ، وبيت ربيعة في آل ذى الجدين ، ومركزه قيس بن مسعود الشيباني : وكان لهؤلاء الرؤساء من السلطان ما يشبه سلطان الملوك في رعاياهم الا انهم كانوا لا يتنوجون حتى كان بعضهم اذا غضب غضب لغضبه ألوف من السيوف لا تسأله فيم غضب ! وكان في بعض الاحيان يعظم قدر الرئيس ويشدد ساعده بولده وعشيرته فيغزو القبيلة الضعيفة ويجعلها خاضعة تؤدى

له خرجاً كل سنة ، كما كان زهير بن جذيمة سيد عبس - من قيس مع
هوازن وهم بطون من قيس فاتهم كانوا يؤتونه الاتاوة كل سنة بعكاظ ،
وكان النعمان بن المنذر قد صاهره فتزوج ابنته المتجردة

وممن ساد من العرب هوذة بن علي الحنفي سيد بني حنيفة باليمامة
والمنذر بن ساوى التميمي - سيد عبد القيس : وتميم بالبحرين

وعلى الجملة : فقد كانت درجة رؤساء القبائل في قومهم كدرجة الملوك
ولولا ما كان يحصل من المنافسة في السيادة بين أبناء العم من الرؤساء
لكان تحكم السادة شديداً ، ولكن تلك المنافسة كانت تدعوهم الى بذل الندى
واكرام الضيف والدفاع عن العشيرة ليشتهر ذلك على السنة الشعراء منهم
فيهتفون بأسمائهم مادحين : والشعر كان له أعظم التأثير في قلب العربي يحركه
كما يحرك الهواء ريشة في الجو !!



المحاضرة الخامسة

الحال الادبية

الاخلاق — اللغة

الاخلاق

الخلق هو الملكة التي بها يصدر الفعل عن صاحبها من غير مقاومة وقد اصطلح الكتاب على أن يقصر لفظ الخلق على الملكات النفسية كالشجاعة والجن والسخاء والبخل ، وعلى أن يطلقوا لفظ العادات على الملكات الاخرى كالمشي واللعب النظامي

عموم الاخلاق

لا يحسب الخلق على الامة الا اذا كان مألوفاً عند أفرادها يفعلها فاعله منهم من غير أن يحاذر نكيراً أو يخشى لومة لائم ولو لم يباشره جميعهم ولذلك عد من مذام الائم — التي بها تستحق السقوط والخذلان — أنهم لا يتناهون عن منكر فعلوه ، ومن هنا قال الله تعالى في الكتاب (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) لان الشرير يفعل فلا ينكر عليه أحد فيشترك هو ومن معه في الجريمة . فان كان الشر معروفاً عن فرد أو

جماعة يستسرون به أو يعلنونه مع اشمئزاز الجمهور منهم كانت المذمة قاصرة على الفاعلين لا تعدوهم الى الامة بأسرها، وحينئذ يكون من الخطأ عد هذا الخلق على الامة : كذلك لا يحسب الخلق للامة الا اذا كان فاشيا بين أفرادها مألوفاً عند جميعهم لا يخالفه أحد منهم الا مستسراً ويخاف المذمة ان ظهر بالمخالفة أمام الجمهور ، وعلى هذه القاعدة نسير في بيان الاخلاق عند العرب

من الاخلاق التي كانت للعربي سرعة الانفعال والاقدام على المكروه تراه ساكناً مطمئناً فلا يحتاج في هيجه الا الى كلمة صغيرة أو فعلة حقيرة يتخيل معها أن قد مس شرفه فتجده زار كالاسد خرج من مكانه لا يتريث حتى يستطلع جلية الامر ، بل يقدم منكباً عن ذكر العواقب جانباً ! وهذا الخلق أكثر ما تراه في قبائل البادية الذين كانوا لا يخشون سجننا ولا احكاماً قاسية من جراء أفعالهم ، بل هم بالعكس ينتظرون النصر المؤزر من أقوامهم وحلفائهم ، والنفس اذا أحست بما يضرها انفعات وتهياً لها طريق الانتقام ، فاذا لم تخش العادية أقدمت ، ومن هنا كان من السهل تحريك عامتهم الى السير في طريق الحروب بقليل من الكلمات ، وكانت هناك كلمات تحرك قلب العربي كما في كل أمة وأرقاها درجة في التأثير . يا فلان واذلاه ! وانصيراه ! شرف الآباء ! وما شا كل ذلك ، ولم يكن عندهم شيء من بلادة الطبع التي تجعل صاحبها يألف سماع ما يهين شرفه حسبما يتخيل ويتبع هذا الخلق الجرأة على سفك الدم ! لان النفس متي تهياً لها طريق

الانتقام وقدرت ولم تخش عقوبة لم تكثف بدون الموت لمن تريد
الانتقام منه

ومن هنا كان خلق الحلم فيهم عزيزاً اللهم إلا في ساداتهم وذوى
الاسنان منهم ولذلك كان المعروفون بالحلم منهم قليلون

ومن أخلاقهم التعصب . ومعناه أن ينصر ذا عشيرته على أية حال يرون
ذلك من مقومات حياتهم وقد تقدم بيان هذا بوضاحة في حال العرب
الاجتماعية ، وقد سمي القرآن هذا الخلق وما قبله حمية الجاهلية لأن
يهما نتيجة من نتائج الجهل وعدم التثبت

ومن أخلاقهم المتأصلة فيهم الكرم وقد استنفدوا فيه نصف أشعارهم
بين متمدح به ومثن على غيره * كان الواحد منهم يأتيه الضيف - في شدة
البرد والجوع - وليس عنده من المال الا ناقتة التي هي حياته وحياة ولده
فتأخذه هزة الكرم فيقوم اليها ويدبجها لضيفة يخشون مذمات الاحاديث
ويقول قائلهم .

واعلم بأن الضيف يو ماً سوف يحمد او يلوم
ومن طريف اخبارهم في الكرم ان سالم بن قحطان من بني العنبر
جاءه اخو امرأته فاعطاه بعيراً ثم طلب من امرأته حبلاً يقرن به بعيره الى
من اعطاه اياه ، ثم ثانياً وثالثاً حتى لم تجد حبلاً ! فقال لها على الجمال وعليك
الحبال ، فرمت اليه خمارها وقالت اجعله حبلاً لبعضها فقال :

لأنعذلي في العطاء ويسري لكل بعير - جاء طالبه - حبلاً

فاني لا تبكي على افالها اذا شجعت من روض او طامها بقلها
فلم أر مثل الابل مالا لمقتن ولا مثل ايام الحقوق لها سبلا
فاجابته امرأته :

حلفت يميناً يا ابن قحطان بالذي تكفل بالارزاق في السهل والجبل
تزال حبال محصيات اعداها لها ما مشى منها على خفه جمال
فأعط - ولا تبخل - لمن جاء طالبا فعندي لها خطم وقد زاحت العمال
ويرى المطامع على أبواب الحماسة والرتاء والادب والاضيف - من
ديوان الحماسة الذي جمعه حبيب أوس الشخير بأبي تمام - ما يتاج الصدر
ومن أخلاقهم التي كانوا يتمدحون بها ويعيبون - من خالفها الوفاء بالعهد
فقد كان العهد عندهم ديناً يتمسكون به ويستهيئون في سبيل الوفاء به قتل
أولادهم وتخريب ديارهم : أنظروا الى ما فعله هانيء بن مسعود الشيباني
بسبب ادرع النعمان بن المنذر وأولاده حيث عرض نفسه وقومه لحرب
أضحخم دولة وهي الدولة الفارسية فأغضب ملكها ونائبه على الحيرة غير مبال
بما يصيبه وما يصيب قومه من جراء ذلك ؛ ثم انظروا الى ما فعله السموع
بن عادياة وهو عربي المقام والمولد حينما خيره الحارث الغساني بين قتل ولده
وتسليم ادرع امرئ القيس بن حجر الكندي التي كان أودعها عنده ففضل
قتل ولده ، وفي ذلك يقول الاعشى مخاطباً شريح بن عمرو السكلي :

كن كالسموع اذا طاف الهمام به في جحفل كسواد الليل جرار
بالأبلى الفرد من تيماء منزله حصن حصين وجار غير غدار
خيره خطي خسف فقال له اعرضهما هكذا اسمعهما حار

فقال غدر وئكل أنت بينهما فاختر، وما فيها حظ المختار
فشك غير طويل، ثم قال له أقتل أسيرك اني مانع جارى
وسوف يعقبنيه إن ظفرت به - رب كريم ويبيض ذات أطهار
فاختار أدراعه أن لا يسب بها ولم يكن عهده فيها بختار
ثم انظر الى ما فعله حاجب بن زرارة التميمي سيد بنى تميم كيف وفى
للملك بما تعهد به بعد ان رهن على ذلك قوسه عند كسرى حتى ضرب المثل
بقوس حاجب، والقوس فى الحقيقة لا يمنع رهنها من فعل ما يشاء إن كان
من شميمته الغدر، وانما خاف السببة على بنيه من بعده - اذا هو غدر ومما
يبين لنا قيمة هذا الخلق فى الامة العربية انهم كانوا اذا زل واحد منهم زلة
فغدر بنى عهد أصلاه الشعراء ناراً حامية وقلماً يفلح بعدها أو يرفع له رأساً
بين العرب

وخاق الوفاء فى الحقيقة أعظم ممثل للامة ومبين لمقدارها واستعدادها
للرقى فان خلت منه فبشرها بخذلان وسقوط لا محيص عنهما

ومن نتائج هذا الخلق انهم كانوا يغالون فى الوفاء للجار والحليف حتى
يكون عندهم مقدما على الابناء والاخوان . ومن ذلك أن رجلاً من السواقط
من بنى أبى بكر بن كلاب قدم اليمامة ومعه أخ له فكتب له عمير بن سامي
أنه له جار فحدث ان كان بين قرين بن سامي وبين أخى الجار اسباب أدت
الى ان قتله قرين، وكان عمير غائباً فأتى الكلابى قبر سامي أبى عمير وقرين
فاستجار به، فاجتهد بنو حنيفة بالكلابى أن يقبل دية أخيه مضاعفة فلم
يفعل، فلما قدم عمير قالت له أمه لا تقتل أخاك وسقى الى الكلابى جميع ماله،

فأبى الكلابي أن يقبل فأخذ عمير أخاه ومضى به حتى قطع الوادي فربطه
إلى نخلة وقال للكلابي : أما إذ أبيت ألا قتله فامهل حتى أقطع الوادي
وارتحل عن جواربي فلا خير لك فيه فقتله الكلابي . وفي ذلك يقول عمير
قتلنا أخانا للوفاء بجارنا وكان أبونا قد تجبر مقابره

وقالت أم عمير

تعد معاذراً لا عذر فيها ومن يقتل أخاه فقد الآما
أما أمرهم مع حلفائهم فهو أوضح من أن نتكلم فيه فانهم كانوا يخلطون
حلفاءهم بانفسهم ويوفون لهم بآمانهم التي عقدوها معهم وكان الحليف يعد
من أفراد القبيلة التي دخل في حلفها وينال شرفها ، وقد كان حلفاء قريش
في الجاهلية يتزوجون بناتهم مع أن قريشاً كانوا يضمنون بناتهم عن أى قبيلة
أخرى لا يرون أحداً من العرب لهم كفاءة إلا من دخل في حلفهم ومن
اخلاقهم التي كانت بجانب الكرم والوفاء الشجاعة وهي قوة في النفس تحمل
صاحبها على الاقدام على المكروه ، وباب الحماسة في أشعارهم أكبر من
باب الكرم لأن الشجاعة خالق يظهر في جميع الافراد أما الكرم فانه لا يظهر
أثره بجلاء إلا عند أرباب الاموال الذين يمكنهم أن يعطفوا على الفقراء
والمعوزين ، وقد اشتهر من العرب كثيرون امتازوا على أقرانهم في شدة
اليأس وقوة القلب : وكان فيهم من نتائج حمية الجاهلية ضعف خلق الرحمة
بمن يقع تحت أيديهم من أعدائهم

وقد بقيت بعد ذلك أخلاق كانوا يتواصون بها في أشعارهم ولكننا
لا يمكننا أن نقول إنها كانت أخلاقاً عامة لجمهورهم ومن يطلع على كلامهم

في أبواب الادب يجد من وصاياهم الجميلة وحكمهم الجليلة شيئاً كثيراً
يذهب بنفس قارئه كل مذهب ويجعله يحكم ان هذه الامة مع ما كانت عليه
من البداوة وشظف العيش - لم تخل من حكماء أودعوا أشعارهم ما يفيد
من بعدهم : ولنتكلم بعد ذلك على شيء من عاداتهم حسبما قدمنا من
الاصطلاح

من العادات المتأصلة التي كان العرب يتمدحون بها الميسر ؛ وكانوا
يرون انه سبيل من سبل الكرم لانهم كانوا يطعمون المساكين ماربحوه
وكانت طريقتهم في لعبه أن يجتمع الفتيان وذوو اليسار ويشترون جذوراً
يقسمه الجزار الى عشرة أجزاء ، ثم يجاء بالقдах وهي عيدان من نبع قد
نحتت وملست وجعلت سواء في الطول وهي عشرة : الفذ والتوأأم والرقيب
والجلس والناقس والمسبل والمعلى والمنيع والمفيع والوعد ، والثلاثة الاخيرة
غفل من العلامات لانصيب لها إنما جرى بها لتكثير العدد والسبعة الاول
عليها علامات تبتديء من الواحد وتنتهي الى السبعة للمعلى فيأخذ كل من
الفتيان حسب مقدرته واستعداده ثم يدفعون هذه القдах الى رجل أمين
يقال له امير المقامرين فتدفن في الرمل او توضع في خريطة ويلف على كف
الامين قطعة من جلد لثلا يحابي احداً من المقامرين فيخرج له قدحه ويجلس
خلفه آخر اسمه الرقيب وهو الحكم ثم يدخل الامين يده فيخرج قدحا :
ولنفرض ان الخارج هو الفذ فيكون صاحبه فائزاً له عشر الجزور ثم تضرب

القдах على تسعة الاجزاء الباقية فان خرج التوأم فاصاحبه جزآن ثم تضرب
القдах فان خرج المولى فاصاحبه السبعة الباقية ويكون الغرم على الباقيين وعدد
سهامهم ١٨ فيجزا الثمن على ١٨ جزءاً يدفع منها كل قدر سهامه ، وان خرج
فى اول الضرب الرقيب فاز صاحبه بثلاثة اجزاء ويضرب على السبعة الباقية
فان خرج بعده المسيل اخذ ستة اجزاء وبقي واحد فلا يمكن ضرب القдах
عليه لان ما يستحق اكثر من جزء فيشترون جزوراً اخرى يقسمونها كالأولى
فيكون الباقي ١١ جزءاً يضربون القдах عليها فان خرج المولى اخذ سبعة وبقي
اربعة فلا يمكن ضرب القдах عليها لان منها النفس ، وله خمسة اجزاء
فينحرون جزوراً اخرى فيكون الباقي ١٤ جزءاً فاذا خرج النفس اخذ خمسة
أجزاء ثم يضربون فاذا خرج الحلس اخذ اربعة ثم التوأم وله اثنان : ثم الفذ
وله واحد فالجموع ١٢ جزءاً ويبقى جزآن يوزعان على الفقراء وكل من ربح
فى جزور ليس عليه من ثمنها شيء ويدفعه الذين لم يربحوا فثمن الجزور الأولى
يقسم على ١٨ جزءاً ، وهى لمن عدا الرقيب والمسبل والمولى . وكذلك ثمن الثلاثة
والتصدق بالربح على الفقراء هو منفعة اليسرائى اثبتها الكتاب ولكن
كانت المفسدة تربو على هذه المصاحبة حرمة الدين الاسلامى وهذه المفسدة
هى أنه يوقع العداوة والبغضاء بين اللاعبين ويصد عن ذكر الله وعن الصلاة
لان المقامر غافل عن كل شيء

ومن عاداتهم التى يتمدحون بها شرب الخمر يرون انها كذلك سبيل
من سبيل الكرم ! ومما يسهل السرف على النفس : لذلك تجدها فى الشعر

العربي بابا من أبواب المديح والفخر : ومن أحسن ما قيل في شربها من جهة
الاسلوب اللغوي قول عنتره :

ولقد شربت من المدامة بعد ما ركد الهواجر بالمشوف المعلم
بزجاجة صفراء ذات أسرة قرنت بازهر بالشمال مفدم
فاذا سكرت فأننى مستهلك مالى وعرضي وافر لم يكلم
واذا صحت فما أقصر عن ندى وكاءامت شمائل وتكرومى

والشرب - فى وقت عنتره هذا - كان يسمى عندهم بالغبوق وبعضهم
كان يشربها صباحا ويسمى الصبوح

وقد شرأه الكتاب بين الحجر والميسر فى التحريم ، لان المنفعة فى كليهما
واحدة والمفسدة الزائدة واحدة فقال (يسألونك عن الحجر والميسر قل فيهما
اثم كبير ومنافع للناس واتمهما اكبر من نفعهما) ثم بين هذا الاثم مرة أخرى
فقال (انما يريد الشيطان ان يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الحجر والميسر
ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة) وهذا اثم يربو على كل منفعة

وهناك عادات أخرى كانت تدعوهم اليها أديانهم ستتكم عنها فى

مبحث الدين

لغة العرب

اللغة العربية إحدى اللغات السامية تكلم بها العرب فى جزيرتهم منذها
قحطان رأس قبائل اليمن ويسمون فى التاريخ بالعرب العاربة لاصالتهم فى
العربية ومن قبائل اليمن قبيلة جرهم الثانية التى سارت الى مكة واحتلتها

قبل ان يردّها اسمعيل بن ابراهيم عليهما السلام ، فلما جاءها اسمعيل صاهرهم وأقام معهم وكثرت بنوه بمكة وكان اسمعيل رجلا عبرانيا يتكلم باللغة العبرانية وهي الثانية من اللغات السامية وأمه هاجر امرأة مصرية . أخذ اسمعيل لغة العرب عن جرحم الذين عاش معهم واكتنه بحكم الضرورة أدخل في اللغة العربية بعض ما يحفظه من الكلمات العبرانية وبعض ما تحفظه أمه من اللغة المصرية بعد ان هذبت بحسب ما يسهل على اللسان العربي وهذا أمر يسهل القول به لان اسمعيل وأمه لا يمكنهما ان ينسيا بالمرّة ما في أنفسهما من الكلمات المحفوظة واذا احتاجا الى التعبير عن معنى لم توضع له كلمة في لسان جرحم يفزعان الى مامعهما وهذا مشاهد في تفاعل اللغات المستعملة والمؤرخون يسمون اسمعيل وبنيه بالعرب المستعربة لما كان من دخولهم في العربية وليس أصلهم منها

بذلك كانت اللغة العربية فرعين : الفرع العربي الحميري وهو لغة العرب الاصلية والفرع العدناني أو الحجازي وهو لغة بني اسمعيل ولهجة الاغتين وطرق التعبير بهما لا يختلفان وانما الخلاف في ألفاظ يستعملها الحميريون ولا يستعملها الحجازيون وبالعكس ، والمتتبع لالفاظ أهل اليمن وما كان يكتب اليهم بلسانهم يرى غرابة سببها عدم الالف لسمع تلك الالفاظ. ويحس منها بصلافة لا يجدها فيما يرادفها من الالفاظ الحجازية

معلوم ان اللغة انما يتكلم بها أصحابها تبعاً لحاجتهم فاللفهوم انها تكون في بدء نشأتها كلمات قليلة يتواضع عليها الناس بحسب ما يعين لهم من الحاجات

ويكون اكثرها من الكلمات الدالة على مايقع عليه الحس وكما اتسعت دائرة الحاجات وأدركت المعاني المعقولة استدلت عليها بكلمات تنبئ عنها. لذلك كانت اللغة العربية كغيرها من اللغات الحية في حركة مستمرة ونمو سريع

وكان للعرب في توسيع مادة اللغة طرق ثلاث :

الاول — تجديد الوضع وكانت القبائل تاجأ اليه أحياناً وربما اختلفت مواضعهم فيجىء للمعنى الواحد كلمتان أو أكثر ، وقد يكون بعض الاسماء مشتقاً من صفة في المسمى وبهذا يجىء مايسمونه بالترادف وأكثر مايجده في أسماء الاشياء التي هي عند عامتهم لا يستغنى عنها فريق منهم كالسيف والرمح والجل والكلب والهرو وماشاكل ذلك

الثاني — التجوز فقد كانوا ينظرون الى الشيء الجديد فيجدون بينه وبين شيء آخر له اسم عندهم ارتباطاً أو تشابهاً فيطلقون لفظ الاول على الثاني ومع تطاول الزمن ينسى أول الشئيين وآخرهما فيظن المطلع أن الكلمة وضعت في اصل اللغة وضعاً ابتدائياً لكل من المعنيين ويحكم بأن الكلمة مشتركة وقد يغيب عن الناظر ، تخيله العرب من الارتباط بين المعنيين فيقول بتعدد الوضع . والعرب في هذا التجوز دقائق تأخذ باللب يدركها من عنى بلغتهم ، وكانوا دائماً يكنون عن المعاني التي لا يرونها شريفة ولا يليق التصريح بأسمائها بألفاظ مستعارة واصابها موضوع معنى شريف ، ومتى شاعت الكلمة وكادت تكون صريحة في المعنى الخسيس عدلوا عنها الى غيرها من الالفاظ المستعارة ، ولذلك نرى كثيراً من الكلمات ابتليت بانها استعيرت وقتاً ما لمعان خسيصة ثم بقيت لها تلك المعاني بسبب عدم الاعتناء من نقلة اللغة

والعرب نوع آخر من التجوز وهو التعبير باللفظ وإرادة ما يلزمه حسبما يتخيلون من هذه الملازمات وهي المسماة في اصطلاح البيهقيين بالكسنيات

الطريق الثالث — طريق التعريب وهو استعارة اللفظ من لغة أخرى بعد صقله وتهذيبه وكان لهم في التعريب الشأو الواسع ، لأن العرب اشتغلوا بالتجارات والأسفار وساكنوا الفرس والروم والحبس ، وكانت ترد على حواسهم أشياء جديدة لم يكونوا قد رأوها فسرعان ما يأخذون عن تلك الأسماء بعد أن يتلاعبوا به قليلا حتى يكون على نمط نطقهم وأكثر هذه الكلمات أدخلت في اللغة قبل الإسلام بزمن ليس بكثير

وأعظم واسطة كانت لاشاعة الكلمات العربية والمتجوز بها حتى يستعملها الجمهور الشعر العربي فان هذا المشركان لهم بمثابة الجرائد عندنا ينطق الشاعر عندهم بكلمته فتتلقفها الاسماع وتدور بعد ذلك على ألسنتهم وكانت أسواقهم التي اليها يجتمعون لالقاء أشعارهم ومبادلة متاجرهم بالقرب من البيت الحرام وهي عكاظ ومجنة وذو مجاز

فاما عكاظ فهو بين نخلة والطائف وكانت تعقد في اول ذي القعدة الى عشرين منه ومجنة بحر الظهران ينتقلون اليها من عكاظ فيقيمون فيه الى غاية ذي القعدة وذو مجاز خلف عرفة يقيمون فيها ثمانيا من ذي الحجة ثم يعرفون في التاسع الى عرفة وهو يوم التروية . وكان شعراء العرب يفدون من كل صوب ومن كل قبيلة ينشدون ما جادت به أفكارهم وهناك ينال الشعر ما يستحقه من التشريف والتكريم وربما امتازت بعض الكلم الشعرية بالشرف الرفيع

كما قالوا في المعاني السبع وما يقاربها مما جمعه صاحب جمهرة أشعار العرب ،
واكثر الممتازين من الشعراء هم العدنانيون ومن جاورهم من يمن كأمريء
القيس الذي كان أبوه مكيًا في نجد على بنى أسد وشعراء الاوس والخزرج
الذي كانوا بالمدينة وطيباء وكاب المقيمين في شمال الجزيرة

وكانت قبائل البدو أقل العرب تعريباً لقلة الحاجة عندهم ولأن
معاشرتهم للامم الاخر تكاد تكون معدومة بخلاف أهل الحيرة والرحالين
من غيرهم ولذلك ترى بعض رجال اللغة لا يحتاجون بمثل عدى بن زيد العبادي
الحيري وأمية بن أبي الصلت الثقفي لأنه كان ذا أسفار يخاطب العلماء ويقتبس
منهم وقد أدخل كل منهما كلمات في اللغة لم يسبق الى استعمالها وليس هذا
بضائرها عند من كان ذا نظر أوسع من ذلك

كل هذه الطرق أفادت اللغة العربية فائدة كبرى وهي سعتها وقدرتها
على التعبير عما يكمنه الصدر من المعاني فكانت وافية بحاجتهم على قدر ما
اتصلت به معلوماتهم وفوق ذلك صارت مستعدة لأن تقتبس من غيرها
ما يرى المتكلمون بها أنفسهم في حاجة اليه حسبما شرع العرب من هذه الطرق
ولا تحتاج اللغة الى اكثر من هذا في استعدادها للحياة الدائمة بعد أن تكون
سهلة سلسة على اللسان والاسماع وهذا ما نحس به في هذه اللغة الجميلة

جاء الاسلام واللغة قد رقيت أعظم درجة كانت تمكن لها في عهد
العرب فكثير الشعراء النابغون والفصحاء القوالون ، يتباهون في مواقفهم
اللمعدودة لهم بما أوتوه من الفصاحة واللسن ، وتعد القبيلة نفسها ذات حظ

عظيم اذا هي رزقت شاعراً ينافح عنها في المجامع وربما أولت الولائم فرحاً
بذلك واستبشاراً ، وكان لقريش خاصة من الفصاحة والحكم المقبول ما ليس
لغيرهم ، ولذلك كانت اللغة القرشية ممتازة تدين لها العرب وتعترف لها بالسبق
ومن أراد ان يرى مثالا واضحا من رقة لغة العرب وتقن شعراء العرب
في جميل المعاني فليطلع على ما اختاره أبو تمام الطائي من شعر العرب وعلى
ما جمعه أبو علي القالي في أماليه ، وما جمعه أبو العباس المبرد في كامله ، وما
جمعه صاحب جمهرة أشعار العرب فان ما في هذه الكتب يكاد يكون زبدة
أشعارهم وخلاصة أفكارهم وليس يعاب على بعضهم الا أشياء قليلة جمعوها
وكان أجدر بهم لو تركوها وهو تراب قليل جداً في جانب الذهب الوفير



المحاضرة السادسة

الكتابة — العلوم — الدين

الكتابة عند العرب

كان العرب باليمن يخطون فكان خطهم يسمى بالسند ولم تكن الكتابة عندهم بالشئ الذائع يتناوله جميع الافراد وانما كان في الخاصة منهم كما كان الشأن في الكتابة المصرية ، ومن اليمن انتقل الخط الى الحيرة والانباء لما كان من الارتباط بين ملوك الجهتين وكانوا يسمون خطهم بخط الجزم لانه اقتطع من خط حمير ومن الحيرة نقله حرب بن أمية الى مكة وكان رجلا سفاراً فعلى عهده كان بدء الخط بمكة فتعلمه بعض رجال من قريش وكانت الكتابة في هذه الجهات الثلاث ليست بالشئ المتداول الذائع

أما بادية العرب فلم تكن تخط حتى انها كانت ترى في ذلك سمة عيب كما هو شأنها في بقية صناعات المدنية

ولقلة انتشار الكتابة وانحصارها في أفراد قليلين يسهل أن نعبّر عن الأمة العربية بأنها أمة أمية أي لا تقرأ ولا تكتب وبذلك سماها الكتاب حينما جاء الاسلام فقال (هو الذي بث في الاميين رسولا منهم)

وعدم الكتابة سبب كبير في اعتماد الانسان على قوته الحافظة والقوة

متى استعملت نمت لذلك كان العرب من أحفظ الأمم فكانت تاتمي عليهم القصائد في المجتمعات فيتلقفونها ويتغنون بها كلا أو بعضاً وربما فاتهم الشيء منها إذا اشتبه عليهم الأمر فقدموا وأخروا وهذا سبب ما نراه في بعض الأشعار الطويلة من الاختلاف بالتقديم والتأخير والحذف والإثبات ولكون الشعر أكثر استعداداً لأن يحفظ كان الباقي لنا منه أكثر مما بقي من نثرهم وخطبهم في الحافل والمجامع

جاء الإسلام والعرب على هذا النمط من صناعة الكتابة فاخذ يبدعون الى طريق ترقيتها كما يأتي بيانه

علوم العرب

العلوم والصناعات تسير مع المدنية جنباً لجنب لان الانسان متى احتاج فتقت له الحاجة وجه الحيلة فاخترع ما يسد تلك الحاجة ولذلك يقولون الحاجة أم الاختراع . وكانت العرب يغلب عليها البداوة فقلت حاجتها وتبع ذلك قلة العلوم والصناعات الا ما كان منها مختصاً بما هم في حاجة اليه وكانت الحاجة في حواضر العرب أكثر منها في باديتهم ولذلك كان عندهم من العلم والصناعة أكثر مما عند البادية . كانت حاجة العربي في باديته تنحصر في الماء الذي يحتاج اليه ويصله من السماء ثم في جماله الذي هو عدته ثم في ملبوسه البسيط الذي يقيه حر الصيف وبرد الشتاء ثم في بيته الشعري ، ثم اداة حربه وقلمه يحتاج الى أكثر من ذلك

فأما حاجته الى المطر فقد اكتسبته ملاحظة الجو وتغيراته وما تنبئ

عنه تلك التغيرات من التبشير بقرب المطر أو الانذار بالجذب وقد كانت لهم في ذلك قواعد تجريدية قلما تختلف فيستدلون بالريح وباشكال السحب وبالانواء (١)

(١) قسم العرب المنطقة التي تتقلب فيها الشمس وتبلغ ٤٧ درجة الى اثني عشر قسما وسموا كل قسم برجا السكل برج شهر كامل وهذه البروج منها ستة في جنوب الدائرة الاعتدالية ومثلها في الشمال وسموا كل برج اسما بحسب ما تخيلوه من شكل الكواكب المكونة له فالتي في الشمال هي الحمل والثور والجوزاء والسرطان والاسد والسنبلة التي في الجنوب هي الميزان والعقرب والقوس والجدى والدلو والحوت وتخيلوا من اجزاء هذه المجموعات الكوكبية اشكالا اخرى وهي التي يتقلب فيها القمر في مدة دورته وقسموها الى ٣٨ منزلة لسكل منزلة ليلة وكل برج من البروج الشمسية فيه منزلتان أو ثلاث وهذه هي المنازل - السرطان - الثور - البطين - النجم وهو الثريا - الدبران - الهقمة - الهنعة - الذراع - البثرة - الطرف - الجبهة - الخراتان - الصرفة - العواء - السماء - الغفر - الزباني - الاكيل - القلب - الشولة - النعائم - البلدة - سعد الذابح - سعد بلع - سعد السعود - سعد الاخبية - فرع الدلو المقدم - فرع الدلو المؤخر - الحوت

و بعد انتهاء الايام الثمانية والعشرين يبتدىء القمر فيعيد التقلب في هذه المنازل كل مرة الاولى حتي اذا دار بها ١٣ دورة كان تمام السنة الشمسية وهذه النجوم التي سميت بها هذه المنازل كان العرب يربطون بغروبها وشروقها التغيرات الجوية فاذا غرب منها نجم واشرق آخر سموا ذلك نوءا وفي كل ثلاثة عشر يوما نوء جديد . وقال بعض علماءهم انه لا يسمى نوءا الا اذا كان معه مطر فان لم يكن مطر فلا نوء واذا نسبوا المطر نسبوه الى النوء فيقولون مطرنا بنوء كذا يضيفونه الى الساقط وكانت لهم اسجاع محفوظة يصطبون بها ما يتبع النوء من الحوادث الجوية مثلا قولهم الصرفة ناب الدهر لانها تفتقر عن البرد أو عن الحر في الحالين . واذا طلعت العواء وجثم الشتاء طاب الصلاه وما مائن ذلك مما لا حاجة بنا الى الافاضه فيه

ومن استدلالهم بالرياح واشكال السحب مارواه صاحب الاغاني
قال خرج اعرابي مكفوف البصر ومعه ابنة عم له لرعي غنم لهما فقال
الشيخ اني اجد ريح النسيم قد دنا فارفعي رأسك فانظري : فقالت أراها
كأنها ررب معزى هزلى ثم قال لها بعد ساعة اني أجد ريح النسيم قد دنا
فارفعي رأسك فانظري قالت أراها كأنها بغال دهم تجر جلالها قال ارعي
واحدري ثم قال لها بعد ساءة اني لاجد ريح النسيم قد دنا فانظري فقالت
أراها كأنها بطن حمار أصحر فقال أرعي واحدري ثم مكث ساعة وقال اني
لا أجد ريح النسيم فما ترى ؟ قالت أراها كما قال الشاعر :

دان مسف فويق الارض هيدبه يكاد يدفعه من قام بالراح
كأنما بين أعلاه وأسفله ريط منشرة او ضوء مصباح
فن بمحفله كمن بنجوته والمستكن كمن يمشى بقرواح
قال انجى لا أبالك : فما انقضى كلامه حتى هطالت السماء عليهما

وحاجتهم الى إبلهم اكسبتهم بالتجارب قواعد ترجع الى ادواء الابل
ومداوتها وإبعاد سليمها عن أجربها كيلا يعديه وكان لهم في معرفة ذلك
حظ وافر كما انهم استفادوا لحفظ حياتهم شيئاً من الطب الانساني ومعرفة
أمراض الانسان التي تنتابه في الصحراء من أنواع الحمى التي لا بد منها لمن
يقيم حول منافع الماء متعرضاً لبرد الليل وحارة القيظ وسموها بأسماء شتى
على حسب أنواعها

وكان للكي بالنار في أدويتهم نصب السبق ويكاد يكون الدواء الوحيد
لامراضهم الثقيلة وقد اشتهر منهم مجربون سموهم الاطباء والنطاسيين.

ومن هؤلاء من كانت له رحلات فاستفاد شيئاً من العطب من حواضر
البلاد الآخر

وحاجتهم الى ملابسهم علمتهم غزل الصوف والوبر وقد اختص بتلك
الصناعة نساؤهم فالمرأة ان قالت انى صناع اليد فانما تعنى بذلك انها تغزل
ومن هذا الغزل كانوا يصنعون البرود والا كسية والخيام الشعرية وكان
النسيج في حواضرهم وأكثر مايكون في بلاد اليمن حتى قيل لما يمدح من
ثيابهم البرود اليمنية

وحاجتهم الى أدوات القتال علمتهم صناعة الرماح وافادتهم التجارب
معرفة الاشجار اللائق ان تصنع الرماح منها وغير اللائق كالنبع والغرب
فكانوا يجيدون صنع قناتها ثم الزجاج والسنان وكانت هناك بلاد قد اشتهرت
بصنع الرماح كالخبط في البحرين ولذلك تنسب اليها فيقال رماح خطية اما
السيوف فكانوا يجلبونها من صناعات بنواحي العراق والابلة وكانوا يسمون
ناحية الابلة الهند ولذلك يقولون سيوف هندية ومهندة على طريق الاشتقاق
وكانوا بحكم الضرورة يحتاجون الى حساب ابلهم وما يملكون من
دراهمهم فعلمهم ذلك الحساب ولكنه لم يكن في البادية حساباً منتظماً
بارقام وقواعد تعلم وانما كان حساباً ارقامه الايدى ولهم طرق معروفة
في بيان كل عدد

ومن علومهم التجريبية علم القيافة وهي نوعان الاستدلال بأثر الماشي
عليه والاستدلال بتقاطيع الجسم على صحة النسب وبطلانه وكم ان فيهم قبائل
قد شهرت بهذا العلم حتى كان قول الفرد منها حكماً في الآثار والانسان كبنى

مدلج . وللعرب في معرفة الاثر اعاجيب لا يكاد الانسان يعيها تصديقاً
ولكن الذي يرى ما بقي منها بين اعراب السودان لا يقف عن التصديق
لحظة وقد رأيناهم يعتمدون على ذلك في اظهار الجنايات وفعاليتها ولم يخطئون
قال جكسون باشا مدير دنقلا في تقريره لسنة ١٩٠٥ :

« واهارة القائفين فائدة كبرى في اكتشاف الجناة والعثور عليهم واليات
مثالاً من ذلك — في احدى الليالي سرق صندوق سكر من حانوت في
مروى ، وكانت ارض السوق والطرق المجاورة لها مرماة ففحص القائفون
المكان في صبيحة اليوم التالي وعثروا على اثر رجلين وحمار فاقتفوه الى أن
وصلوا الى اصطبلات الحكومة وهناك عرضوا جميع السوارس فأخرجوا
من بينهم سائس المدير وسائس أركان الحرب قائلين أن الاثر أثر هاشم
عرضوا الحمار أيضاً واتضح أن حمار المفتش هو الذي ظهر أثر قدمه في السوق ،
وقد تم تفتيش الاصطبلات فوجد فيها رؤوس من السكر وباستقصاء البحث
اتضح ان باقي السكر دفن في مكان قريب من الاصطبل ، والماجي عباسائين
امام المحكمة اعترف باجرامتهما وقال انه لما ثقل عليهما حمل الصندوق حملاه
على اتان المفتش »

وهذه مهارة غريبة تسهل علينا ما نسمعه من أعاجيبهم
وكان لهم في النوع الثاني ما لا يقل عن الأول يجيئون بالرجل والولد
وينغطون جميع بدنهما ماعدا أقدامهما ثم ينظر القائف فيحكم حكماً فصلاً
قائلاً هذه الاقدام من هذه الاقدام ان كان النسب صحيحاً وينفي هذا
النسب ان لم يجد تشابهاً ولا يهمل ان كانا قد اتفقا في اللون أو اختلفا فيه

والشريعة الإسلامية لم تلغ حكم القائلين بل رضى النبي صلى الله عليه وسلم وسر به وبعض فقهاء العرب من المسلمين جعلوه واسطة من وسائل الحكم في الانساب اذا تعدد المدعون

والنتيجة من هذا كله ان العرب كانت أمة تلاحظ ما يرد على حواسها من الحوادث والأشياء وتستنتج من الاستقرار قواعد صحيحة تنتفع بها في حياتها ونباهة الأمة أس من أساس رقيها

دين العرب

الخضوع للمعبود نتيجة لأحد أمرين : أما الأول فهو شعور الانسان بقوة المعبود وعظمة سلطانه فهو لذلك يخضع له رغبة فيما عنده من الخير ورهبة مما يقدر عليه من الشر ولذلك تراه يفزع اليه عند الشدة لتخفيف ما ألم به من الكروب

الثاني شعوره بأن المعبود ذو نفس كبيرة لما جرى على يديه من عظام الأمور فهو يتخيل ان تلك القوة التي بها تغلب على المصاعب لم تكن الا نتيجة مساعدة مخصوصة من الاله القادر على كل شيء لانه يحبه حباً جما فترى العابد الخاضع يجعل هذا وسيلة في عبادته يرجو بها رضا من خالق العالم الأكبر فان كان حياً فهو الوسيلة وان كان ميتاً قام قبره مقامه أو جعلت له صورة تمثله وقد تكون من حجر أو صفر أو ماشاء كل ذلك وتعطى هذه الصورة من الخضوع ما كان يعمل لصاحبها في حياته

وقد يكون التمتع لحیوان من الحيوانات النافعة أو الضارة أو الجماد نافع أو ضار لان القوة التي اعطيتها وبها ضر ونفع اثر من آثار الخالق الا كبر

وقد يصور ذلك الحيوان أو يمثل وتجعل صورته أو تمثاله مما يقرب من خالق القوى . ويسمون التمثال الذي على صورة انسان من حجر او فضة أو ذهب صناعاً ، ويسمون الحجر الغفل من الصنعة وثناً : الشعور بقوة تتصرف في العالم شيء يكاد يكون طبيعياً في الانسان والذات لم يخل منه باد ولا حاضر منذ عرف تاريخ الانسان وتمثيل القوى المدبرة والاشخاص التي يتقرب بها كذلك لم تخل منه أمة ولا جيل ، ولذلك يقول علماء الاجتماع الانسان متدين بالطبع حتى انك لتراه اذا ألحد في دينه وازداره ينتقل منه حالا الى عبادة أخرى وخضوع لكن من طريق آخر

وقد جاء الانبياء يدعون الناس الى أفضل الطرق الموصلة الى ارضاء الله ورأسهم - بعد حادثة الطوفان - هو ابراهيم خليل الله صلى الله عليه وسلم فقد دعا الناس الى توحيد الله سبحانه وعمل بما فيه مصلحة الناس ويدعي ابراهيم أبا الأنبياء لانهم كلهم من ولده

وكانت النبوة في فرعين من ولده : الأول اسحاق ومنه كان جميع انبياء بني اسرائيل وأعظمهم وأبقاهم أثراً موسى وعيسى صلوات الله عليهما وسلامه ودين الاول يسمى باليهودية نسبة الى يهوذا أحد أسباط اسرائيل أو السبط الأكبر الذي منه كان جلة الملوك من اسرائيل ودين المسيح : هو النصرانية نسبة الى الناصرة وهي أول قرية علم بها المسيح فقال العرب ناصري ونصراني وكان المسيح عليه السلام يدعي الناصري . والفرع الثاني كان منه اسماعيل أخو اسحاق وهو داعية العرب الى دين ابراهيم ، ثم كان منه محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم وجاء أيضاً مجدداً لشرعية ابراهيم

كان الدينان المنسوبان الى الانبياء منتشرين في الجزيرة العربية قبل الاسلام فكانت اليهودية في بلاد اليمن واول من دان بها يوسف ذو نواس اتباعاً لدعوة حبرين يقال انهما اتيا مع تبع الحميري من يثرب وكانت أيضاً يثرب وما جاورها من ارض خيبر وتيماء جاءت مع اسرائيليين فارقوا الشام حين الاضطهادات التي كانت تنوالى على اليهود في شمالى صنعاء وفي جهات من البحرين وفي الحيرة لما تنصر النعمان ، وفي قبائل من طيء وفي عرب الغساسنة بالشام لجاورتهم المنتصرة من الروم المتدينين بهذا الدين الا ان المتدينين من العرب بالدين المسيحي لم يكن لهذا الدين تأثير حقيقي في نفوسهم لان روح هذا الدين المستفادة من كلام المسيح صلوات الله عليه هي السلم والاغضاء والابتعاد عن الحروب ، ولم يكن العرب مبتعدين عنها ولذلك لما جاء عندي ابن حاتم الطائي وافداً على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له انى على دين فقال له عليه السلام ألم تكن تأخذ المرباع من غنائم قومك؟ وحل الغنائم والانتفاع بها ليس فى شىء من الدين المسيحي بل ولا اليهودي لان اليهودي يحرق كل مالوثنيين ولا ينتفع به والمسيحي يبتعد عن الحرب

أما سائر العرب فكانت بعد اسماعيل على دين ابراهيم تعبد الله وتوحده الا ان اسماعيل عليه السلام بنى الكعبة وجعلها مطافاً يحجها أولاده فلما كثروا واحتاجوا لمبارحة مكة والانتشار في اجزاء الجزيرة كانوا يأخذون معهم شيئاً من حجارة الحرم أو الكعبة ليكون معهم اثر من آثار بركتها فيعظمون هذا الحجر تعظيمهم للكعبة فانتشر لذلك تعظيم

الحجارة والتقرب بها الى العبود الاعظم ، ولما سار عمرو بن لحي الخزاعي الى بلاد الشام ورأى ما يفعله أهله من تعظيم التماثيل والتقرب بها مات نفسه الى الاقتداء بهم فأخذ من هذه التماثيل شيئاً وأقامها على الكعبة التي كان سادنها ودعا العرب لتعظيمها فاجابوه وخطرت لهم حينئذ فكرة تمثيل العظماء وذوى الاثر الصالح فيهم ، أو تمثيل القوى التي يأنفونها وهي سبب عظيم في نفعهم وقيام مجدهم فصنعوا تماثيلهم وتقربوا اليها واما يؤكد ذلك ما قاله محمد بن هشام بن السائب الكلبي في وصف [ود] وهو صنم عذرة نقلا عن شاهد من رجال عذرة : قال كان تماثيل رجل كاعظم ما يكون من الرجال قد زبر عليه حلطان متزربحلة مرتد باخرى عليه سيف يد تقلده وقد تنكب قوساً وبين يديه حربة فيها لواء وجعبة فيها نبل - فهذا يشبه ان يكون تماثيل قوة الحرب التي يعظمها العرب - وكان لهذيل صنم اسمه [سواع] في رهاط من ارض ينبع وكان يعبد من يليه من مضر وله سدة من بني لحيان - وكان ازحج وأهل جرش [يغوث] - واتخذت خيوان [يعوق] وكانت تعبد همدان ومن والاها من اليمن - واتخذت حمير [نسر] وكان بيد رجل من ذي رعين يقال له معديكرب تعبد حمير ومن والاها حتى هودهم ذو نواس وكان لهم أيضاً بيت بصنعاء اسمه رثام يعظمونه ويتقربون عنده بذبائحهم وقد هدم أيضاً

ويظهر ان هذه التماثيل الخمسة كانت قديمة في العالم استحدثها هؤلاء القوم وصوروا على شاكلتها لان نوحاً كان ينهي قومه عن عبادتها وهم

يتمسكون بها كما ورد في الكتاب حكاية عنهم (وقالوا لا تذرنا آلهتكم ولا تذرنا وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً)

ومن أوثانهم مناة ، وكان منصوباً على البحر بناحية المشال بقديدين مكة والمدينة وكانت العرب تعظمه وتذبح عنده خصوصاً الأوس والخزرج ومنها اللات بالطائف ، وكانت صخرة مربعة فالظاهر أنها لم تكن تمثالا وإنما كانت أثراً من مكان معظم وكان سديتها من ثقيف وكانت قريش تعظمها

ومنها العزى وكانت بواد من نخلة الشامية عن يمين المصعد الى العراق من مكة فوق ذات عرق بتسعة أميال وكان عليها بيت وكانت أعظم الأصنام عند قريش وكانت سدنة العزى من بني سليم ومنها ذو الخلصة ، وكان مروة يبعث منقوشاً عليها كهيئة التاج وكان له بيت بين مكة والمدينة وهو الى المدينة أقرب وكانت تعظمه وتهدي خثعم ودوس وبجيلة

وكان على الكعبة أصنام أعظمها هبل وكان عقيق أحمر على صورة انسان مكسور اليد ميمنى أدركته قريش كذلك جعلت له يداً من ذهب وكان أول من نصبه خزيمه بن مدركة

كانت العرب تعظم هذه التماثيل وهذه الاحجار لا لاعتقاد أنها آلهة وإنما لتقربهم الى الله سبحانه كما قال في الكتاب (ما نعبدكم الا ليقربونا الى الله زلفى) وكانوا اذا سئلوا عمن خلق العالم وقدر له رزقة يقولون انه الله وكانوا يقدمون القرابين وهي الذبائح الى هذه الاوثان والاصنام التي يدعونها النصب

والانصاب لأنها نصبت للعبادة وقد استعمل الاعشى كلمة النصب مفرداً
فقال في كلمته التي يمدح بها رسول الله صلى الله عليه وسلم :
وذا النصب المنسوب لا تنسكنه لعافية والله ربك فاعبد
ولهم طرق في توزيع لحوم هذه القرابين كما كان لبني اسرائيل ما يشبه
هذه الطرق

وكان من هذه القرابين البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي : فالبحيرة
الناقة نشق أذنفا فلا يركب ظهرها ولا يجز وبرها ولا يشرب لبنها الا ضيف
أو يتصدق به أو تهمل لأهلتهم
والسائبة التي ينذر الرجل أن يسببها اذا برىء من مرضه أو ان أصاب
أمراً يطلبه فاذا كان ذلك أساب جملاً من أبله أو ناقة لبعض آهلتهم فسابت
فرعت لا ينتفع بها

والوصيلة التي تلد أمها اثنين في بطن فيجعل صاحبها لأهله الاناث منها
ولنفسه الذكور ، فتلدها أمها ومعها ذكر في بطن فيقولون قد أوصلت أخاها
فيسبب أخوها معها فلا ينتفع به

والحامي الفحل اذا نتج له عشر أناث متتابعات ليس بينهن ذكر حتى
ظهره فلم يركب ظهره ، ولم يجز وبره وخلي في ابله يضرب فيها لا ينتفع منه
بغير ذلك - هذا تفسير ابن هشام وقد خالفه بعض أهل اللغة في تفسيرها
ويظهر انه لم تكن قبائل العرب متفقة في عادة تلك القرابين فنقل كل مفسر
عن غير القبيلة التي نقل عنها الآخر

وقد ورد ذكر هذه القرايين الاربعة في القرآن فقال في سورة المائدة
(ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام)

وكانو يستقسمون عند أصنامهم بالازلام : والزلم القدح الذي لا ريش
عليه، والازلام كانت لقريش في الجاهلية مكتوب عليها أمر ونهي وافعل
ولا تفعل، وقد زلمت وسويت ووضعت في الكعبة يقوم بها سدنة البيت
فاذا أراد رجل سفراً أو نكاحاً أتى السادن فقال أخرج لي زلماً فيخرج به وينظر
اليه فاذا خرج قدح الامر مضى على ما عزم عليه، وان خرج قدح النهي
قعد عما أراده وربما كان مع الرجل زلمان وضعهما في قرابة فاذا أراد الاستقسام
أخرج أحدهما ومعنى الاستقسام بها أن يطالب الانسان ما قسم له من جهتها
وكان في الكعبة صنم يمثل ابراهيم واسماعيل وبايديهما الازلام يستقسمان بها
ومع ما كان للعرب من الاصنام والاولثان فانهم كانوا يعظمون الكعبة
ويجلونها فوق أجلالهم لا يمعبدون آخر لهم يرون انها آثر آبيهم اسماعيل وكانوا
يحجونها ويرون لقريش الفضل عليهم لما أتوه من شرف القيام بأمرها كانهم
رؤساء دين يسمع لقولهم فكأن الكعبة هي بيت الدين الاكبر وسدنته والقوام
بأمرهم حفاظ الدين وهذا مركز عظيم حازته قريش ومن كان معها ممن يلي
أمراً من الامور الدينية بمكة

وقد كانت قريش أرادت ان تمتاز عن سائر العرب بما يظهر فضاهم
وشرفهم فقالوا نحن بنو ابراهيم وأهل الحرم وولاية البيت وقطان مكة
وساكنوها فليس لاحد العرب مثل حقنا ولا مثل منزلتنا ولا تعرف
العرب مثل ما تعرف لنا فلا تعظموا شيئاً من الحل كما تعظمون الحرم فانكم

ان فعلتم ذلك استخفت العرب بحرمتم وقالوا قد عظموا من الحل مثل
ماعظموا من الحرم، فتركوا الوقوف على عرفة والافاضة منها وهم يقرون
ويعترفون انها من المشاعر والحج ودين ابراهيم ويرون اسائر العرب ان
يقفوا عليها وان يفيضوا منها ثم جعلوا لمن ولدوا من العرب من سكن
الحل والحرم مثل الذي لهم بولادتهم اياه وكانت كنانة وخزاعة قد دخلوا
معهم في ذلك وسموا أنفسهم ومن دخل معهم الحمس ثم قالوا لا ينبغي الحمس
يأتقوا الأقط ولا يسالوا السمن وهم حرم ولا يدخلوا بيتاً من شعر
ولا يستظلوا - ان استظلوا - الا في بيوت من الأدم ما كانوا حرماً ثم
قالوا لا ينبغي لاهل الحل أن يأكلوا من طعام جاؤا به من الحل الى الحرم
اذا جاؤا حجاجاً، أو عماراً ولا يطوفوا بالبيت اذا قدموا أول طوافهم
الا في ثياب الحمس، فان لم يجدوا منها شيئاً طافوا بالبيت عراة، فان تكرم
منهم متكرم من رجل أو امرأة ولم يجد ثياب الحمس فطاف في ثيابه التي جاء بها
من الحل ألقاها اذا فرغ من طوافه ثم لم ينتفع بها ولم يمسه هو ولا أحد غيره
أبدأ : وكانت العرب تسمي تلك الثياب اللقي فحملوا على ذلك العرب
فدانت به

وقد نبه القرآن على ذلك - بطريق الإشارة - فقال عن الاول (ثم افيضوا
من حيث أفاض الناس) وقال عن الثاني (يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل
مسجد) وقال (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق)

المحاضرة السابعة

النسب — الموحدون من العرب — المولد النبوي — الحال قبل النبوة
كان تحريم الاشهر الحرم يعلن في مكة كما كان يعلن فيها النسب :
والنسب كلمة معناها التأجيل من قولهم نسأت أى أخرت وأجلت
ورجل ناسى من قوم نساء قال فى لسان العرب : وذلك أن العرب كانوا اذا
صدروا من منى يقوم رجل من كنانة فيقول انا الذي لا اعاب ولا أخاب
ولا يردلى قضاء فيقولون صدقت أنسئنا شهراً . أى اخر عنا حرمة الحرم
واجعلها في صفر واحل المحرم لأنهم كانوا يكرهون ان يتوالى عليهم ثلاثة أشهر
حرم لا يغيرون فيها لان معاشهم كان من الغارة فيحل لهم المحرم ، فذلك الانساء
قال عمير بن قيس بن جذل الطعان :

انسئنا الناسئين على معد ؟ شهور الحلال نجعلها حراما
وزاد عليه ابو على القالى فى اماليه فسمي الناسى نعيم بن ثعلبة وقال
فى آخر عبارة فاذا كان من السنة المقبلة حرم عليهم المحرم وأحل لهم صفرأ -
وروى قول الشاعر :

وكنا الناسئين على معد شهورهم الحرام الى الحليل
وقال ابن هشام فى سيرته : والنساء الذين كانوا ينسئون الشهور على
العرب فى الجاهلية فيحلون الشهر من الاشهر الحرم ويحرمون مكانه الشهر

من أشهر الحل ويؤخرون ذلك الشهر ففيه انزل الله تعالى (انما النسي زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله) ومعنى ليواطئوا ليوافقوا وكان أول من نسا الشهر على العرب - فأحلت منها ما أحل وحرمت منها ما حرم - القامس وهو حذيفة بن عبد بن ققيم من كنانة ثم قام بعده ابنه عباد الى أن كان آخرهم عوف ابو ثمامة وكانت العرب اذا فرغت من حجها اجتمعت اليه فحرم الاشهر الحرم الاربعة رجب وذا القعدة وذا الحجة والمحرم فاذا أراد أن يحل منها شيئاً أحل المحرم فأحلوه وحرم مكانه صفر فحرموه ليواطئوا عدة الاربعة الاشهر الحرم فاذا أرادوا الصدر قام فيهم فقال اللهم إني قد أحللت لهم أحد الصفرين الصفر الاول ونسأت الآخر للعام المقبل فقال في ذلك عمير بن قيس جذل الطعان أحد بني فراس بن غنم بن مالك بن كنانة يفخر بالنساة على العرب

لقد علمت معد أن قومي	كرام الناس ان لهم كراما
فأي الناس فاتونا بوتر	وأى الناس لم نعلمك لجاما
ألسنا الناسئين على معد	شهور الحل نجعلها حراما

على هذا جرى سائر المفسرين من العرب الخالص لما كان يجري من النسي قبل الاسلام الا ان بعض الفلكيين من العرب وأولهم أبو معشر الفلكي المتوفى سنة ٢٧٢ فسر والنسي عند العرب بغير ذلك حيث فسروه بالكبس الذي استعمله العبرانيون في سنتهم القمرية فانهم يضيفون على رأس كل ثلاث سنين شهراً لتكون السنة قمرية شمسية ومعنى كونها قمرية أن التقويم

يعتبر بالهلال ، ومعنى كونها شمسية انها بالكبس أو هذا النسيء تكون
مطرودة مع دورة الشمس بحيث لا يكون الشهر العربي الا في فصل معين
لا ينتقل عنه ولا يتغير كما هو الحال في الشهور الرومية والقبطية التي لا ارتباط
لها بدورات القمر . وقد تابعه على ذلك جماعة من المؤرخين ، وفي صدرهم
محمد بن احمد البيروني المتوفى سنة ٣٣٠ وممنهم المسعودي الذي قال في روج
الذهب : وقد كانت العرب في الجاهلية تكبس في كل ثلاث سنين شهراً
وتسميه النسيء وقد ذم الله تبارك وتعالى فعاهم بقوله (إنما النسيء زيادة في
الكفر) وكان من نتيجة هذا الخلاف بين مؤرخي العرب اختلاف بين
الاجلاء من علماء المستشرقين فهم من اختار تفسير النسيء عند العرب
بما فسر به علماء العربية وكبار المؤرخين من العرب ، ومنهم من اختار
التفسير الثاني : وقد رفع اللثام عن وجه الحقيقة في ذلك العالم الفلكي محمود
باشا الشهير بالفلكي في رسالة له سماها نتائج الافهام في تقويم العرب قبل
الاسلام أبان فيها ان العرب قبل الاسلام لم تكن تستعمل في تقويمها الا
السنة القمرية المحضة ولم يكن النسيء عندهم الا بالتفسير الاول وأظهر ان
الخطأ في ذلك واقع فيه لأول مرة أبو معشر (١) وتبعه البيروني (٢) ثم من
بعدهم استدل على هذه الدعوى بأدلة حسابية لا تبقى مجالا للريب فليراجعها
من أحب استقصاء البحث ، وقد كنت من الخدوعين بما اخطأ فيه أبو معشر
ففسرت النسيء في كتابي نور اليقين بما فسر به

(١) هو جعفر بن محمد المعروف بأبي معشر الباخى توفي سنة ٢٧٢

(٢) هو أبو ربحان محمد بن احمد البيروني الخوارزمي المتوفى سنة ٣٣٠

ولما تبين لي وجه الحق راجعت الآية فوجدتها تخبر عن النسيء بانه
زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحامونه عاما ويحرّمونه عاما ليواطئوا
عدة ما حرم الله — والنسيء بالتفسير الاول نتيجة هوى نفسى وتلاعب بما
كانوا يسمونه ديناً وشريعة فقد كانت أربعة الاشهر المحرمة معروفة عندهم
باسمائها فلما دعيتهم حاجتهم التي هي غارات وحروب الى احوال بعضها أرادوا
خديعة دينهم بالوقوف عند العدد وعدم الاهتمام بالاشهر المعينة فهم يحلون
أحد الاشهر عاماً ويحرّمونه عاماً ليتفق التحريم مع العدد المشروع وهذه
الاهواء وأمثالها جديرة بمثل هذا الذم ، أما النسيء بالتفسير الآخر فلا يعدو
أن يكون نظاماً ثابتاً انتهجوه في تقويمهم لبقاء الاشهر العربية متفقة مع
دورة الشمس ومثل هذا ليس فيه الاحلال عاماً والتحريم عاماً لمواطاة
عدة ما حرم الله وانما هو نظام ثابت لا يكون مجالا لتلاعب النساء بدينهم
ومن الغريب ان المسعودى نفسه وهو الذى زعم أن العرب كانت
تكبس قال في تفسير الريمين : انما سمي بذلك لارتباع الناس والدواب فيهما
ثم قال فان قيل قد توجد الدواب ترتبع في غير هذا الوقت قيل قد يمكن
ان يكون هذا الاسم لزمها في ذلك الوقت فاستمر تعريفها بذلك مع انتقال
الزمان واختلافه ولو كانوا يكبسون — كما قال — لما كان هناك محل لهذا السؤال
والجواب لان الشهور العربية ما كانت تختلف عن الفصول الشمسية ، فالحق
أن النسيء عند العرب كان عملاً يقوم به رجال الدين من أهل مكة من كيدانة
ويكون تابعاً للاهواء لا لنظام معين
على ذلك كانت أديان العرب جاهليتهم الا انه كان هناك أفراد منهم

لم تكن تلك العبادات تعجبهم ويرون ان هناك حقيقة غابت عنهم وان طرقهم التي هم عليها لا توصلهم الى الله ويقولون في أنفسهم ما معنى التوصل الى الله بحجارة لا تضر فيها ولا نفع !!!

ومن اشهر ذكره من هؤلاء أربعة نفر - ثلاثة من قريش ورابع من حلفائهم. فالقرشيون ورقة بن نوفل الاسدي من أسد بن عبد العزى بن قصي وزيد بن عمرو بن نفيل العدوي من عدى بن كعب ، وعثمان بن الحويرث الاسدي من أسد بن عبد العزى ، والرابع عبيد الله بن جحش الأسدي من أسد ابن خزيمة وأمه أمية بنت عبد المطلب اجتمعوا مرة يوم عيد لأحد أصنامهم فقالوا : تعلن والله ما قرر مكم على شيء !! لقد أخطأوا دين أبيهم ابراهيم ! ما حجب نطيف به لا يبصر ولا يصبر ولا ينفع يا قوم التمسون لانفسكم فانكم والله ما أنتم على شيء ، فتفرقوا في البلد ان يلتمسوا الحنيفية دين ابراهيم فأما ورقة فاستحكم في النصرانية واتبع الكتب من أهلها حتى علم علماً من أهل الكتاب

وأما زيد فوقف فلم يدخل في يهودية ولا نصرانية وفارق دين قومه فاعتزل الأوثان والميتة والدم والنبايح التي تذبح على الأوثان ونهي عن قتل الموءودة وقال أعبد رب ابراهيم ونادى قومه بعيب ما هم عليه وكان يسند ظهره الى الكعبة ويقول يا معشر قريش والذي نفس زيد بيده ما أصبح أحد منكم على دين ابراهيم غيري ثم يقول اللهم لو اني أعلم أحب الوجوه اليك عبدتك به ولكني لا أعلمه ثم يسجد على راحلته وهو الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم انه يبعث أمة وحده وأما عثمان بن الحويرث فقدم على ملك الروم فتنصر وحسنت منزلته عنده

وأما عبيد الله بن جحش فأقام على ما هو عليه من الانتباس حتى جاء الإسلام
فأسلم ثم هاجر مع المسلمين إلى الحبشة ومعه امرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان
مسامة فلما قدمها تنصر وفارق الإسلام حتى مات هناك نصرانياً

وكانت لاتزال كهان العرب وذو الأسجاع منهم يهتفون بذكر
نبي حان مبعثته ولا يبعد أن أخبارهم هذه انما لقفوها من أهل الكتاب
فيريدون عليها من عند أنفسهم ويحسنونها بما شاؤا من السجع الذي امتازوا
به في ذلك الوقت وكانت اليهود تنتظر في ذلك الوقت نبياً يخلصهم ويجمع
شتاتهم ولا يزالون يلهجون بذلك ويقولونه لمن كان يناوئهم من العرب
كما كان يقول يهود المدينة للأوس والحزرج الذين كانوا ظاهرين عليهم
وغالبين على أمرهم إذا اشتبكوا في حرب وقد روى ذلك عن بعض الانصار
من هذا يفهم أنه كان قبل مجيء الإسلام في حواضر الجزيرة حركة
دينية مركزها العقلاء من العرب وأهل الكتاب من اليهود والكهان من
العرب ، ولسكنها لم تكن حركة منتجة لانها لم تؤد إلى شيء ما من التغيير
في عبادة الاوثان ، ولا إلى شيء من اصلاح أحوال العرب العامة ولسكنها
جعلت في الانفس شيئاً من الاستعداد لقبول الاصلاح الاسلامي

محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم

كان عبد المطلب بن هاشم كبير قريش وسيدها ، وله أولاد أشرف
عظاء ، منهم أبو طالب وعبد الله وحزرة وعباس وأبو لهب وعبد المطلب ذو السن
من بيت عبد مناف الذي هو أشرف بيت من قريش

اختار لولده عبد الله أمنة بنت وهب وهي من بيت زهرة بن كلاب من

أشرف بيوت قريش فبنى بها عبد الله في مكة وبعد قليل خرج تاجراً إلى الشام
فلما وصل المدينة - وبها أخواله من بني النجار - أدر كته منيته لشهرين من
الحمل بابنه صلى الله عليه وسلم وإنما كان بنو النجار أخواله لأن منهم أم أبيه
عبد المطلب

وفي صبيحة يوم الاثنين التاسع من شهر ربيع الأول لأول عام من
حادثة الفيل - ولاربعين سنة خلت من ملك كسرى انوشروان - ويوافق
العشرين من شهر إبريل سنة ٥٧١ حسبما حققه العالم الفيلسوف محمود باشا - ولد
رسول الله صلى الله عليه وسلم بشعب بني هاشم بمكة ، ولما ولدته أمه أرسلت
إلى جده عبد المطلب تبشره بحفيده فجاء مستبشراً واختار للمولود اسم محمد
وهذا الاسم لم يكن معروفاً عند العرب ولم يمر على نظرنا فيما قرأناه
من كتب تاريخهم ودواوين أنسابهم إلا اسم واحد لا أحد أشرف تميم وهو
الاب الخامس للفرزدق التميمي الشاعر المشهور ويستنتج المؤرخون أن اختيار
هذه التسمية إنما كان نتيجة شعور من عبد المطلب بما لهذا المولود من المستقبل
المنتظر لما كان يدور إذ ذاك على الألسنة من قرب بعثة نبي منتظر من العرب
وختنه يوم سابعه كما كان العرب يفعلون

كانت العادة عند الحاضرين من العرب أن يلتمسوا المراضع لأولادهم في
البادية لأمريين (الأول) انهم يبتعدون في البوادي عن أمراض الحواضر التي
كثيراً ما تصيب الأطفال وهناك تقوى أجسامهم وتشتد أعصابهم لما في هواء
البادية من الصفاء والابتعاد عن عفونات المدن (الثاني) انهم يتقنون اللسان
العربي في مهدهم عن البدو وهم أجهر صوتاً وأسلس عبارة

وقد اختير لمحمد بن عبد الله امرأة من بنى سعد بن بكر من هوازن الذين هم بادية مكة واسمها حليلة بنت أبي دؤيب وزوجها هو الحرث بن عبد العزى المكنى بأبي كبشة من قومها فأقام مسترخياً فيهم قريباً من أربع سنوات ثم ردت إلى أمه بعد ذلك فأقام معها بمكة

كانت لأمه عادة مذتوفى زوجها عبد الله بالمدينة أن تذهب كل سنة لزيارة قبره بها ومعها عبد المطلب فاما كانت السادسة من عمر والدها ذهبت لتلك الزيارة وبينما هي راجعة إذ مرضت في الطريق ثم توفيت ودفنت بالأبواء بين مكة والمدينة فماد عبد المطلب بحفيده وكان يحبه حباً جماً قال ابن هشام كان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه لا يجلس عليه أحد من بنيه اجلالاً له فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتي وهو غلام صغير حتى يجلس عليه فيأخذه إمامه ليؤخروه عنه فيقول عبد المطلب — إذا رأى ذلك منهم — دعوا ابني هذا فوالله إن له لشيئاً ثم يجلسه معه على فراشه ويمسح ظهره بيده ويسره ما يراه يصنع ولثمانى سنوات من عمره توفى بمكة جده عبد المطلب وأوصى به قبل وفاته إلى أبي طالب عمه شقيق أبيه فان أبا طالب والزبير وعبد الله أولاد عبد المطلب كانت أمهم جميعاً فاطمة بنت عمرو المخزومية القرشية ولتسع سنوات من عمره — حسب رواية ابن هشام — أو ثلاثة عشرة — خرج أبو طالب إلى الشام تاجراً وأخرجه معه حتى وصلا بصرى وهى معدودة من الشام وقصبة حوران وكانت في ذلك الوقت قصبة للبلاد العربية التى كانت تحت حكم الرومان وكان في هذا البلد على ما نقله من كلام مؤرخي العرب

راهب اسمه بحيرا في صومعة له فكان له حديث مع ابي طالب حينما رأى معه ابن أخيه وأشار عليه أن يرجع به خوفا عليه من عدو يترصده وأخبره ان له شأنًا فرجع به ابو طالب الى مكة وقد اطبق على هذه الحادثة جميع المؤرخين وحكاها ابن الغبري في كتابه مختصر تاريخ الدول وقد نقبنا كثيرا عن اسم هذا الراهب في كتب من عنوا بذكر أساقفة الشام وبصرى والمشهورين من رجال الدين فيهما فلم نجده

ولحسن عشرة من عمره كانت حرب الفجار بين قريش وكنانة وبين قيس وكان قائد قريش كلها حرب بن أمية لكانته فيهم سنًا وشرفا وكان رئيس بني عبد المطلب وقد حضر هذه الحرب سيدنا محمد بن الله ، وكان ينبل على عمومته أي يجهز لهم النبل الرمي . وحدث بعد ذلك تداعي قريش لحلف الفضول والمتحالفون هم بنو هاشم وبنو المطلب وبنو أسد بن عبد العزي وبنو زهرة بن كلاب وبنو تميم بن مرة تحالفوا وتعاهدوا أن لا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها أو من غيرهم من سائر الناس الا قاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى ترد اليه مظلمته وتم ذلك الحلف في دار عبد الله بن جدعان التيمي وشهده سيدنا محمد بن عبد الله وقال فيه بعد الرسالة لقد شهدت مع عمومي حلفاً في دار عبد الله بن جدعان ما أحب ان لي به حمر النعم ولودعيت به في الاسلام لاجبت

ولحسن وعشرين سنة من مولده تزوج خديجة بنت خويلد الاسديّة من بني أسد بن عبد العزي وكانت سيّدة محترمة في قومها ذات يسار تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إياه وكان سيدنا محمد بن عبد الله مشهوراً في قومه

بالامانة حتى كانوا يسمونه بالامين فعرضت اليه أن يسافر الى الشام بآلها وأرسلت معه غلامها ميسرة فذهبا حتى أتيا الشام وباعا وابتاعا وربحوا ثم عاد الى مكة ويروى ابن جرير الطبري عن ابن شهاب الزهري أن هذه الرحلة التي ذهبت فيها بتجارة خديجة إنما كانت الى سوق حباشة باليمن لا الى الشام والرواية الاولى أشهر

بعد هذه الرحلة عرضت السيدة على الامين أن يتزوجها فرضى وكانت سنها أربعين سنة فخطبها عمه وتم الزواج بينهما قبل الهجرة بثمان وعشرين سنة اقامت معه منها خمسا وعشرين وهي أم أولاده جميعا ماعد ابراهيم الذي ولد له بالمدينة فانه من مارية القبطية التي كانت من قرية حفن من كورة انصنا

وكانت خديجة من افضل نساء قومها نسبا وثروة وعقلا ولها في تاريخ الاسلام اجمل ذكر واصدقه وسيتضح بعد

ولخمس وثلاثين سنة من مولده كان هدم قريش للكعبة وتجديد بنائها فانها كانت رضيمة فوق القامة فأرادوا رفعها وتسقيفها وكانوا يهابون هدمها فابتدأ به الوليد بن المغيرة المخزومي وتبعه الناس لما راوا انه لم يصب الوليد شيء ولم يزالوا في الهدم حتى وصلوا الى اساس اسماعيل ثم شرعوا في البناء على قواعده والذي تولى البناء بناء رومي اسمه باقوم وقد قسموا العمل فيها على قبائل قريش ثم قصرت بهم النفقة الطبية عن إمامها على قواعد اسماعيل فدخلوا عنها من الجهة الشمالية نحو آمن ستة اذرع وصعدوا بها في الجو حتى اذا وصلوا الى مكان الحجر الاسود اختلفوا فيمن يمتاز بشرف

وضعه في مكانه واشتد النزاع بينهم فعرض عليهم التحكيم أحد رؤسائهم
فارتضوه وكان الحكم سيدنا محمد بن عبد الله فطلب رداءً ووضع فيه الحجر
وطلب من الرؤساء أن يمسك كل رئيس بطرف منه وأمرهم أن يرفعوه حتى
إذا حاذى موضعه أخذه بيده فوضعه مكانه وكان هذا الحكم موجباً لرضاهم
وابتعاد الشحنة من أنفسهم وصارت الكعبة بعد انتهائهم ذات شكل مربع
تقريباً يبالغ ارتفاعه ١٥ متراً وطول ضلعه الذي فيه الحجر الأسود والمقابل
له ١٠،١٠ م والحجر موضوع على ارتفاع ١٠،٥٠ م من أرضية المضاف والضلع
الذي فيه الباب والمقابل له ١٢ م وبابها على ارتفاع مترين من الأرض ويحيط
بها من الخارج قصبة من البناء أسفلها متوسط ارتفاعها ٢٥ م ومتوسط
عرضها ٣ م وتسمى بالشاذروان وهي من أصل البيت ولكن قریشاً
تركها واستظهر محمد لبيب بك البتانوني فيما كتبه عن الكعبة في رحلته
الحجازية التي اقتطفنا منها هذه المعلومات أن هذا الاسم محدث أما في عهد
ابن الزبير أو عهد الحجاج بن يوسف

والكعبة أربعة أركان : الشمالى واسمه الركن العراقى والغربى واسمه
الشامى والجنوبى واسمه اليمانى والشرقى واسمه ركن الحجر لان الحجر فيه
وهو حجر صقيل بيضاوى غير منتظم ولونه اسود يميل الى الاحمرار وفيه
نقط حمراء وتعاريج صفراء وهي أثر لحام القطع التي كانت انفصلت منه وقطره
نحو ٣ م والمسافة التي بين ركن الحجر وباب الكعبة يسمونها الملتزم وقبالة
الحائط الشمالى الحطيم وهو قوس من البناء طرفا الى زاويتي البيت ويبعدان

عنها ٢٠٣٦ م ويبلغ ارتفاعه متراً وسمكه ١٠٥ م ومسافته ما بين منتصف ضلع الكعبة ١٠٤٤ م وهذا الفضاء يسمونه حجر اسماعيل وقد كان يدخل منه ثلاثة أمتار تقريباً في بناء ابراهيم ويقال أن اسماعيل وهاجر امه مدفونان في الحجر

السيرة الأدبية قبل النبوة

اتفق جميع المؤرخين أن سيدنا محمد بن عبد الله كان في قومه ممتازاً بأخلاق جميلة منها صدق الحديث والامانة حتى سموه الامين وكانوا يودعون عنده ودائعهم وأمانتهم . وكان لا يشرب الخمر ولا يأكل مما ذبح على النصب ولا يحضر للاوثان عيداً ولا احتفالاً بل كان من أول نشأته نافراً من هذه المعبودات الباطلة . وكان يأكل من نتيجة عمله لان أباه لم يترك له من الثروة الا شيئاً قليلاً وكان عمله حين شب — التجارة ولما تزوج خديجة كان يعمل بمالها ويشركها في الربح وكان يشارك غيرها احياناً ولم يكن يقرأ ولا يكتب

ولا بد لنا من ذكر مسألة وضعها الاصوليون من علماء المسلمين في موضع البحث وهي هل كان متعبداً بشريعة قبل نبوته بعد قول الائمة منهم ان هذه مسألة من اختصاص التاريخ لا من اختصاص اصول الفقه فقال جمهور منهم انه لم يكن مكلفاً باتباع شريعة ما من الشرائع الماضية واستدلوا بانه لو كان مكلفاً بشريعة لقضت العادة بمخالطة اهلها ووجبت تلك المخالطة لياخذ عنهم تلك الشرائع ولسكنه لم يفعل لانه لو حصل ذلك لتوفرت الدواعي على نقله ولم ينقل شيء من ذلك

وتوقف في الرأي بعض الأئمة كالغزالي وشيخه امام الحرمين والآمدي
لأنهم لم يظفروا بما يؤهلهم للحكم في مثل تلك المسألة ٩٩٩
وقال بعضهم أنه كان متعبدًا بشريعة ولكن ما هي تلك الشريعة
اختلفوا في تعيينها فمن قائل أنها شريعة آدم أو نوح أو ابراهيم أو
موسى أو عيسى صلوات الله عليهم اجمعين وهو اختلاف يدل على أن
أصحاب هذا الرأي ليسوا مرتكزين على دليل قوى يعضدهم وإنما هي
مجرد أفكار

واختار الكمال بن الهمام من الاصوليين مذهباً مبهماً وهو انه متعبد بما
ثبت انه شرع اذ ذاك الا أن تثبت شريعتان أمرين متضادين فبالاخير فإن
لم يعلم الاخير فهو متعبد بما يركن اليه منهما واستدل على ذلك بان التكليف
لم ينقطع من بعثة آدم عموماً وخصوصاً ولم يترك الناس سدى قط فلزم التعبد
كل من تأهل من العباد وبلغه ذلك المتعبد به وقال ان هذا الدليل يوجب
التعبد في غيره وتخصيصه بالبحث أمر اتفاقى والذي نراه ان التفصيل في مثل
هذه المسئلة إنما هو التاريخ لا مثل هذه البراهين لان مثل هذا الرأي يلزمه
ان الانسان مطلوب منه ان يتطلب جميع الشرائع الماضية التي سبقت
وعبد الله بما يثبت انه منها ويرجع بين اللاحق والسابق وهذا امر لم نسمع
انه عليه السلام فعله حتى كنا نقول انه ادى ما كلف به والتاريخ يثبت انه قبل
نبوته رفض الاوثان وعبادتها والتقرب اليها وكان يطوف بالكعبة ويحج كما كان
الناس يحجون ويلتزم مكارم الاخلاق التي في مقدمتها الصدق والامانة
والوفاء ولم يشرب الخمر وهذه كلها خصال يحمل عليها العقل الراجح وكان

يتعبد في غار حراء وهو غار صغير على جبل النور الذي على يسار السالك الى عرفه
وعبادته فيه لم تكن الا فكراً في خالق الكون الاعظم وكانت يتعبد فيه
عبد المطلب وقال المؤرخون انه اول من تعبد فيه

ولم يعلم عنه انه كان يراعى الطرق التفصيلية للعبادات في الشرائع التي
سبقته ولم يكن قبل نبوته وصل الى الحقيقة في امر الخالق جل ذكره والى
ذلك الاشارة في الكتاب (وكذلك اوحينا اليك روحاً من امرنا ما كنت
تدري ما الكتاب ولا الايمان) وقال في سورة الضحى مما امتن به عليه
(ووجدك ضالاً فهدى) والضلال الحيرة والهداية النبوة



المحاضرة الثامنة

البعثة — الوحي — الدعوة السرية — الجهر بالدعوة

ما كان من قريش — هجرة الحبشة

البعثة

الذين يختارهم الله لاصلاح الامم يلقي اليهم ما يريد ان يبلغوه عنه بالوحي والوحي — في لغة العرب — أعلام مع خفاء وسرعة ومعنى السرعة أن هذه المعلومات المتلقاة لا تكون نتيجة لمقدمات تنبئ عايتها تلك النتيجة بل هي أشبه شيء بالعلم الضروري الذي لا يتوقف على نظر واستدلال وقد استعملت هذه الكلمة في القرآن ، وفي لسان العرب لغير اعلام الله لانبياؤه فقال تعالى (وأوحى ربك الى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلى من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللاً) وقال (واوحينا الى أم موسى أن أرضعيه فاذا خفت عليه فalcيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى أنا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين) وقال مخبراً عن يوسف فى صغره (واوحينا اليه لتنبيئتهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون) وكل هذا لا يعدو معنى الالهام الذى ربما شعر به كثير من الناس

اما اعلام الله انبياءه المختارين فان العبارة العلمية تضيق عن تحديد كنهه وغاية ما يمكن الانسان هو أن يحوم حوله مستعيناً بما قاله الانبياء

أنفسهم فيما نزل على السنتهم ليتقطف منها ما يقرب ذلك الى العقل الانساني
هذا الاعلام له مراتب

الاولى : أن يخاطب في النوم وتلك هي الرؤيا الصادقة وقد ورد ذكرها
كثيراً في التوراة والقرآن وكتابات الرسل وتعتبر التوراة عنها بمثل قولها صار
كلام الرب الى ابرام في الرؤيا قائلاً الخ

ويعبر عنها القرآن بمثل قوله عن لسان ابراهيم صلوات الله عليه مخاطباً
لابنه الذي يسح (يا بني أني أرى في المنام أني أذبحك) ومن هنا يقول محمد رسول
الله صلى الله عليه وسلم رؤيا الانبياء حق ونحن معاشر الانبياء تنام أعيننا ولا
تنام قلوبنا

المرتبة الثانية : أن يلقي ما يراد القاؤه على قلبه من غير وساطة وهو يقظان
وذلك هو المسمى بالالهام والالقاء في الروع ويسمى بعض فلاسفة المسامين
القوة التي تحدث بالخير وتلقيه في النفس ملكاً على العكس من القوة التي تحدث
بالشر وتلقيه في النفس فانه يسميها شيطاناً وفلاسفة المسامين غرائب في
كلامهم عن الملائكة والشياطين . وقد يستروحون بقوله تعالى في الكتاب
(نزل به الروح الأمين على قلبك)

المرتبة الثالثة : أن يرسل الله اليه رسولا يخبره بما يريد اعلامه أياه وهو
المسمى بالملك فيحدثه ويصف القرآن هذا الرسول بقوله (أنه لقول رسول
كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين) ويظهر هذا الملك
للانبياء في التوراة كثيراً

المرتبة : الرابعة ان يسمعه الله كلامه مباشرة كما حصل لموسى عليه السلام حينما سمع الصوت من العقلية المتقدمة كما عبرت التوراة وقال القرآن عن هذه الحادثة (وهل أتاك حديث موسى اذ رأى ناراً فقال لاهله امكثوا اني آنست ناراً على آتياكم منها بقبس او اجد على النار هدى فلما اتاها نودى ياموسى اني انار بك فاخلع نعليك انك بالوادي المقدس طوى وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى)

هذه هي المراتب التي عرف ان الوحي يبلغ قلوب الانبياء عليها ، ولا تكاد تتباعد باعتبار نتيجتها وهي ركوز المعاني في القلب بحيث يعلم المخاطب علما ضروريا أن ذلك من الله وكان يحصل لهم وقت هذا الاعلام شدايد يحصل شيئا من جنسها لمن فنى فكرهم في أمر أو حادثة فانك تجد من هؤلاء من يغيب عنك حتى لقد تحدثه فلا يسمع ويتصيب من جراء ذلك عرقا ولسنا نريد تشبيه الحاليين بعضهم ببعض وانما نحن نستروح بما نراه ونحس به لنقرب الى النفس ما لا يحس به وليس في مكنيتها أن تدرك حقيقة : اذا كان الفناء في مسألة أو حادثة يجعل الانسان على نحو ما وصفنا لكم فكيف بالفناء في الآله أنا لا استغرب ما قرأته في بعض الكتب أن صوفيا لسع بعقرب فلم يتحرك ولم يتأثر ، وآخر هدم بجانبه جدار فلم يحس به ! لاني أعلم أن الجندي يصاب في الموقعة بالجرح المؤلم فلا يحس به ويمضي لشأنه حتى اذا تمت الموقعة ورجعت الروح من تعلقها بما كانت فيه الى أمر جسمها أحست بالآلم : كل هذا يفهمنا ما يكون من الانبياء عند الوحي من غيبتهم عن محضرتهم من الناس حتى لا يحسون باحد

سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يأتيك الوحي ! فقال أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت ما قال وأحياناً يتمثل لي رجلاً فأعي ما يقول

ومما روى انه كان يكابد من التنزيل شدته حتى انه كان يوحى اليه في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وان جبينه ليتفصد عرقاً

وقد عقد العلامة ابن خلدون فصلاً تكلم فيه على الوحي والرؤى ولكن قلما يظفر الانسان منه بطائل وفيما بيناه لكم كفاية وتقريب كان أول ما بدى به سيدنا محمد بن عبد الله من الوحي الرؤيا الصالحة فكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح : كما رواد البخارى من حديث عائشة

وبينما كان يتعبد بغار حراء حسب عادته اذ جاءه الوحي وذلك في يوم الاثنين لسبع عشرة خلت من رمضان للسنة الحادية والاربعين من ميلاده فيكون عمره اذ ذاك بالضبط أربعين سنة قرية وستة أشهر و٨ أيام وذلك نحو ٣٩ سنة شمسية وثلاثة اشهر وثمانية ايام : وذلك يوافق ٦ اغسطس سنة ٦١٠ . ولا معنى للاختلاف في تحديد اليوم بالتقويم العربي بعد ان أشار اليه الكتاب اشارة ظاهرة لا تخفى على من له إلمام بالتاريخ فقد قال (ان كنتم آمنتم بالله وما انزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان) والمراد بيوم التقاء الجمع يوم بدر وكان في صبيحة يوم الثلاثاء ١٧ رمضان من السنة الثانية للهجرة وقد جملة (١) عاماً لأول يوم نزل فيه القرآن . وليلة نزول

(١) جرت العادة في التعبير أن يجعل اليوم المعين عدده محلاً لكثير من الوقائع

وليلة نزول القرآن هي التي قال فيها الكتاب (انا انزلناه في ليلة القدر) وقال (انا انزلناه في ليلة مباركة انا كنا منزلين فيها يفرق كل امر حكيم امراً من عندنا انا كنا مرسلين رحمة من ربك انه هو السميع العليم) وهذا هو السبب في تخصيص الاسلام شهر رمضان بالصيام لانه هو الشهر الذي كان يتعبد فيه الرسول بغار حراء ونزل عليه القرآن فيه لأول مرة (شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان) وجعلت نهايته عيداً تذكيراً لذلك الامر العظيم ووجب فيه صدقة يدفعها المسلمون لفقرائهم وهي المسماة بصدقة الفطر : كل ذلك اذا تنبه اليه الانسان ابعده عن كثير من التعاليم التي تلقى الى العامة

وقد روى ابن هشام كيفية بدء الوحي بما اخبر به الرسول عن نفسه قال فجاءني جبريل وانا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال اقرأ قلت ما اقرأ ؟

مع انه ليس من سنة واحدة كما يقولون يوم عاشوراء فيه اهبط آدم وفيه نجت سفينة نوح وفيه نجا موسى من الغرق وليس عاشوراء من سنة واحدة بالضرورة فهذا اليوم بصفته ١٧ رمضان كان محلاً لنزول الفرقان أول مرة والتقاء الجمعين ببدر وليس اليوم واحداً بالشخص وانما هو بكونه ١٧ رمضان . وتدبر الآية يبين انه لا يلحق ان يراد منها غير هذا لان الذي فرق الله بين الحق والباطل انما هو اختيار الله محمداً لان يبلغ عنه الى الناس رسالته وايس ظفر المسلمين في موقعة حمة يرتقى الى تلك الدرجة ومن هنا يعلم ما وقع فيه العالم الفاضل محمود باشا الفيلسوف من الخطأ حيث جعل الرسالة في ربيع الاول الذي يوافق فبراير سنة ٦١٠ والذي اوقعه في الخطأ ما في بعض الروايات من انه عليه السلام بعث على رأس الاربعين

قال ففغتني به حتى ظننت انه الموت ثم ارساني فقال اقرأ قال : قلت ماذا اقرأ ؟ قال ففغتني به حتى ظننت انه الموت ثم ارساني فقال اقرأ قال فقلت ما اقرأ ما اقول ذلك الا افتداء منه ان يعود لي بمثل ما صنع بي فقال (اقرأ باسم ربك الذي خلق : خلق الانسان من علق : اقرأ وربك الاكرم : الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم)

قال فقرأتها ثم انتهيت فانصرف عني وهببت من نومي فكأنما كتبت في قلبي كتابا فخرجت حتى اذا كنت في الجبل سمعت صوتا من السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل ، قال فرفعت رأسي الى السماء أنظر فاذ جبريل في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء يقول يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل ، قال فوقفت أنظر اليه فما أتقدم أماني وما ارجع ورائي حتى بعثت خديجة في طابى فباغوا أعلى مكة ورجعوا اليها وأنا واقف في مكاني ذلك ، ثم انصرف عني وانصرف راجعا الى أهلي حتى أتيت خديجة فجلست الى نخذها مصغيا اليها فقالت يا أبا القاسم اين كنت ؟ لقد بعثت رسلي في طلبك حتى باغوا مكة ورجعوا ، ثم حدثتها بالذي رايت فقالت ابشر يا ابن عمي واثبت فوالذي نفس خديجة بيده إني لا أرجو ان تكون نبي هذه الامة ثم قامت فجمعت ^(١) عليها ثيابها ثم انطلقت الى ورقة بن نوفل وهو ابن عمها وكان ورقة قد تنصر وقرأ الكتب وسمع اهل التوراة والانجيل فأخبرته بما أخبرها به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ورقة قدوس قدوس والذي نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتني يا خديجه لقد جاءه

الناموس الاكبر الذى كان يأتى موسى وانه لنبي هذه الامة فقولى له
فليثبت . فرجعت خديجة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخبرته بما قال
ورقة فلما قضى عليه السلام جواره وانصرف صنع كما كان يصنع ، بدأ
بالكعبة فطاف بها فقال له ورقة والذي نفسى بيده إنك لنبي هذه الامة ، ولقد
جاءك الناموس الاكبر الذى جاء موسى واتكذبه وتؤذينه ولتخرجنه ولتقاتلنه
ولئن أنا ادركت ذلك اليوم لانصرن الله نصراً يعامه ، ثم ادنى رأسه منه فقبل
يا فوخه ثم انصرف

رسول الله صلى الله عليه وسلم الى منزله

لم يبق بعد تيقنه عليه السلام مما كلف به الا ان يحمل اعباءه التي
لا يحتملها الا اهل القوة والعزم من الرسل بعون من الله وتوفيقه
ومما يزيد هذا العبء ثقلاً وشدة انه ابتدئ بحمله في مكة وهي مركز
دين العرب وبها سدة الكعبة والقوام على الاوثان والاصنام المقدسة عند
سائر العرب فالوصول الى المقصود من الاصلاح فيها يزداد عسراً وشدة عما
لو كان بعيداً عنها فالامر يحتاج الى عزيمة لاتزلها المصائب والكوارث
كان من الحكمة تلقاء ذلك ان تكون الدعوة — الى هذا الدين — في
بدء امرها — سرية لئلا يفاجيء اهل مكة بما يهيجهم — ولنسيم هذه الدعوة
دعوة الافراد — فكان يدعو كل من توسم فيه خيراً ممن يعرفهم ويعرفونه .
يعرفهم بحب الحق ويعرفونه بتحرى الصدق فأجابه من هؤلاء جمع سماهم
التاريخ الاسلامى بالسابقين الاولين ، وفي مقدمتهم خديجة بنت خويلد وزوجه ،
وزيد بن حارثة بن شرحبيل الكلابي ، وكان قد أسر ورق فملكته خديجة ووهبته

لزوجها فتبناه حسب قواعد العرب وكان لذلك يقال له زيد بن محمد وعلى بن أبي طالب وكان يعيش في بيت رسول الله تخفيفاً عن أبي طالب لما كثروا له وأبو بكر بن أبي قحافة عثمان التيمي ، وكان أبو بكر محبوباً في قومه وكان أنسب قريش لقريش وأعلم قريش بها وبما كان فيها من خير وشر ودعا أبو بكر بعد إيمانه نقرأ ، ممن كان يألّفهم ويألّفونه فأجابه عثمان بن عفان الأموي والزبير بن العوام الأسدي ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص الزهريان وطاحنة بن عبيد الله التيمي ، ثم تلاهم أبو عبيدة عامر بن الجراح من بني الحارث ابن فهر ، وأبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد ، والأرقم بن أبي الأرقم المخزوميان وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب المطايي وسعيد بن زيد العدوي وامراته فاطمة بنت الخطاب العدوية وغيرهم وأولئك هم السابقون الأولون وهم من جميع بطون قريش ، وكان الرسول يجتمع بهم ويرشدهم إلى الدين مستخفياً في دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي بمكة - لأن الدعوة كانت لاتزال فردية ، وهذه الدار لاتزال باقية بمكة ولكنها غير معتنى بها الاعتناء اللائق بمقامها التاريخي !!

استمرت هذه الدعوة الفردية ثلاث سنين أجابه في خلالها جماعة لهم شأن ومعهم غيرهم من المستضعفين

وبعد هذه المدة أمر أن يجهر بالدعوة إلى الدين بقوله تعالى في سورة الحجر (فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين) فاعلمن لقومه الدعوة إلى الله وتوحيده ، فلم يبعد منه قومه ولم يردوا عليه حتى ذكر آلهتهم وعابها ونسب كل من عبدها أو جعلها بنيه وبين الله إلى الضلال وجور ذلك إلى تضليل آباءهم

فإنهم كانوا يحتجون عليه دائماً بأنهم يتبعون ما وجدوا عليه آباءهم وتلك هي العقبة الصعبة في سبيل كل المصلحين فكان ذلك داعية إلى تهجين ما كان عليه آباؤهم فلما كان ذلك نفروا منه وبادروه بالعداوة

لم يكن هناك بد من أن تكون له حماية تمنع عنه ما عسى أن يهجم به أعداؤه من الفتك به حمية لدينهم وشرف آبائهم، وكان عمه أبو طالب سيد بيته وله الحق -- بحسب أصول العربية -- أن يجير! فان فعل كان التعدي على من يجيره ويحميه كأنه اعتدى على البيت بأسره. ويبدت عبد مناف كان أشرف بيوت قريش على الإطلاق: فحشد أبو طالب على رسول الله وأجاره وقام دونه ومضى الرسول لشأنه في الدعوة والجهر بما ينزل عليه من الوحي

لما رأت قريش أنه صار في منعة بجوار أبي طالب مشى رجال من أشرف قريش إليه يطلبون منه أن يكف ابن أخيه عن سب الهتهم وعيب دينهم وتسفيه أحلامهم وتضليل آبائهم أو يخلى بينهم وبينه فردهم أبو طالب رداً جميلاً فانصرفوا عنه. ولما راوا أن هذه الوفادة لم تقدمهم شيئاً تدمروا وحض بعضهم بعضاً عليه ثم مشوا إلى أبي طالب مرة ثانية قائلين أنهم لا يصبرون على هذه الحال!! وخبروه بين أن يكفه عما يقول أو ينزلونه وإياه فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم ولم يطب نفساً بخذلان ابن أخيه ولكنه قال له يا ابن أخي إن قومك جاؤوني وقالوا لي كذا وكذا فأبق على وعلى نفسك ولا تحماني من الأمر ما لا أطيق فظن الرسول أن عمه خاذله ومسامه وأنه ضعف عن نصرته والقيام معه فقال: والله ياعم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر - حتى يظهره الله أو أهلك دونه - ما تركته

ثم استعبر وبكى ، فلما ولى ناداه ابو طالب فقال اقبل يا ابن اخي فلما اقبل عليه قال له اذهب فقل ما احببت فوالله لا اسامك شيء ابداً

فلما رأت قريش أن أبا طالب قد أبي خذلان ابن أخيه مشوا اليه بعمارة ابن الوليد ، وقالوا له أن هذا الفتى انهد فتى في قريش وأجمه نخذه فلاك عقله ونصره واتخذه ولداً فهو لك واسلم اليها ابن اخيك هذا الذى خالف دينك ودين آبائك وفرق جماعة قومه وسفه أحلامهم فنقتله فانما هو رجل برجل : فقال لهم ابو طالب لبئس ما تسوموننى اتعطونى ابنكم اغدوه لكم- واعطيكم ابني تقتلونه ؟ ! ولما رأى ابو طالب تألب قريش عليه قام فى أهل بيته بنى هاشم وبنى المطلب ولدى عبد مناف وقد كان هاشم والمطلب من أم واحدة ، دون اخويهما عبد شمس ونوفل - ودعاهم الى ما هو عليه من منع ابن أخيه والقيام بدونه ، فأجابوه الى ذلك مسامهم وكافرهم حمية للجوار العربى الا ما كان من أخيه ابى لهب فانه فارقههم وكان مع قريش ، ولا ادرى افضل حميته لدينه على حميته لشرف أخيه أم كانت هناك اسباب أخرى أدت الى هذا الانفصال ؟ ولا اظن ان كونه من أم اخرى غير أم ابي طالب يدعو الى مثل ذلك لأن هذا الاختلاف لم يكن مؤثراً هذا التأثير في قلوب العرب بين الاخوة لان العصبية للأخ كانت عندهم فوق كل شيء ، ولا يبعد عندى ان زواجه بأم جميل بنت حرب دعاه الى مثل هذا ، لان أم جميل كانت من ألد اعداء رسول الله حتى أنها كانت تذيع عنه الاكاذيب في مجامع النساء فتشعل بتلك الاكاذيب نار العداوة في قلوبهن : ويعبر العرب عن مثل ذلك الفعل بحمل

الخطب لانه هو الذى يؤجج النيران ، ولذلك ذكرت في السورة الحادية عشرة
بعد المائة بلقب حمالة الخطب

قرب وقت الحج والعرب سترد من آفاق الجزيرة لزيارة الكعبة رأت
قريش أنه لا بد من كلمة يقولونها للعرب في شأن محمد حتى لا يكون لدعوته
أثر في نفس العرب فاجتمعوا يتداولون في تلك الكلمة لانهم اذا اختلفوا
وكذب بعضهم بعضاً فان ذلك يضعف من قولهم عند سائر العرب . فقال
واحد منهم نقول كاهن ! فقال لهم الوليد بن المغيرة وهو ذو السن فيهم ماهو
بكاهن لقد رأينا الكهان ! وما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعته فقال آخر
نقول مجنون : فقال الوليد ماهو بمجنون ! لقد رأينا الجنون وعرفناه ماهو
بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسه : فقال آخر نقول هو شاعر : فقال ماهو بشاعر !
لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر ! فقال
آخر نقول ساحر : قال ماهو بساحر ! لقد رأينا السحار وسحروهم فما هو
بنفسهم ولا عقدهم : قالوا فما تقول انت ؟ قال والله إن لقوله لحلاوة وإن اصله
لعذق وإن فرعه لجناة ما أنتم بقائلين من هذا شيئاً الا عرف أنه باطل
وإن اقرب القول فيه لأن تقولوا هو ساحر جاء بقول هو سحر يفرق به
بين المرء وابيه وبين المرء واخيه وبين المرء وزوجه وبين المرء وعشيرته فتفرقوا
على ذلك وصاروا يجاسون بسبل الناس حين قدموا الموسم لا يمر بهم احد الا
حذروه اياه وذكروا له امره وصدرت العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله
صلى الله عليه وسلم فانتشر ذكره في بلاد العرب كلها

ولما خشى ابوطالب دهاء العرب ان يركبوه مع قومه قال قصيدته

المشهورة التي تعود فيها بحرم مكة وبمكانه منها وتودد فيها اشراف اهل بيته من بني عبد شمس ونوفل ، وهو على ذلك يخبرهم انه غير مسلم رسول الله ولا تاركه لشيء ابداً وفيها يقول :

كذبتم - وبيت الله تترك مكة ونظعن الا امركم في بلابل
كذبتم - وبيت الله - نبزى محمداً ولما نطعن دونه ونناضل
ونسامه حتى نصرع حوله ونذهل عن ابنائنا والحلائل
وفيها يقول :

فوالله لولا ان اجيء بسبة تجر على اشيائنا في المحافل
لكنا اتبعناه على كل حالة من الدهر جداً غير قول التهازل
لقد علموا أن ابننا لا مكذب لدينا ولا يعنى بقول الأباطل
لما رأيت قريش أنهم لم ينالوا من أبي طالب ما أرادوا عمدوا الى الفتنة
(١) فمن جهة الرسول اغروا به سفهاءهم وهم العدة في مثل هذه المواطن
لكل من ضاد اصلاً فكذبوه وآذوه ورموه بالشعر والسحر والكهانة
والجنون ، وهو مظهر لامر الله لا يستخفى منه مباد لهم بما يكرهون
من عيب دينهم واعتزال أوثانهم وفراقه اياهم على كفرهم لا يبالي بما يصنع
سفاهم معه

وأما من جهة من اتبعه فان كل قبيلة صارت تعذب من دان منها بالاسلام

(١) يقال ففتت الفضة والذهب اذا ذبتهما بالنار لتمييز الرديء من الجيد
واستعملت في الابتلاء والامتحان والاختبار - والمراد بها في لسان الدين تعذيب
المتدين حتى يرجع عن دينه

أنواعاً من التعذيب يفزع قلب الحليم من ذكرها وهم يحملونها بصبر عجيب .
ولما رأى الرسول ما يصنع بأصحابه — وهو غير قادر على حمايتهم مما يسامونه
من سوء العذاب — قال لهم لو خرجتم إلى الحبشة فإن بها مأكلاً لا يظلم أحد
عنده حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه ففروا إلى الله بدينهم ، وهذه كانت
أول هجرة في الإسلام وكان المهاجرون أولاً عشرة رجال وأربع نسوة ، ثم
تبعهم بعد ذلك جماعة آخرون حتى كانت عدتهم ثلاثة وثمانين رجلاً ، ومعهم
من نساءهم سبع عشرة امرأة سوى من خرج معهم من أولادهم الصغار
وكانوا من جميع بطون قريش

فلما وصلوا إلى الحبشة أكرم النجاشي مشواهم وأعلنوا هناك عبادتهم
لا يخشون شراً ، فلما بلغ ذلك قريشاً لم يتركوا هؤلاء الذين فارقوهم وتركوا
لهم البلاد يطعمونهم في منزلهم الجديد ! فاختاروا رجلين منهم ليذهبا إلى
النجاشي ويطلبوا منه ردهم إلى بلادهم وأرسلوا معهما هدايا له ولبطارفته وهذان
الرجلان هما عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص فلما وصلا إلى بلاد الحبشة
وأتحفا البطارقة والنجاشي بالهدايا قال له أيها الملك قد ضوى إلى بلادك منا
غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت
وقد بعثنا اليك فيهم اشراف قومهم من آبائهم واعمامهم وعشيرتهم لتردهم
عليهم فهم أعلى بهم عيناً واعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه ويظهر أن هذين
الرسولين لم يكونا مخلصين لقومهم في هذه الرسالة فإن السيدة أم سلمة إحدى
المهاجرات وراوية هذا الخبر تقول ولم يكن شيء أبغض إلى عبد الله بن أبي

ربيعة وعمر بن العاص من أن يسمع كلامهما النجاشي : فلما اديا الرسالة قال النجاشي لاهما اذا لا اسلمهم اليهما ولا يكاد قوم جاوروني ونزلوا في بلادى واختاروني على سواي - حتى ادعواهم فاسألتهم عما يقول هذان في أمرهم ؟ فان كان كما يقولان اسلمتهم اليهما ورددتهم الى قومهم وان كانوا على غير ذلك منعهم منهم وأحسنيت جوارهم ما جاوروني : ثم أرسل الى جماعة المهاجرين فجاءوا فقال لهم ما هذا الدين الذي فارقتكم به قومكم ولم تدخلوا في دينى ولا في دين أحد من هذه المال فكلمه جعفر بن أبى طالب فشرح له ما كانت عليه حالهم قبل الدعوة الاسلامية وما أمر به الرسول من ترك عبادة الاوثان والرجوع الى الله وما وصاهم به من مكارم الاخلاق : ثم قال إن قومنا بغوا علينا وأرادوا فتنتنا عن ديننا فخرجنا إلى ديارك واخترتك على من سواك ورغبنا في جوارك ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك فطلب منه النجاشي أن يقرأ عليه شيئاً مما جاء به الرسول فقرأ له صدرأ من سورة مريم وفيه حديث ميلاد المسيح فقال النجاشي هذا والذي جاء به المسيح ليخرج من مشكاة واحدة انطلقا . فلا والله لا أسلمهم اليكما ولا يكادون : فلما خرجا قال عمرو بن العاص لرفيقه والله لا آتينه غداً عنهم بما استأصل به خضراءهم فقال عبد الله لا تفعل ! فان لهم أرحاماً وان كانوا قد خالفونا قال والله لا خبرنه انهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد . ثم غدا على النجاشي فقال أيها الملك انهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً فسألهم عنه فطلبهم النجاشي ولما دخلوا عليه سأل التسكلم عنهم عما قال عمرو ! فقال جعفر نقول فيه الذي جاءنا به نبيناً هو عبد الله ورسوله وروحه وكميته القاها الى مريم العذراء البتول فضرب

النجاشي بيده إلى الأرض فأخذ منها عوداً ثم قال والله ما عدا عيسى بن مريم مما قات هذا العود ؛ فاغضب هذا القول منه بطارقته ولكنه لم يحفل بذلك وقال لمعشر المهاجرين اذهبوا فأنتم شيوم — ومعنى هذه الكلمة بالحبشة امنون ، ورد على الرجلين هداياهما

وهؤلاء المهاجرون رجع بعضهم إلى مكة — قبل الهجرة إلى المدينة وبعضهم أقام بالحبشة إلى السنة السابعة من الهجرة وسيدكر خبرهم بعد

كان قد أسلم قبيل هذه الهجرة رجلان من كبار قريش مشهوران بالفتوة والنجدة وهما حمزة بن عبد المطاب وعمر بن الخطاب الذي كان قبل أن يسلم من أعظم المعارضين للإسلام والمنتقمين ممن أسلم

ومما يدل على شدة شكيمته على المسلمين ما روته أم عبد الله بنت أبي حنمة قالت : والله أنا لنترحل إلى أرض الحبشة إذا قبل عمر بن الخطاب حتى وقف على وهو على شركه قالت وكنا نلقي منه البلاء أذى لنا وشدة علينا قالت فقال انه الانطلاق يا أم عبد الله قالت فقلت : نعم والله لنخرجن في أرض الله آذيتمونا وقهرتمونا حتى يجعل الله لنا مخرجاً قالت فقال صحبتكم الله ورأيت له رقة لم أكن أراها ثم انصرف وقد أحزنه — فيما أرى — خروجننا قالت فجاء عامر (تعني زوجها) فقالت له يا أبا عبد الله لو رأيت عمر آثما ورقته وحزنه علينا ! قال أطمعت في إسلامه ؟ ! فقلت نعم ، قال فلا يسلم الذي رأيت حتى يسلم حمار الخطاب ، قالت يا أسا منه لما كان يرى من غلظته وقسوته على الاسلام

المحاضرة التاسعة

في مقاطعة قريش لبني هاشم والمطلب - هجرة الطائف - العرض على

قبائل العرب واجابة الأنصار - البيعة - الهجرة

رأت قريش أن حياهم قد نفذت فرسول الله منعه عنه وقام معه بنو هاشم والمطلب - مسامهم وكافرهم - والمسامون قد لاذوا به داخل الجنة فأمنوا بها فعمدوا الى حيلة أخرى وهي مقاطعة بني هاشم والمطلب . فلا يتزوجون منهم ولا يزوجونهم ولا يبيعونهم شيئاً ولا يبتاعون منهم شيئاً ، ولما أجمعوا أمرهم على ذلك كتبوا صحيفة وعلقوها في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم بذلك ، فأنحازت بنو هاشم والمطلب الى أبي طالب فدخلوا معه في شعبه فاجتمعوا اليه وخرج منهم أبو لهب بن عبد المطلب الى قريش فظاهرهم أقام أبو طالب في الشعب أكثر من سنتين وهو ومن معه يقاسون أشد الجهد من مقاطعة قريش لهم ، والرسول صلى الله عليه وسلم ذلك مستمر على دعوته يدعوهم ليلاً ونهاراً سراً واعلاناً منادياً بأمر الله لا يتقى فيه أحداً من الناس

كان في رجال قريش من تأثر لحال بني هاشم وبني المطلب وأعظمهم في ذلك أثراً كان هشام بن عمرو ، من بني عامر بن لؤي وكان ابن أخي نضله بن هاشم بن عبد مناف لأمه ، وكان ذا شرف في قومه فمضى الى زهير بن أبي أمية من بني مخزوم ، وقال له يازهير : أقدر رضىت أن تاكل

الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء وأخوالك حيث قد علمت لا يباعون ولا
يبتاع منهم ولا ينكحون ولا ينكح اليهم ! أما اني أحاف بالله أن لو كانوا
أخوال أبي الحكم بن هشام ثم دعوته الى مثل مادعاك اليه منهم ما جابك اليه
أبدًا ! ! قال ويحك يا هشام انما انا رجل واحد والله لو كان معي آخر لقمتم
في نقض الصحيفة حتى انقضها ، قال قد وجدت رجلا قال من هو ؟ قال أنا
قال زهير ابغنا رجلاً ثالثاً فذهب الى مطعم بن عدي وهو سيد بيت نوفل
ابن عبد مناف فقال له مطعم أقدر ضيت أن يهلك بطنان من عبد مناف
وأنت شاهد على ذلك موافق لقريش فيه أموال الله لئن امكنتموهم من هذه
لتجدنهم اليها منكم سراعا قال ويحك ماذا أصنع فانما أنا رجل واحد ، قال قد
وجدت ثانياً قال من هو ، قال أنا قال ابغنا ثالثاً قال قد فعلت ، قال من هو ،
قال زهير بن أبي أمية قال ابغنا رابعاً فذهب الى أبي البختري بن هشام فقال
له نحوا مما قال لمطعم واعلمه بما اتفقوا عليه : فقال ابغنا خامساً فذهب الى
زمنة بن الاسود من بني أسد ابن عبد العزى فكامه وذكر له قرابة بني هاشم
والمطلب وحقهم ، فقال وهل على هذا الامر الذي تدعوني اليه من أحد !
قال نعم : وسمى له القوم فاتعدوا حطيم الحجون ليلاً بأعلى مكة فاجتمعوا
هناك وتعاهدوا على القيام في الصحيفة حتى ينقضوها ، وقال زهير أنا أبدوكم
فلما أصبحوا غدوا الى أنديتهم وغدا زهير بن أبي أمية وعليه حلة فطاف
بالبيت سبعاً ثم أقبل على الناس فقال يا أهل مكة أنا كل الطعام ونابس الثياب
وبنو هاشم والمطلب هلكي لا يباعون ولا يبتاع منهم ؟ ! ! والله لأفعد حتى
تشق هذه الصحيفة الظالمة القاطعة ؛ فقال أبو جهل بن هشام كذبت والله لا نشق

فقال زمعة أنت أكذب ما رضىنا كتابتها حيث كتبت ، قال أبو البخترى صدق
زمعة لا نرضى ما كتب فيها ولا نقر به ، قال المطعم بن عدي صدقما وكذب
من قال غير ذلك ! انبرأ الى الله منها ومما كتب فيها ، وقال هشام بن عمرو ونحواً
من ذلك . فقال أبو جهل هذا امر قضي بليل تشور فيه بغير هذا المكان وأبو
طالب جالس في ناحية المسجد فقام المطعم الى الصحيفة ليشتقها فوجد الارضة
قد أكتتها الا باسمك اللهم

مكثت الحال على ذلك والمسامون كل يوم في ازدياد من قريش ومن
غيرهم ، ولا يتمكن أعداء الرسول من الاعتداء عليه حتي كانت السنة العاشرة
من النبوة فأصيب الرسول بمصيبة عظيمة وهي وفاة عمه أبي طالب وزوجه
خديجة بنت خويلد في يومين متقاربين في شهر شوال ، وكانت خديجة له
وزير صدق على الاسلام يشكو اليها وكان عمده عضداً وحرزاً في أمره ومنعة
وناصراً على قومه وكان موتهما قبل الهجرة بثلاث سنين فنالت قريش من
أذى الرسول ما لم تكن تطمع فيه في حياة أبي طالب حتي اعترضه سفيه من
سفهاء قريش فنثر على رأسه تراباً

رأى الرسول أنه لا بد له من عضد يؤازره ويدفع عنه أذى قومه حتي
يؤدي رسالة ربه فذهب الى الطائف - وبها بطون ثقيف - وعمد الى أشrafهم
وذوي الرئاسة منهم وهم اخوة ثلاثة عنديا ليل ومسعود وحبيب أبناء عمرو
بن عمير الثقفيون فجلس اليهم ودعاهم الى الله وكلهم بما جاءه من نصرة الاسلام
والقيام معه على من خالفه من قومه فرد عليه ثلاثهم رداً قبيحاً ، فيئس منهم
وعاد عنهم فأغروا به سفاهم وعبيدهم يسبونهم ويصيحون به حتي اجتمع عليه

الناس والجنود الى حائط لعتبة وشيعة ابني ربيعة ورجع عنه من سفهاء ثقيف
من كان يتبعه . ولما قدم مكة أرسل الى المطعم بن عدى يخبره انه يدخل مكة
في جواره فاجابه الى ذلك ثم تساحح المطعم وأهل بيته حتى أتوا المسجد ، ثم
بعث الى رسول الله ان ادخل فدخل رسول الله فطاف بالبيت وصلى عنده
ثم انصرف الى منزله ففي ذلك يقول حسان بن ثابت في رثاء المطعم لما توفي
اجرت رسول الله منهم فاصبحوا عبيدك مالي مهل واحرما
كان الرسول يقوم في مواسم الحج داعياً من أقبل الى مكة من سائر
العرب ويقرأ عليه القرآن ويطلب منهم أن يقوموا دونه حتى يؤدي رسالة
ربه فكانوا لا يجيبونه الى ذلك ، ومنهم من يرد عليه ردأقبيحا : عرض ذلك
على بني عامر بن صعصعة فقال كبيرهم أرايت إن نحن تابعناك علي أمرك ثم
أظهرك الله على من خالفك أن يكون لنا الامر من بعدك قال الامر لله يضعه
حيث يشاء ، فقال له أفنهدف نحورنا للعرب دونك فاذا أظهرك الله كان
الامر لغيرنا لا حاجة لنا بامرك ! وعرض ذلك على بني حنيفة من ربيعة فلم
يكن أحد اقبح ردأ منهم

في ذلك الوقت كانت نيران العداوة متقدة في يثرب بين الاوس والخزرج
وكانت الخزرج أكثر عدداً ففكر الاوس انهم يستعينون بقريش فيحالفونهم
على بني عمهم من الخزرج فأرسلوا لذلك وفدأ فيهم أبو الحيسر أنس بن رافع
وإياس بن معاذ فلما علم الرسول بمقدمهم جاءهم فجلس اليهم وقال لهم هل لكم
في خير مما جئتم له ؟ فقالوا وما ذاك ، قال أنا رسول الله بعثني إلى العباد
أدعوهم الى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً وانزل علي الكتاب ثم ذكر

لهم الاسلام وتلا عليهم شيئاً من القرآن فقال اياس بن معاذ - وكان غلاماً حدثاً أى قوم هذا والله خير مما جئتم له فأخذ أبو الحيسر حفنة من حصباء ورمى بها في وجه اياس وقال له دعنا منك لقد جئنا لغير هذا . فسكت اياس وقام الرسول عنهم وانصرفوا الى المدينة

كان عقب انصراف هذا الوفد أن حصل في يثرب حرب شديدة بين الاوس والخزرج ، ويسمى يومها في التاريخ يوم بعث : وهو آخر حروبهم وانتصرت فيه الاوس نصراً مؤزراً بعد ان انهزمت أول مرة

في الموسم الذي كان بعد هذه الحرب أقبل الى مكة للحج جماعة من الخزرج فجاءهم الرسول ودعاهم الى الاسلام كما كانت عادته وكان في أنفسهم شيء مما كانوا يسمعون ، وهم في المدينة من يهودها عن بعثة نبي قرب وقت ظهوره يستظهر به اليهود عليهم ، فقال بعضهم لبعض إنه للنبي الذي توعدكم به اليهود فلا يسبقنكم اليه فاجابوه الى مادعاهم بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرضه عليهم من الاسلام فقالوا له إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم وعسى ان يجمعهم الله بك فسنقدم عليهم فنسددوهم لامرك ونعرض عليهم الذي أجبتك اليه من هذا الدين فان يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك ، ثم انصرفوا راجعين الى بلادهم وكانوا ستة نفر من الخزرج فلما قدموا المدينة الى قومهم ذكروا لهم رسول صلى الله عليه وسلم ودعوهم الى الاسلام حتى فشا فيهم فلم تبق دار من دور الأنصار الا وفيها ذكره

فلما كان الموسم الذي قبل الهجرة بسنة وثلاثة أشهر - وافى الموسم

من أهل المدينة اثنا عشر رجلاً . فلقوا رسول الله بالعقبة وبايعوه على الاسلام
بيعة تسمى في التاريخ ببيعة النساء ، وانما سميت بذلك لانها كانت على الامور
التي ورد ذكرها في سورة المتحنة خاصة ببيعة النساء وهي هذه الآية
(يا أيها النبي اذا جاءك المؤمنات يبائعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا
يسرقن ولا يزنین ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين بيهتان يفترينه بين
أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله
غفور رحيم)

وبعد أن تمت هذه البيعة بعث معهم مصعب بن عمير من بني عبد الدار
ابن قصي وامره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الاسلام ويفقههم في الدين ، فكان
يسمى المقرئ وكان يؤمهم في المدينة لآل الأوس والخزرج كره بعضهم
أن يؤمه بعض وكان اسلام هؤلاء النفر وذهاب مصعب معهم سبباً كبيراً
من أسباب دخول أشرف أهل يثرب في الاسلام فأسلم اسيد بن حضير
من الأوس وكان ابوه قائد الأوس في يوم بعاث واسلم سعد بن معاذ
سيد بني عبد الاشهل من الأوس ولما اسلم ذهب إلى قومه في نادهم ،
فقال يا بني الاشهل ، كيف تعاملون امرئ فيكم ؟ قالوا سيدنا وأفضلنا
راياً وایمننا نقيبة ، قال فان كلام نساءكم ورجالكم على حرام حتى تؤمنوا
بالله ورسوله ، قالوا فوالله ما أمسى في دار بني عبد الاشهل رجل ولا امرأة
الا مسلماً او مسلمة

وكان لأسعد بن زرارة الذي نزل عليه مصعب قدم ثابتة في دعوة أهل
المدينة إلى الاسلام حتى لم تبق فيها دار الا وفيها رجال مسلمون ونساء

مسلمات إلا بعض بطون قليلة من الأوس اخرها عن الاسلام صيفي بن الاسات
 المكنى بأبي قيس ، وكان شاعراً لهم قائداً يسمعون منه ويطيعونه : فلما كان
 الموسم الأخير قدم مصعب بن عمير ، وخرج من المسلمين عدد كبير ، ومعههم
 حجاج من قومهم لم يزالوا على الشرك ، وأرسل المسلمون إلى رسول الله
 يواعدونه المقابلة عند العقبة من أوسط أيام التشريق : فلما انتهى أمر الحج
 ومشاعره وحان الموعد خرج المسلمون من رحلهم بعد انقضاء ثلث الليل
 يتسللون تساليل القضا مستخفين حتى اجتمعوا في الشعب عند العقبة وكانت
 عدتهم ثلاثة وسبعين رجلاً وأمرأتين — هما نسيبة بنت كعب من بني مازن
 ابن النجار الخزرجية وأسما بنت عمر وإحدى نساء بني سلمة من الخزرج ،
 واستمروا منتظرين الرسول حتى جاءهم ومعه العباس بن عبد المطلب عمه ،
 وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له
 فلما جلس كان أول متكلم العباس فقال : يا معشر الخزرج أن محمداً مناحيث
 قد علمتم وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه فهو في عزم من قومه
 ومنعة في بلده وإنه قد أبى إلا الانحياز اليكم والاحق بكم فإن كنتم ترون أنكم
 وافون له بما دعوتوه اليه وما نعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن
 كنتم ترون أنكم مسامره وخاذلوه — بعد الخروج به اليكم — فمن الآن فدعوه
 فإنه في غر ومنعة من قومه وبلده ، فقال المنكلم من الخزرج قد سمعنا ما قلت
 فتكلم يارسول الله نخذ لنفسك ولربك ما أحببت فتكلم عليه السلام فتلا عليهم
 القرآن ودعا إلى الله ورغب فيه ثم قال أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه
 أنفسكم وابناءكم فأخذ سيدهم البراء بن معرور بيده ثم قال : نعم ولذي بعثك

بالحق لنمنعك مما نمنع منه أزرنا فبايعنا يا رسول الله فأنا والله أهل الحروب وأهل
الخلق ورثناها كابراً عن كابر فقال أبو الهيثم بن التيهان يا رسول الله أن بيننا
وبين الرجال حباً لا وأنا قاطعوها (يعني يهود المدينة) فهل عسيت : أن نحن
فعلنا ذلك ثم اظهرك الله — أن ترجع الى قومك وتدعنا . قال فتبسم الرسول
ثم قال : الدم الدم والهدم الهدم : يعني أنا منكم وأنتم مني أحارب من حاربتم
وأسلم من سلمتم : ثم قال لهم أخرجوا الى منكم اثني عشر تقيباً ليكونوا على
قومهم بما فيهم ، فأخرجوا منهم اثني عشر تقيباً تسعة من الخزرج ، وثلاثة من
الأوس ، فقال لهم : أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحراريين لعيسى
ابن مريم ، وأنا كفيل على قومي وهاهي أسماء النقباء

- (١) أسعد بن زرارة من بني النجار بن ثعلبة من الخزرج
- (٢) سعد بن الربيع من بني مالك بن امرئ القيس من الخزرج
- (٣) عبد الله بن رواحة « عمرو بن امرئ القيس
- (٤) رافع بن مالك « زريق بن عامر من الخزرج
- (٥) البراء بن معرور « سلمة بن سعد
- (٦) عبد الله بن عمرو من بني سلمة بن سعد من الخزرج
- (٧) عبادة بن الصامت « غنم بن سالم »
- (٨) سعد بن عبادة « ساعدة
- (٩) المنذر بن عمرو «
- (١٠) أسعد بن حضير « عبد الأشهل من الأوس
- (١١) سعد بن خيثمة « كعب بن حارثة »

(١٢) أبو الهيثم بن التيهان من بني عبد الاشهل من الاوس
وكان أول من ضرب بيده على يد رسول الله مبايعاً لبراء بن معرور
وبنو النجار يزعمون أن أول من بايع هو أسعد بن زرارة وبنو عبد الاشهل
يقولون إنه أبو الهيثم بن التيهان : وأقول الأول أثبت لأن البراء بن معرور
كان كبير القوم : بعد أن انتهت المبايعات لهم رسول الله أن يعودوا إلى رحلهم
فذهبوا إلى مضاجعهم فناموا ولما أصبحوا كان الخبر قد بلغ قريشاً فجاء
رؤسائهم إلى منازل الانصار ، وقالوا يا معشر الخزرج قد باغنا انكم قد جئتم
إلى صاحبنا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا وأنه والله ما من
حي من العرب ابغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم فأنبعث
من هناك من مشركيهم يخالفون بالله ما كان من هذا شيء وما علمناه وهم في
يمينهم صادقون لأنهم لم يعاموه وقال لهم عبد الله بن أبي سائل - وهو سيد
من ساداتهم لم يسلم أن هذا الأمر جسيم ما كان قومي ليتفوتوا على بمثل هذا
وما علمته فأنصرفوا عنه

نفر الناس من منى ، وتجمست قريش الخبر فوجدوه قد كان لكن بعد
أن فلتهم الانصار

بعد ذلك أمر الرسول أصحابه بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها واللاحق
بأخوانهم من الانصار ، وقال لهم إن الله عز وجل قد جعل لكم أخواناً
وداراً نأمنون بها فخرجوا إرسالاً رجالاً ونساء إلا من حيل بينهم وبين
الهجرة من المستضعفين

لما رأت قريش أن رسول الله صارت له شيعه ومحباب من غيرهم وغير

يأيدهم ورأت خروج اصحابه من المهاجرين اليهم وعرفوا انه قد اجمع لحربهم فلم يبق الا اخذ الحيلة لذلك

اجتمعوا في دار الندوة يتشاورون في امره وكان بها اشراف قريش وذكرو السن فيهم فقال قائل منهم الراى ان نجبسه في الحديد ونغلق عليه بابا ثم تتربص به ما اصاب اشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله من هذا الموت حتى يصيبه ما اصابهم فقال شيخ فيهم ما هذا ابيكم برأى ان حبستموه ليخرجن امره من وراء الباب الذى اغلقتم دونه الى اصحابه فيوشك ان يثبوا عليكم فينتزعوه من ايديكم ثم يكتروكم به حتى يغلبنكم على امركم : فقال آخر منهم نخرجه من بين اظهرنا فننفيه من بلادنا فاذا خرج عنا فوالله لا نبالي اين ذهب ولا حيث وقع اذا غاب عنا اصاحنا امرنا والفتنا كما كانت : فقال ذلك الشيخ ما هذا لكم برأى ! ! ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه وغلبته على قلوب الرجال بما يأتى به لو فعلتم ذلك ما أنتم أن يحل على حي من العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليكم ثم يسير بهم اليكم حتى يطأكم في بلادكم بهم فيأخذ امركم من ايديكم ، ثم يفعل بكم ما اراد : فقال ابو جهل بن هشام إنلى لرايا فيه ما اراكم وقعتم عليه ، هو ان نختار من كل قبيلة شابا فتى جلدأ نسيبأ وسيطأ فينا ثم نعطي كل فتي منهم سيفأ صارمأ ثم يعمدوا اليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلونه فنستريح منه ، فانهم اذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعا فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا ، فرضوا منا بالعقل فعقلناه لهم ،

فكان رأيهم هذا مقبولا عند جميعهم وانفقوا عليه وعينوا الفتيان والليلة التي
ينفذون فيها ما أرادوا

علم الرسول عليه السلام بهذا الخبر ، وبما أجمع عليه أعداؤه فتوجه الى
صديقه أبي بكر وأخبره أن الله قد أذن له بالهجرة فسأله أبو بكر الصحبة فأجابته
اليها ثم هيا ما يلزم لهذا السفر : را حلتين ودليلا خريتا يأخذ بهما أقرب الطرق
واتعدا أن يكون السير في الليلة التي اتفقت فيها قریش على الفتك به في صبحها ،
وفي تلك الليلة أمر ابن عمه علي بن أبي طالب أن ينام مكانه ويتسجى يردده
لئلا يرتاب أحد في وجوده ببيته وأمره بأن يبقى بمكة حتى يؤدي عنه ودائعهم
وكان كل من عنده شيء يخشى عليه بمكة يضعه عنده

في الليلة التي تجمهر فيها فتيان قریش ليفتكوا به خرج الى بيت أبي بكر ،
وخرجا معا من خوذة لأبي بكر في ظهر بيته ثم عمدا الى غار بجبل ثور وهو
جبل بأسفل مكة فدخلا وكان عبد الله بن أبي بكر يتسمع لهما الأخبار
وما يقال عنهما ثم يأتيهما اذا أمسى بما يكون ذلك اليوم من الخبر وأمر مولاه
عامر بن فهيرة أن يرعى غنمه منهاره ثم يريحها عليهما يأتيهما اذا أمسى في الغار ليعفي
أثر عبد الله بن أبي بكر وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما من الطعام اذا
أمست بما يصلحهما

أصبحت فتيان قریش تنتظر خروج الرسول عليهم وإذا بهم باتوا
يحرسون علي بن أبي طالب لا محمد بن عبد الله ولما علمت بذلك قریش هاجت
وأرسلت الرسل في طلبه من جميع الجهات وجعلوا لمن يأتيهم به حيا او ميتا
مئة ناقة فذهبت تلك الرسل يمينا وشمالا ولكنها عادت بالخبية

اقام الرسول وصاحبه بالغار ثلاثة ايام حتى علما ان قدسكن الطلب فجاءهم
الدليل - حسبما اتفقا معه - بالراحلتين فركباهما واردف ابوبكر خلفه عامر
ابن فهيرة ليخدمهما في الطريق والدليل اسمه عبد الله بن اربقط فسلك بهما الى
الساحل حتى عارض الطريق اسفل من عسفان ثم سلك بهما على اسفل امبح ثم
عارض بهما الطريق بعد ان اجاز قديداً ثم اجاز بهما من مكانه ذلك فسلك بهما
الخرار ثم ثنية المرة ثم القفا ثم مدجلة لقف ثم استبطن بهما مدجلة مجاج ثم سلك
بهما مرجع مجاج ثم تبطن بهما مرجع ذي العصوين ثم بطن ذي كشد ثم اخذ
بهما على الجداجد ثم على الاجرد ثم ذاسلم من بطن اعداء مدجلة تعهن ثم على
العبايد ثم اجاز بهما الفاجة ثم هبط بهما العرج وهي من منازل الجادة بين مكة
والمدينة ثم سلك بهما من العرج إلى ثنية الغائر عن يمين ركوبة حتي هبط بهما
بطن ريم ثم قدم بهما قباء على بنى عمرو بن عوف وذلك يوم الاثنين ثمان
خلت من ربيع الاول لثلاث وخمسين سنة مضت من مولده وهو يوافق
٢٠ سبتمبر سنة ٦٢٢ من ميلاد المسيح عليه السلام

والى هنا انتهى القسم الاول من حياته عليه السلام فنتبعه بفصيلين :
اولهما فى التشريعات المكية والثاني فى آثار هذه المدة



المحاضرة العاشرة

التشريع المكي -

مكث الرسول في مكة من وقت النبوة إلى أن هاجر إلى المدينة اثنتى عشرة سنة وخمسة أشهر و٢١ يوماً إذا اعتبرنا آخر يوم لها هو يوم الوصول إلى قباء أنزل عليه في أثناءها معظم القرآن والذي نزل منه بمكة ثلاث وتسعون سورة والباقي -- وهو اثنتان وعشرون سورة -- نزلت بالمدينة ومنها أكبر سور القرآن وهي (٢) البقرة (٣) آل عمران (٤) النساء (٥) المائدة (٨) الأنفال (٩) التوبة (٢٤) النور (٣٣) الأحزاب (٤٧) القتال (٤٨) الفتح (٤٩) الحجرات (٥٧) الحديد (٥٨) المجادلة (٥٩) الحشر (٦٠) الممتحنة (٦١) الصف (٦٢) الجمعة (٦٣) المنافقون (٦٤) التغابن (٦٥) الطلاق (٦٦) التحريم (١١٠) النصر وما عدا ذلك فهو مكي

وقد اشتمل التشريع المكي على أهم ما جاء الرسول صلى الله عليه وسلم لأجله وبين روحه قوله تعالى في سورة الشورى ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ ثم قال ﴿ فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا واليه المصير ﴾

امتاز التشريع المكّي بما يعبر عنه أبو اسحاق الشاطبي في الموافقات بالتشريع الكلّي ، وانما سماه كذلك لانه لم يتعرض فيه الى تشريع أحكام جزئية خاصة بحال دون حال أو نوع دون نوع ، وكله - من الشرائع الابدية التي لا يخالف فيها دين دينا ومن مصلحة العالم أجمع - فيما مضى وفيما هو آت - ان يكون متبعاً لها منقاداً لما جاء فيها ولذلك أطلق على ملته في القرآن في سورة الحج (ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل) وأعلن انه إنما جاء مصدقاً لمن سبقه من الانبياء وقال له الله عنهم - في سورة الانعام - بعد أن قص عليه اسماءهم (أولئك الذين هداهم الله فبهداهم اقتده) الى غير ذلك وأهم ما جاءت به الآيات المكية هو :

(١) التوحيد ورفض الاوثان والاصنام فلا يكون بين العبد وبين ربه واسطة .

معلوم أن العرب كانت عامتهم تدين بالوثنية الا قليلا منهم فلم يكن بد من مقاومة شديدة للاوثان والاصنام ، وكل ما هو منها بسبيل ، ولذلك رأينا معظم الآيات المكية على هذا النهج تثبت التوحيد وتقيم عليه وتناقش المعارضين وتذم الشرك والاثوان والاصنام وتنعي على المتوسلين بها مذاهبهم تصريحا وتاميحاً : ضربت الامثال بالامم السابقة وما اصابوا به من جراء شركهم بالله وتكذيبهم للانبياء والرسل ، وكررت ذلك تكراراً مؤثراً بأساليب مختلفة : لان أشد ما يفعل في النفوس لاثبات التعاليم فيها إنما هو التكرار مع تنوع الاساليب . واكثر الانبياء ذكراً في آيات الكتاب موسى صلوات الله عليه وما حاور به فرعون مصر من سؤال وجواب

لأتبات الوهية الله وما اتصف به من عظيم الصفات ثم ما كان من شأنه مع قومه حينما كانت تحن أنفسهم الى الوثنية فيتخذون المجل الذهبي معبوداً ثم ما كان من تحذيره أبائهم عن الوقوع في هذا الشر ، وإيعادهم بالشر اذا هم عادوا اليه : وقاموا نرى سورة من السور المكية الكبرى خات من اسمه . ذكر ثم بما كان عليه أبوتهم ابراهيم من كراهة الاوثان وتكسيدها ورفض عبادتها وضرب المثل فقال (وكذا نرى ابراهيم منكوت السموات والارض وليكون من الموقنين فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي ، فلما اقل قال لا احب الا فاني . فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما اقل قال لئن لم يهدينى ربى لا كون من القوم الضالين فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي ، هذا اكبر ! فلما أفلت قال يا قوم انى برىء مما تشركون انى وجهت وجهى للذي فطر السموات والارض حنيفاً وما أنا من المشركين) فترى لهم الامثال بالامم الخالية من عرب وغيرهم كل ذلك للتأثير في هذه النفس التى اثرت حب هذه العبودات الباطلة

وجر ذلك - بالضرورة - الى تحريم كل ماذبح على النصب أو جعل فيه شيء لاهتهم من البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي وغيرها وهذا من باب المقاومة كما حرمت الشريعة ما لم يذكر عليه اسم الله ليكون الانسان منهم على ذكر دائم من رفض الوثن والصنم وهذه حركة مضادة لما كانوا يفعلون ، فانهم كانوا يذبحون باسم أصنامهم فامروا أن يذبحوا باسم الله حتى ينسوا تماماً ما كانوا عليه ، ومن هنا جاءت الشريعة طالبة بمد ذلك أن جميع الافعال التى يشرع فيها الانسان لا بد أن تفعل باسم الله لا باسم غيره ومن العبودات

ومن هنا أيضاً أقفلت الشريعة عليهم باب التصوير والتمثيل لأن الأمر كما علمتم - يحتاج الى مقاومة شديدة فإن النفس المتشعبة بالشئ الذي نهيت عنه لا يؤمن أن تعود اليه متى ظهر امامها فلها اذ ذاك تحن اليه . المحركة النفسية مداخل غريبة ولذلك قال علماء الاخلاق اذا أهملك ان تنزع نفس عن شئ تعودته وأنست به فأخفه عنها فان رؤيتها له مرة واحدة تدرك معالم الاوامر والنواهي وتحدث مقاومة شديدة لما قسرت عليه النفس من اتباع الاوامر : مثلوا أمام نظركم حالة شارب الدخان اذا أمره الطبيب بتركه واقتنع بأن التدخين غير مفيد فتركه ثم رأى سيجارة بيد غيره يدخن بها لاشك أنه يحس بحركة في نفسه تذكره بذلك الألف القديم فيحتاج عند ذلك الى عزيمة قوية يغالب بها ذلك الحنين ، ولا ينسى الأمر بتاتاً الا بعد مرور زمن طويل والأمثلة على ذلك كثيرة فخاية لهذا الضعف الانساني كرهت التصاوير والتمثيل من باب الاحتياط وسد الذرائع . ولذلك لما رأى عمر بن الخطاب بعض المسلمين يتبرك بالشجرة التي بايع عندها رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه في الحديبية أمر لجال بقطعها واعفاء أثرها

(٢) اثبات يوم آخر يجازى فيه كل أمرىء بعمله أن خيراً نفيراً وان شراً فشرأ ، وقد نصت الآيات المكية على ذلك كثيراً محذرة من شره مرغبة في خيره وكررته تكراراً عظيماً يقرب مما كان في أمر التوحيد والاثان ونصت على أن العدل سيجرى مجراه بعد أن توزن أعمال الانسان فمن غلب خيره شره فاز ومن غلبت شروره خباب اذ لا يمكن أن يعقل في الوجود الانساني من هو خير محض أو من هو شر محض والموازنة بين

أعمال الخير وأعمال الشر بحسب ما كانت تتيجتها في الناس
وقد وصف القرآن دار الجزاء وما فيها من خير وشر أوصافاً ترغيب
وتخيف وكرر ذلك في مواطن كثيرة منه

لم يجعل اليأس يتسرب الى النفس الانسانية بما اجتزمته من الخطايا ولا
الآمال الكاذبة تستولى عليها فتطالب النجاة من غير وجهها بل جعل عمل
الخير والشر عنواناً على ما يناله صاحبه معها دق (ولا يظلم ربك أحداً) (فمن
يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) أخاف اصحاب
الشر وفتح امامهم باب الرجوع الى فعل الخير واخبرهم أن الحسنة اذا تلت
السيئة محتها . والذي يفهم من القرآن أن الحسنات المؤثرة في محو السيئات انما
هي العملية

(٣) بين لهم الخصال التي تقرب الى الله والتي تبعد منه ومعظمها يرجع
الى الاخلاق والمعاملات في معاملة الناس بعضهم مع بعض : يقول في سورة
الشورى (وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله) ثم يقول
(ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ، إنما السبيل على الذين
يظلمون الناس ويبغون في الارض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم ولمن
صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الامور)

ويقول في سورة الاعراف (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن
الجاهلين) ويقول في الشورى (وأمرت لأعدل بينكم) ويقول فيها (قل
لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى ومن يقترف حسنة نزد له فيها
حسناً إن الله غفور شكور) وقال في سورة فصلت (ولا تستوى الحسنة

ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم)
جمع لهم في سورة الاسراء وصايا جميلة بابدع أسلوب وأشده تأثيراً فيروونه
يتلى كل وصية بفائدتها إقرأوا — إن شئتم — من قول الكتاب وقضى ربك
أن لا تعبدوا إلا إياه ، الى قوله ذلك مما أوحى اليك ربك من الحكمة ، وصف
عباد الرحمن في سورة الفرقان بصفات يطلب منهم أن لا يتعدوها لتكون
لهم صفة عباد الرحمن وصدرها (وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هوناً
وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً) ، الى آخر السورة ، واستقصاء ذلك
يستدعى وقتاً طويلاً وإنما نحن نشير الى ذلك ونطلب منكم مراجعته . ولا
تجعلوا بينكم وبينه سداً من الاوهام حتى تعلموا اجم كانت يوصيهم وكيف
كانوا يجيبونه ؟ ؟ فانه لا شيء أدل على سيرته وآدابه وتعاليمه من الكتاب الذي
أنزل الله عليه

(٤) عبادات عمالية تربطهم بالله وتوجههم نحو الخير ، والبداني منها هو
الصلاة فقد ورد الامر بأدائها في كثير من الآيات التنكية وقد علمه الوحي
كيف يؤديها — كما ورد في الاخبار الصحيحة — والصلاة وخلقها هي التي
فصلت تمام التفصيل بحكمة . وتفصيلها إنما كان عملياً لأن آيات الكتاب
لم تبين بصراحة أجزاءها ولا أوقاتها وإنما أخذت منها بطريق الإشارة وقد
نقلت نقلاً عملياً . وقد وصف القرآن تلك الصلاة التي أمر بها بأنها تنهي
عن الفحشاء والمنكر واعتبر في سورة الماعون بمن يستحقون الويل (الذين
هم يراؤون) وقد اختلف المؤرخون في الوقت الذي فرضت فيه الصلاة ؛
فقال بعضهم انها فرضت ليلة الاسراء حينما عرج برسول الله الى السماء الاعلى

وقال آخرون بل قبل ذلك

ونحن نقول كلمة عن الاسراء والمعراج ثم تتبعها بما يظهر لنا . الاسراء مصدر اسرى يقال أسرى به أى جعله يسرى : والسرى هو السير ليلاً ، ويراد به — في لسان المحدثين — تلك السياحة الليلية التي وصل فيها رسول الله من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى ليريه الله من آياته والمعراج مأخوذ من الخروج وهو الصعود ، والمعراج أداته يعنى السلم المعدله ويراد به صعود رسول الله الى الملا الاعلى

الاسراء ورد ذكره في الكتاب في أول سورة سميت باسمه قال تعالى سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا) وقد اتفق المؤرخون على وقوع الحادثته ورسول الله بمكة لان السبورة مكية ولـسكنهم لم يعينوا ولا يالظنط وإن رسول الله اخبر بها قومه في صبح تلك الليلة فكانت مشاراً لعجيبهم بسبب انهم وصدق بها المؤمنون وفي مقدمتهم ابو بكر الذى سمي في ذلك اليوم بالصديق وكذب بها النشركون وبعض الضعفاء المفتونين من المسلمين حتى ان بعضهم انكذبوا واختلف المتكلمون في امراء الاسراء : فروى عن معاوية بن ابي سفيان أن الاسراء كان رؤيا صادقة رآها رسول الله ﷺ : وروى عن عائشة ان الاسراء انما كان بروحه لان جسمة لم يزل من مكانه ونرى ان نتيجة القولين واحدة — لان الاسراء بالروح ليس معناه أن الجسم قد مات اذ لم يقل بهـذا القول احد لا عائشة ولا غيرها ، وانما تلك الروح الطاهرة أطلعها الله في حالة النوم على شىء من الآيات التي هي في جهات بعيدة عن

موطنها ، والرؤيا — كما قدمنا — نوح من الوحي الانبياء ويستدل أصحاب
هذا الرأي بقوله تعالى في السورة نفسها (وما جعلنا الرؤيا التي أرينا الا فتنة
للناس) وقد قال الحسن البصري راوى حديث الاسراء فانزل في ذلك قوله
تعالى وما جعلنا الرؤيا النخ

وجمهور المسلمين على أن الاسراء كان بجسمه ويستدلون على رأيهم بأن
الاسراء لو كان رؤية ما كان هناك داع لاستغراب المشركين وضعفاء المسلمين
لانه ما الذى يستبعد من اطلاع انسان على أقصى ما فى الارض فى رؤيا يراها
بعض المؤرخين يميلون الى رأى عائشة ومعاوية ، لا لانهم يحيلون أن
يقع الانبياء أمر خارق للعادة ، بل لانهم لا يتمسكون من هذه الخوارق
إلا بما شاهده رواته عيانا وصرحوا بمشاهدته فى رواياتهم ووصل اليهم من
طرق مأمونة الخطأ أو صرح به الكتاب : قالوا إن إقدام عائشة ومعاوية على
القول بأن الاسراء كان رؤيا صادقة يدل على أن هذا القول لم يكن بدعا فى
زمانهما لانه لم ينقل اليها التاريخ ان أحدا قام فى وجههما رداً عليهما رأيهما ،
بل بالعكس رأينا ابن اسحق يقول فلم ينكر ذلك من قولهما القول الحسن
فأنزل الله فى ذلك (وما جعلنا الرؤيا النخ) . وعائشة زوج الرسول (وإن لم
تكن كذلك حين وقوع الحادثة) أدرك الناس بما كان من حوادثه التى
أكرمهم الله بها فمن البعيد أن تكون أقدمت على هذا القول من غير توقيف
منه ، والمعروف عنها أنها كانت تسأله عن مشكلات القرآن فيفسرها لها .
ومعاوية كان خليفة المسلمين فيبعد أن يظهر برأى يتفق على خلافه جمهور
أمتهم خصوصاً فى مثل هذه الحادثة الكبرى ثم لا يقوم فى وجهه الصحابة

معارضين على حين انهم كانوا يردون عليه القول رداً شديداً في أيسر الامور فكيف بهذا الامر الجليل. لما رجع هؤلاء المؤرخون الى الكتاب في أمر هذه الحادثة وجدوه يقول « سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا » والمتفق عليه أن المراد بعبده محمد صلى الله عليه وسلم وإطلاع الله نبيه في نومه على ما يريد إطلاعه عليه لا يختلف شيئاً عن إطلاعه إياه في يقظته لان رؤيا الانبياء حق - تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم فلا يمنع هؤلاء من رأيهم اضافة الاسراء الى عبده ، والروح اذا جلى لها المسجد الأقصى تتمكن من رؤيته ومعرفة تفاصيله ومشاهدة آيات الله وعجائبه أكثر من الرؤية العينية ليلاً

أما استغراب المشركين فامرهم ظاهراً لأنهم قوم معاندون يريدون اظهار رسول الله امام الناس بما ينفرهم فيكفي - لان يجدوا فرصة لذلك - أن يسمعوا منه عليه السلام أسرى في الليلة الى بيت المقدس ، وعند ذلك يكبرون في أنفس الناس قوله ، وقد كان يقول بعضهم لبعض - كما جاء في الكتاب - (لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون)

قال ابن اسحاق بعد ان ذكر القولين والله أعلم أي ذلك كان قد جاء وعين فيه ما عين - من أمر الله على أي حاله - نائماً أو يقظان - كل ذلك حق وصدق اه

أما المعراج فلم يرد ذكره في القرآن صريحاً ولكن تضافرت به الاخبار ورواه جمع من الصحابة وأخرجته كتب الصحاح ولكن هذه الروايات لم تتفق في شرح حوادثه لذلك قال بعض المحدثين أنه حصل جملة مرات منها المرة التي

كانت ليلة الاسراء وأصحاب الاسراء الروحي يقولون بالمعراج الروحي والجمهور يقولون إنه بجسمه وأكثر من فصل أحاديث الاسراء والمعراج أحمد بن محمد القسطلاني في كتابه المسمى بالمواهب اللدنية فقد كتب فيها نحواً من ٤٥ صفحة فليراجعها من أحب زيادة التوسع ، ودافع محمد بن جرير الطبري في تفسيره عن رأى من يقول بالاسراء الجسمي

لما كان كثير من المحدثين يرون أن الصلاة فصلت ليلة المعراج لزوم أن يكون في أوائل البعثة وقد أغرب بعض الرواة فجعله قبل أن يوحى اليه ولكنهم لم يعولوا على هذه الرواية وقد جعله ابن إسحاق بعد فشو الاسلام بمكة في قريش وفي القبائل كلها ولكنه سرد تاريخه قبل أن يذكر وفاة عمه أبي طالب. ويلزم من ذلك أن الرسول وأصحابه لم يكونوا في أول الامر يصلون الصلوات الخمس، وإنما كانوا يصلون صلوات أخرى - وبذلك قال جمع من المحدثين وخلاصة القول أن الصلاة فرضت على المسلمين من أول الدعوة وبعد ذلك بزمن لم يحدد تماماً فرضت الصلوات الخمس فعلمه الوحي أعداد ركعاتها وأوقاتها والشكل الذي تفعل به : مما فرض بمكة الزكاة فأنا قلما نجد من الاوامر الملكية ذكر الصلاة الا وبجانبه إيتاء الزكاة وطلبت زكاة ما يخرج من الارض في سورة الانعام (وآتوا حقه يوم حصاده) الآن هذه الحقوق الواجبة لم تفصل بمكة فقد كان ذلك موكولاً لما في النفوس من الجود وبحسب حاجة الناس ومما يلفت النظر إلى الآيات الملكية أن قارئها يحس فيها بأمر مدهش ذلك أن الرسول صلى عليه الله وسلم كان بمكة مضطهداً في حاجة إلى من يدفع عنه أذى أعدائه الذين وقفوا في سبيل دعوته في ذلك الحين كانت الآيات الملكية

تبلغ له من الله على غاية من الشدة مما يدل على أن الرسول كان على يقين من الله تام بأن العاقبة له وهو مرة يهان من قومه الذين تماثلوا عليه ومرة يرد أقبح رد من العرب الذين يردون الموسم ، وهما نحن أولاء نمثل أمامكم تلك الشدة بما نتلوه عليكم من الآيات « ١ » ولتعاين نبأه بعد حين « ٢ » إنا لننصر رسالنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد « ٣ » سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق « ٤ » أ كفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر ؟ أم يقولون نحن جميع منتصر ؟ ! سيهزم الجمع ويولون الدبر « ٥ » ولو ترى إذ فرعوا فلا فرت وأخذوا من مكان قريب « ٦ » قل رب إني ما نرى ما يوعدون رب فلا تجعلني في القوم الظالمين « ٧ » فقد كذبوا فسياأتهم أنباء ما كانوا به يستهزئون « ٨ » قل الحمد لله سيريك آياته فتعرفونها (٩) فاكبر إن وعد الله حق ولا يستخفناك الذين لا يوقنون (١٠) وإنذرنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون (١١) فأعرض عنهم وإن انتظر إنا منتظرون (١٢) فارتقب إنهم مرتقبون الى غير ذلك من الآيات الشديدة الوقع^١ وظهر نبؤها بعد حين

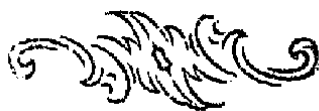
كان يفعل الامر ويرغب به استمالة عظمائهم لما كان عليه من الرأفة^٢ و ارادة الخير لهم ويكون من نتائجه أن صغيرا من المسلمين أعرض عنه فيجيئه الوحي مشتد^٣ا ومنبها كما حصل في حادثة عبد الله بن مكتوم الاعشى فقد

(١) سورة ص (٢) سورة غافر (٣) سورة فصّات (٤) القمر
(٥) سبأ (٦) المؤمن (٧) الشعراء (٨) المل (٩) الروم
(١٠) السجدة (١١) السجدة (١٢) الدخان

حدث أن الرسول قابل جمعا من هؤلاء العظماء فتلا عليهم القرآن ورجا أن
تلين قلوبهم لما يدعوهم اليه ؛ فجاءه ابن أم مكتوم وقال يا رسول الله عامي مما
عامك الله فعبس رسول الله وأعرض عنه طمعا في أولئك العظماء ، فجاءه الوحي
بقول الله (عيسى وتولى أن جاءه الاعمي وما يدريك لعله يزكي أو يذكر
فتنفعه الذكري ! أما من استغنى فأنت له تصدى ! وما عليك أن لا يزكي ؟
وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تاهي) وهذه شدة أدبه الله بها
كما قال : أدبني ربي فاحسن تأديبي

(هـ) مما شرع في آخر أيامه بمكة الأذن له بالقتال

ولما كان هذا النوع من المشروعات يستدعي عناية كبرى في بحثه أردنا
أن نقول كلمة فيه غير مقتصرين على ما شرع بمكة لأن الموضوع يلزم أن يأخذ
بموضوعه بعض حتى لا يتجزأ فتضيع الفائدة : وببحثنا قاصر على الجهة
التاريخية ، ولذلك تقتصر على ما جاء من أوامر القرآن وسنتبعه بما كان من
التنفيذ الفعلي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونترك للفقهاء ما امتازوا به من
دقة الاستنباط لأن ذلك ليس من عملنا



المحاضرة الحادية عشر

أسباب شرعية القتال — الموائيق والعهود — أسرى الحرب —

الاسترقاق — لم شرع القتال — ؟

بين الكتاب في مواضع منه السبب الذي من أجله أذن المؤمن بالقتال وذلك يرجع الى أمرين (الاول) الدفاع عن النفس عند التعدي ، الثاني: الدفاع عن الدعوة إذا وقف أحد في سبيلها بفتنة من آمن أى باختباره بأنواع التعذيب حتى يرجع عما اختاره لنفسه ديناً أو بصد من أراد الدخول في الاسلام عنه أو بمنع الداعى من تبليغ دعوته وهذه هي المواضع التي جاء فيها ذلك الموضوع من القرآن

الموضع الاول — جاء في سورة الحج ، وهو أول ما أنزل في أمر القتال (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ! ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ، الذين ان مكناهم في الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمرؤا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الامور)

بينت هذه الآية ان القتال اذن فيه للمسلمين ثم اعقبته ببيان السبب وهو انهم ظلموا وأخرجوا من ديارهم بغير حق الا قولهم ربنا الله يعنى أنهم لم

يظالموا من أهل مكة إلا بسبب اعتقادهم وهذا بمثابة التفسير لآية الشورى
ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل إنما السبيل على الذين يظالمون
الناس ويبغون في الأرض بغير الحق - ثم بينت أنه لو لا دفع الله الناس بعضهم
ببعض لهدمت أماكن العبادة على اختلاف أشكالها ونسبها فلا يكون لله
في الأرض ذكر . ثم وصفت المؤمنين الذين أذن لهم بالقتال بأوصاف هي في
الحقيقة تنبيه لهم إلى ما يجب أن يفعلوه إذا هم انتصروا على من ظلموهم وذلك
أنهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر
الموضع الثاني - قوله في سورة البقرة المدنية (وقاتلوا في سبيل الله
الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين واقتلوهم حيث تقفتموهم
وأخرجوهم من حيث أخرجوكم - والفتنة أشد من القتل - ولا تقاتلوهم عند
المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين فإن
انتهوا فإن الله غفور رحيم ، وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله
- فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين - الشهر الحرام بالشهر الحرام ،
والحرمات قصاص ، فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم
واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين)

بينت هذه الآية سبب القتال حيث وصفت من أمر المسامون بقتالهم
بالبالذين يقاتلونكم وأخرجوكم من دياركم وفتنوكم في دينكم بما فعلوا من
الاذى والظلم وجعلت لهذا القتال غاية وهي أن لا تكون فتنة ويكون الدين
لله بأن يكون الإنسان حراً في دينه لا يدين به إلا الله لا خوفاً ولا طمعاً وقد
بين الكتاب أن الفتنة أشد من القتل لأنها اعتداء على العقيدة والوجدان

وذلك شر ما يكون من بني الانسان : نهت الايات عن الاعتداء وأعلنت ان الله يفض المعتدين ، وهم الذين يبدأون غيرهم بالشر ، ويثبت أن الجزاء عند الاعتداء لا ينبغي ان يتجاوز به مافعله البادى بالعدوان (فمن اعتدى عليكم فاعمدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله)

الموضع الثالث - قوله في سورة النساء المدنية « وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيراً » بينت هذه الآية سببين للحث على القتال وهما (أولاً) سبيل الله : وقد بينته آية البقرة وهو الغاية التي يسعى اليها الدين أن لا تكون فتنة ويكون الدين لله (ثانياً) سبيل المستضعفين الذين كانوا مساكين بمكة وحيل بينهم وبين الهجرة فعذبته قريش وفتنتهم حتى تضرعوا الى الله طالبين منه الخلاص ، فهو لاء لا بد لهم من حماية ترفع عنهم أذى الظالمين وتنبيلهم الحرية فيما يدينون وما يعتقدون

الموضع الرابع - قال عن قوم مشركين لم يحبوا ان يقاتلوا قومهم ولا أن يقاتلوا المساكين فاعتزلوا الفتن جانباً (فان اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا اليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً) على شرط أن يكون ميلهم الى السلام حقيقياً لا ذبذبة عندهم فان كانوا كذلك فقد شرح حالهم بقوله (ستجدون آخرين يريدون ان يأمنوكم ويأمنوا قومهم كلما ردوا الى الفتنة أو كسوا فيها فان لم يفتزلوكم ويلقوا اليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقتهموهم وأولئك جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً)

بينت هذه الايات ان لاسبيل للمؤمنين على من اعتزل الفتنة وترك القتال وألقى إليهم السلام

. الموضع الخامس - قال في سورة الانفال (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فان انتهوا فان الله بما يعملون بصير) وهذه تؤدي مآدته آية البقرة

الموضع السادس - قال في السورة السابقة (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم وان يريدوا أن يخذلوك فان حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم)

بينت هذه الآية أنه مأمور بالجنوح إلى السلم متى جنح أعداؤه لها لان الغرض هو تأمين الدعوة وأن لا تكون فتنة والسلام كفيل بهما ولو كان الجانحون إلى السلم يريدون به الخداع

الموضع السابع - قال في سورة التوبة المدنية (وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر انهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون ، ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدأوكم أول مرة ؟ أتخشونهم ؟ فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين)

بينت هذه الآية - يبدأ لا يخرج عما تقدم وهو نكث العهد والعود إلى الطعن في الدين بالفتنة وذكرت مخاطبين بأنهم بدأوا بالقتال أول مرة فهم المعتدون أولا والناكثون عهدهم آخرأ وأنتم قد أيسح لكم مجازاة من اعتدى عليكم

كان اليهود قد ماثوا قريشاً والمنافقين على المسلمين وأخافوا المسلمين في

غزوة الاحزاب حتى زلزلوا زلزالاً شديداً بعد أن كانت بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم عهود مكتوبة فنقضوها وأخلوا بما تقضى به تلك العهود فأمر المسلمين بقتالهم كما جاء في سورة التوبة (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون)

كان أمر القتال أولاً قاصراً على قريش ومن يماثلهم من يهود المدينة فلما اتحد معهم قبائل الجزيرة من العرب قال الكتاب (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) فالعلة في هذا الأمر بينها الكتاب نصاً وهي اتحادهم على المسلمين ووقوفهم في سبيل الدعوة

هذا ماورد في الكتاب خاصاً بأمر القتال ، وكلاه يعلن أن القتال لم يشرع إلا دفاعاً عن أنفسهم : وتأميناً للدعوة من أن تقف الفتنة في طريقها واعلم أنه لم يجيء معتدياً بنهيه عن الاعتداء وأنه يجنح الى سلم من سلمه

ومما يؤيد تلك الروح السامية ويوضحها ما جاء في سورة الممتحنة (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم إن الله يحب المقسطين) إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك الظالمون)

العهود والمواثيق

مما اعتنى به الكتاب عناية شديدة أمر العهود والمواثيق وكرهه الاخلال بها ، وقد نص على ذلك نصوصاً مؤكدة فمنها عام ومنها خاص فمن العام : قول

الكتاب في أول سورة المائدة «يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود» وقوله في سورة الاسراء ﴿وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا﴾ وقوله في سورة النحل ﴿وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعدتوكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون﴾ ولا تكونوا كالتى نقضت غزوها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة﴾

وأما الخاصة

فمنها قوله تعالى في سورة براءة بعد أن أعلن البراءة من المشركين ﴿إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين﴾ وقال في السورة نفسها بعد ذلك ﴿إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين﴾ وهذا يدل على أن البراءة إنما كانت من مشركين أخلوا بعهدهم، أو ظهرت عليهم دلائل الخيانة لأن أول السورة ﴿براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين﴾ ثم استثنى منهم هؤلاء الذين ذكروهم وهذا تنفيذ لما ورد في سورة الانفال ﴿وأما تخافن من قوم خيانة فأنبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين﴾ والخوف إنما يكون بعد ظهور ما يدل عليه من أعمال العدوان لأن من لم ينقص من هذه ولم يظاهر عدواً والمستقيم على عهده لا سبيل عليهم بالنص

ومنها أنه لما حضهم في سورة النساء على وجوب إبعاد المنافقين الذين يشتغلون سراً ضدهم قال (إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم

ميثاق) وهذا نص على وجوب احترام أرض ذوي الميثاق وأنها تحمي
الواصل اليها

ومنها أنه جعل في سورة النساء قتل رجل خطأ من قوم له ميثاق
موجباً لما يوجبه قتل مسلم خطأ فقال (وان كان - المقتول خطأ - من قوم
بينكم وبينهم ميثاق فدية مسامة الى أهله وتحرير رقبة مؤمنة) وهذا بعينه هو
الذي أوجبه في قتل مسلم خطأ (ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة
ودية مسامة الى أهله الا أن يصدقوا) وجعل الدية الواجبة في قتل المؤمن من
قوم أعداء أقل من ذلك فقال (فان كان من قوم عدو لكم وهم مؤمن فتحرير
رقبة مؤمنة)

ومنها أنه قال عن مؤمنين بأرض العدو لم يهاجروا منها (وان استنصروكم
في الدين فعليكم النصر الا على قوم بينكم وبينهم ميثاق) فجعل حق الميثاق
فوق كل حق

لم يجعل للسلم أمداً بل ذكره مطلقاً في قوله « وان جنحوا للسلم فاجنح
لها وتوكل على الله »

أسرى الحرب

بين الكتاب حكم الأسرى بصراحة بقوله في سورة القتال « حتى اذا
أثخنتموهم فشدوا الوثاق فاما من بعد واما فداء حتى تضع الحرب أوزارها »
فجعل ماخير فيه أولياء الأمور المن وهو العفو والارسال من غير شيء والفداء
وهو أخذ العوض ولم نر في الكتاب غيرهما

وأنا ملزم الآن أن أقول كلمة عما جاء في القرآن في امر الرقيق

كان الرقيق موجوداً بأيدي العرب حين جاء القرآن فأقرهم على ما كان بأيديهم ، فقد قال في سورة المؤمنين المكية « والذين هم لفروجهم حافظون الا على ازواجهم أو مملكت ايمانهم فانهم غير ملومين » وقال مثل ذلك في سورة المعارج المكية أيضاً أى قبل أن يحصل من المسلمين أى حرب أو قتال وقال في سورة النساء المدنية « فان خفتهم ان لا تعدلوا فواحدة أو مملكت ايمانكم » ثم رغبهم ترغيباً شديداً في تحرير الرقاب وازالة الرق عنها بطرق ثلاث

الاولى - انه جعله في سورة البلاء المكية من اول الواجبات على الانسان اذا اراد ان يشكر الله على نعمه فقال ممتناً على الانسان « الم نجعل له عينين ولساناً وشفقتين وهدينا له النجدين ، فلا اقتحم العقبة وما ادراك ما العقبة فك رقبة او اطعام في يوم ذي مسغبة يتيماً ذا مقربة او مسكيناً ذا متربة ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالرحمة ، اولئك اصحاب الميمنة » فجعل فك الرقبة في مقدمة الخصال التي بها يقوم الانسان بشكر نعم الله المتتالية .

الثانية - انه لما بين مصارف الزكاة جعل للرقاب سهماً من ثمانية يعنى ان الامام الذى يأخذ الزكاة من المسلمين يجعل ثمنها في فك الرقاب

الثالثة - انه جعل تحرير الرقاب في مقدمة كفارات كثيرة عن جرائم تجترم فقال في كفارة القتل الخطأ « ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة » وقال في كفارة الظهار « والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل ان يتماسا » وقال في كفارة اليمين « فكفارته

اطعام عشرة مساكين من اوسط ما تطعمون اهليكم او كسوتهم » او تحرير رقبة « ذلك كله فضلا عن الترغيب الكثير من صاحب الشريعة في تحرير الرقاب والوصايا المتكررة برحمة ما كان في ايديهم منها

هذا ما احببنا أن نورده على أسماءكم من المبادئ التي سار عليها الكتاب غير متعرضين للاستنباط الدقيق الذي امتاز به فقهاؤنا رحمهم الله لان ذلك علماء هم أدري به منا ومركزاً غير مركزنا التاريخي الذي يقضي علينا أن نقف عند حد لا يسمح للمؤرخ بتجاوزه

حياة المدينة

لما وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم الى قباء أقام بها أربعة أيام من يوم الاثنين الى يوم الجمعة ١٢ ربيع الاول (٢٤ سبتمبر سنة ٦٢٢) أسس فيها مسجد قباء وفي ذلك اليوم سار الى المدينة يحف به الانصار وصلى الجمعة بمسجد في بطن وادي رانوءاء في منتصف الطريق بين قباء والمدينة ثم سار على راحلته وكلمها مر على قبيلة من قبائليهم ناداه رئيسها هلم الينا يا رسول الله أقم عندنا في العدد والعدة والمنعة فكان يقول لهم خلوا سبيلها فلها مأمورة (لناقة) حتى اذا أتت دار بني مالك بن النجار بركت محل باب مسجده فلم ينزل ثم وثبت وسارت غير بعيد، ثم عادت الى مبركها الاول فبركت فيه ووضعت جرائنها فنزل عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ههنا المنزل ان شاء الله فآخذ رحله أبو أيوب خالد بن زيد فوضعه في بيته ثم سأل عن المريد الذي بركت الناقة فيه؟ فقال له معاذ بن عفراء هو يا رسول الله لسهل وسهيل ابني عمرو وهما يتيمان لي

وسأرضيهما منه^(١) فاتخذته مسجداً فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبني مسجداً ونزل على أبي أيوب حتى بنى مسجده ومساكنه ، فانتقل من بيت أبي أيوب إليها

ثم تلاحق المهاجرون فلم يبق بمكة منهم أحد الا مفتون أو محبوس أما المدينة فعم أهلها الاسلام الا قليلا منهم

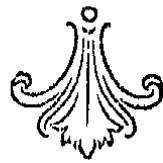
ومن أول الاعمال التي عملها عليه السلام أنه كتب كتابا بين المهاجرين والانصار وادع فيه اليهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم واشترط لهم وقد جاء فيه « وان من تبعنا من يهود فان له النصر والاسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم » وفيه وان اليهود يتفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين وان يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم والمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم الا من ظلم فانه لا يوقع الا نفسه واهل بيته : وهكذا قال عن غير يهود بني عوف وفيه وان على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وان بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وان الجار كالنفس غير مضار ولا آثم وانه لا تجار حرمة الا باذن أهلها وانه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث واشتجار يخاف فسادة فان مرده الى الله عز وجل والى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وان الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره وانه لا تجار قریش

(١) روى من طريق آخر أنه قال يا بني النجار ثامنوني بحائطكم فقالوا لا والله لا نطالب ثمة الا الى الله . و يروى انه الى الا بالنن والذي اخترناه هو رواية ابن اسحاق وهي توافق رواية مسلم وبعض روايات صحيح البخاري

ولا من نصرها وان بينهم النصر على من دهم يشرب واذا دعوا الى صالح
يصالحونه ويلبسونه فانهم يصالحونه ويلبسونه

سم آخي بين المهاجرين والانصار فكان يأخذ بيدي المهاجري والانصاري
ويقول تأخوا في الله أخوين

وبعد ان تم ذلك بدأت الاعمال العظيمة التي كان لها اكبر النتائج
والكيلا يكون هناك تشويش في التاريخ قسمنا أعمال المدينة الى ثلاثة أقسام
نذكرها غير مختلطة : الأعمال الحربية — التشريع — الاخلاق التي
ساس بها أمته



المحاضرة الثانية عشر

ودان - بواط - العشيرة - بدر الكبرى - بنى قينقاع

الاعمال الحربية

كانت قريش أمة معادية آذت المسلمين وأخرجتهم من ديارهم بعد أن فعلت بهم الافاعيل واستولى مشركو مكة على ما تركه المسلمون فيها بعد أن بارحوا أوطانهم مرغمين فكان ذلك داعياً إلى أن يصادر عليه السلام تجارتهم التي يذهبون بها الى الشام والتي يجلبونها منه فبعد أن أقام بالمدينة اثني عشر شهراً خرج في صفر من السنة الثانية الى ودان (١)

وكان يريد قريشاً وبنى ضمرة من كنانة فوادعته بنو ضمرة ، ثم رجع ولم يلق كيذاً : أقام بالمدينة بقية صفر وصدرًا من ربيع الاول . وفي مقامه هذا بالمدينة بعث عبيدة بن الحارث في ستين راكباً من المهاجرين حتى وصل ماء بالحجاز أسفل ثنية (٢) المسرة فلقى بها جمعاً من قريش ، فلم يكن بين الفريقين قتال : ثم انصرف القوم عن القوم وللمسلمين حامية . وبعث في هذه

(١) سمي المؤرخون ما خرج فيه النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه غزوة حارب فيها ام لم يحارب وما خرج فيه أحد قاداته سرية وودان من ناحية الفرع بينها وبين الأبواء ثمانية أميال قريبة من الجحفة التي هي على اربع مراحل من مكة وست من المدينة (٢) ثنية في شمال قديد من بادية مكة

المدة حمزة بن عبد المطلب إلى سيف البحر من ناحية العيص (١) في ثلاثين ركباً فلقني أبا جهل بن هشام في ذلك الساحل في ٣٠٠ ركب من أهل مكة فحجز بين الفريقين مجدي بن عمرو الجهني وكان موادعاً للفريقين فانصرف بعض القوم عن بعض

بواط (١)

ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في شهر ربيع الأول يريد قريشاً حتى بلغ بواط من ناحية رضوى ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً فأقام بها إلى جمادى الأولى

العشيرة (٢)

في جمادى الأولى خرج حتى نزل العشيرة من بطن ينبع فأقام بها جمادى الأولى وليالى من جمادى الثانية ووادع فيها بني مدلج وحلفاءهم من بني ضمرة ثم عاد إلى المدينة ولم يلق كيداً : وفي مقامه بالعشيرة بعث سعد بن أبي وقاص في ثمانية رهط من المهاجرين فخرج حتى بلغ الخرار (٣) من أرض الحجاز ثم رجع ولم يلق كيداً

سفوان

أقام عليه السلام بالمدينة قليلاً بعد قدومه من العشيرة فعلم أن كرو

-
- (١) مكان على ساحل البحر بطريق قريش التي كانوا يأخذون منها إلى الشام
(٢) موضع قرب جبل رضوى : ورضوى على مسيرة يوم من ينبع . ومن المدينة على سبع مراحل وهناك طريق يختصره العرب إلى الشام (٤) واد قريب من ينبع
(٣) واد بالقرب من مكة قريباً من قديد

ابن جابر الفهري أغار على سرح المدينة فخرج في طلبه حتى بلغ وادياً يقال له سفوان (١) من ناحية بدر فلم يدركه فعاد إلى المدينة وأقام بها إلى رمضان وفي مقامه هذا أرسل عبد الله بن جحش - ومعه ثمانية رهط من المهاجرين - بأمر غير مفتوح - وأمره أن يفتحه بعد أن يسير يومين ولما فتحه وجد فيه (إذا نظرت كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم) ففضى وسلك الحجاز حتى إذا كان بنخلة مرت به غير لقريش فيها عمرو بن الحضرمي حليف لقريش فأتمر بهاء عبد الله هو ومن معه (ولم يكن هذا ما بعثوا له) وصمموا على أخذها وكان ذلك آخر يوم من رجب فلم يخفوا باليوم الحرام فرمى أحدهم عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله ، واستأثر اثنان وهرب رابعهم فأخذوا العير والاسيرين وقدموا بهما إلى المدينة فاما رأيهم الرسول وعلم بما فعلوا استاء منهم ! وقال ما أمرتكم بقتال في الأشهر الحرم ووقف العير والاسيرين فقط في أيدي القوم وعنفهم المسلمون بما صنعوا ! وقالت قريش قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام وسفكوا الدم الحرام وأخذوا فيه الاموال وأسروا الرجال

ولما كثر الكلام في ذلك جاءه الوحي بقول الله (يسألونك عن الشهر الحرام قتال ؟ فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا) يعني إن كنتم قتلتم في

الشهر الحرام فقد فعلوا ما هو أشنع . صدوا عن سبيل الله وكفروا به وبالمسجد الحرام وأخرجوكم منه وأنتم أهلها وفتنوا الناس في دينهم والفتنة أكبر من القتل . ثم هم مقيمون على أشد من ذلك وأعظم غير تائبين ولا هائبين . وفي هذا قطع لاعتراضاتهم لأن المتأبسين بكثير من الشرور ليس له أن يكسر الكلام في زلة قد ارتكب هو أشنع منها . ولما نزل القرآن بهذا الأمر وفرج الله عن المسلمين ما كانوا فيه من الخوف قبض عليه السلام العير والأسيرين ثم ردهما بعد إلى قريش بعد أن دفعوا فديتهما بدر الكبرى

خرجت عير من مكة يقدمها أبو سفيان بن حرب ومعه ثلاثون أو أربعون رجلاً من قريش فذهبت إلى الشام وباعت وابتاعت وحيثما عادت العير علم بها الرسول ، فندب إليها أصحابه ، وقال هذه عير قريش فاخرجوا إليها فعمل الله أن ينفلكموها فانتدب الناس نخف بمضهم وثقل آخرون لأنهم لم يكونوا يظنون أن الرسول يلقى حرباً وكانت عدة من خرج معه

٣١٤ رجلاً من المهاجرين و٦١ من الأوس و ١٧٠ من الخزرج

كان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يسير محتسباً أمامه العيون فاخبره وهو يسير — أن محمداً قد استنفر أصحابه للعير فحذر واستأجر رجلاً يذهب إلى مكة يستنفر قريشاً إلى أموالهم ويخبرهم أن محمداً قد عرض العير في أصحابه فخرج ذلك الرجل حتى أتى مكة وصرخ ببطن الوادي —
يا معشر قريش : اللطيمة اللطيمة ، يا معشر قريش أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه لا أرى أن تدركوها الغوث الغوث — فتجهز الناس

سراعاً وكانوا بين رجلين اما خارج واما باعث مكانه رجالا فكانت عدتهم بين
التسعمائة والالف ولم يزلوا في سيرهم حتى نزلوا بالعدوة القصوى من وادي بدر .
أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه خرج من المدينة يوم الاثنين
ثمان خلون من رمضان (أو ٩ منه حسب تقويم محمد مختار باشا المصري
٥ مارس سنة ٦٢٤) حتى اذا كان قريباً من الصفراء بعث العيون الى بدر
لاستطلاع أخبار العير ، حتى اذا قارب بدرأ جاءته الاخبار عن قريش بانهم
نصروا لحماية عيرهم فلستشار الناس بعد أن أخبرهم فتكلم أبو بكر وعمر فأحسننا ،
وقال له المقداد بن عمرو امض يا رسول الله لما أمرك الله فنحن معك ! والله
لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا
قاعدون ، و لكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون فوالذي
بعثك بالحق لو سرت بنا الى برك الغماد (١) لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه
فقال له الرسول خيراً ثم قال أشيروا علي أيها الناس وانما كان يريد الانصار ،
لأن العدد فيهم ولم تكن يبعثهم الا على أنهم يمنعونهم مادام في ديارهم فكان
يتخوف أنهم لا يرون نصرته الا على من دهمه في المدينة من عدوه ، وليس
عليهم أن يسيرهم الى عدو خارج ديارهم ، فقال له سعد بن معاذ : والله
لكأنك تريدنا يا رسول الله ، قل أجل فقال له سعد قد آمننا بك وصدقناك
وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهدنا ومواثيقنا على
السمع والطاعة فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك ! فوالذي بعثك
يا لحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل

(١) موضع أبيض أراضى هجر

واحد وما نكره ان تأتي بنا العدو غداً انا لصبر في الحرب صدق عند اللقاء
لعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله فسر عليه السلام بقول
سعد ونشطه ذلك ، ثم قال سيروا وأبشروا فان الله قد وعدني احدى
الطائفتين ، والله لك انى أنظر الى مصارع القوم ثم ارتحل عليه السلام
حتى اذا وصل قريباً من بدر باغه أن أباسفيان قد نجا بالعرير وان قريشاً وراء
وادي بدر - وكان ابو سفيان قد ساحل بالعرير فنجا ، وارسل الى قريش
يخبرهم ويطلب منهم العودة الى مكة لنجاة العير فأبى ذلك ابو جهل وقال
والله لا نرجع حتى نرد بدرأ (وكان بدر موسماً من مواسم العرب تجتمع
لهم به سوق كل عام) فنقيم فيه ثلاثاً فننحر الجزور ونطعم الطعام ونسقي
الخمر ونزف علينا القيان وتسمع بنا العرب وبسيرنا ويجمعنا فلا يزالون
يهابوننا أبداً بعدها فامضوا : ولما رأى الاخنس بن شريق
الثقفي حليف بنى زهرة تشدد ابى جيل من غير داعية اشار على حلفائه
من بنى زهرة ان يرجعوا ، فاتبعوا مشورته وعادوا فلم يشهد بدرأ في
صفوف المشركين زهري ، وكذلك لم يشهد من بنى عدى احداً
مضت قريش حتى نزلت بعدوة الوادي الدنيا ، ونزل المسلمون
على اول ماء من بدر فجاء الحباب بن المنذر الى رسول الله
وقال له يا رسول الله أرايت هذا المنزل أم نزلاً أنزلك الله ليس لنا أن نتقدمه
ولا نتأخر عنه ؟ أم هو الراى والحرب والمكيدة ؟ قال بل هو الراى
والحرب والمكيدة ! : قال يا رسول الله فان هذا ليس
بمنزل فلمض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم فننزله ثم نغور

ما وراءه من القلب ، ثم نبني عليه حوضاً فنعلمؤده ماء ، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون فقال له لقد أثرت بالرأي وفعل كما قال

ثم ان سعداً قال للرسول يا رسول الله ألا نبني لك عريشاً تكون فيه ونعد عندك ركائبك ؟ ثم نلقي عدونا فان أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا ، وان كانت الاخرى جلست على ركائبك فاحقت بمن وراءنا من قومنا فقد تخلف عنك اقوام يابني الله ما نحن بأشدك حبا منهم ولو ظنوا أنك تلقي حربا ماتخلفوا عنك يمنعتك الله منهم يناصحونك ويجاهدون معك فأثنى عليه الرسول ودعا له بخير وأمر ببناء العريش فبنى له

تراءى الجيشان : فلم يكن بد من الحرب في صبيحة يوم الثلاثاء ١٧ رمضان سنة ٢ (١٣ مارس سنة ٦٢٤) ابتدأت الحرب بالمبارزة - حسب القواعد العربية - فخرج من صفوف المشركين ثلاثة : عتبة بن ربيعة بن عبد شمس وابنه الوليد وأخوه شيبه فطلبوا من يخرج اليهم فبرز لهم ثلاثة من الانصار فقال لهم القرشيون لا حاجة لنا بكم نطلب أكفاءنا من بني عمنا فخرج لهم حمزة بن عبد المطلب وعبيدة بن الحارث بن المطلب وعلي بن أبي طالب فكان عبيدة بازاء عتبة وحمزة بازاء شيبه وعلي بازاء الوليد فلما حمزة وعلي فلم يمهلا صاحبيهما أن قتلاهما - وأما عبيدة وشيبه فاختلعا ضربتين كلاهما أثبت من صاحبه فحمل على وحمزة على عتبة فذفعا عليه واحتملا عبيدة وهو جريح الى صفوف المسلمين : ثم بدأ الهجوم بين الصفوف ولم تطل الحرب في ذلك النهار ، فان الهزيمة حلت بصفوف قريش ، بعد أن قتل جمع من صناديدهم فيهم أبو جهل بن هشام رأس هذه الفتن كلها وأسر من قريش نحو

السميعين وهرب الباقون : ولما أنهت الواقعة أمر عليه السلام بدفن القتلى من قريش وموت المسلمين ، وكانت هذه عادته في حروبه . ثم أمر بجمع الغنائم فجمعت ثم أرسل بشيرين إلى أهل المدينة يبشرانهم بالفتح أحدهما - وهو عبد الله بن رواحة إلى أهل العالية والآخر - زيد بن حارثة - إلى أهل السافلة ثم عاد عليه السلام إلى المدينة وفي عودته قتل رجلين من الأسرى أحدهما أنصربن الحارث لانه كان غالياً في عداوة المسلمين بمكة يكثر أذاًهم ويعلم التميان الشعر الذي يهجو به المسلمين ليغنين به ، والثاني عقبة بن أبي معيط وهو مثله فكان لقتلهم سبب خاص ولم يقتل من الأسرى غيرها

ولما أقبيل بالأسرى فرقمهم بين أصحابه ، وقال استوصوا بهم خيراً قال أبو عزيز بن عمير : كنت في رهط من الانصار حين أقبلوا بي من بدر فكانوا إذا قدم غداءهم أو عشاءهم خصوني بالخبز وأكلوا التمر لوصية رسول الله إياهم بما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز الانحنى بها اقال فاستحي فاردّها على أحدكم فيردّها على ما يحسبها وكان أبو عزيز هذا صاحب لواء المشركين بيد

ثم استقر رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ان استشار أصحابه على قبول الفداء من قريش في الأسرى ، وكان بعض الصحابة - ومنهم عمر - وسعد بن معاذ يريدون قتلهم ، وكان رأى أبي بكر وأكثر الصحابة لا يريدون ذلك ، ويريدون قبول الفداء (وذلك كله قبل أن تنزل آية القتال) فرضى عليه السلام رأى أبي بكر ، ولما لم يكن ذلك عن أمر من الله خصوصاً أنه لم يسبق لنبي أن أكل شيئاً من الغنائم ، فان موسى عليه السلام كان يحرقها ولا

يبقى شيئاً منها لذلك كان هذا القرار سبباً لعتاب الله سبحانه بقوله (ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الارض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم ، لولا كتاب من الله سبق لمسىكم فيما أخذتم عذاب عظيم ، فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً واتقوا الله إن الله غفور رحيم) وقد كان من رأى سعد حين القتال أن المسلمين لا يأسرون ثم أمره الله أن يتلطف بهؤلاء الأسرى فقال له (يا أيها النبى قل إن فى أيديكم من الأسرى ان يعلم الله فى قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم)

عامت قريش بما كان فارسلت فى فداء أسراها فمن حضر فداؤه أرسل ومنهم من من عليه بغير فداء ومنهم أبو عزة الجحفي الشاعر بعد أن تعهد أن لا يكون ضد المسلمين بشعره وكان فداء بعض الأسرى الذين يكتبون أن يعلم عشرة من صبيان المدينة الكتابة

نزل فى هذه الغزوة من القرآن سورة الانفال بأسرها وهي السورة الثامنة ، وقد بدأت بأمر الانفال وانها صارت لله والرسول يقضى فيها الله بما شاء ، ثم قضى فيها بان الخمس لله والرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، فالباقي - وهو أربعة أخماسها - للغنائم : وقد خص عليه السلام سهم ذى القربى ببني هاشم والمطلب ابني عبد مناف ولم يعط منه بنى نوفل وعبد شمس ، ثم قص فى السورة خروج المسلمين الى هذه الحرب وأنه ثبتهم فيها وأيدهم بالملائكة بشرى لهم ولتطمئن به قلوبهم وأنه أوحى إلى الملائكة أن يثبتوا الذين آمنوا . وتكلم فيها عن قريش وما فعلوه من الاذى والفتنة والصد عن سبيل الله : وتكلم فيها عن السلم والجنوح اليها متى جنح لها أعداء

المسلمين وعن امر الاسرى الى غير ذلك من الاحكام
وامر هذه الغزوة مما يلفت النظر الى حال المسلمين وما أودع الله فيهم
من القوة والطمأنينة فان عددهم كان ٣١٤ رجلاً ليس معهم سوى ثلاثة أفراس
وسبعين بعيراً يعتقبونها ، وقريش كانت بين التسمئة والالف وعندهم من
العدة ما ليس مع المسلمين ، وهؤلاء عرب وأولئك عرب عندهم واحد
وعند قريش من الغيرة على دينهم والحفيظة على شرفهم ما لا يخفى مكانه ، ومع
كل هذا ظهر من رجحان المسلمين على أعدائهم ما يستغرب فان الحرب لم
تستمر اكثر من نصف نهار قتل فيها من قريش نحو السبعين وأسروا نحو
السبعين ، وانهمزمت بقيتهم لا تاتوى على شيء فلا بد لذلك من سبب آخر غير
امر العدد والعدد ، ذلك ان المسلمين كانوا يحاربون وهم واثقون بالظفر ، لما
أخبرهم به عليه السلام من ان الله وعده احدى الطائفتين ، وقوله : والله
لكاني انظر الى مصارع القوم وزادهم الله تبييناً حين الموقعة بما ايدهم به
من الملائكة تثبت قلوبهم وتفيض عليهم الطمأنينة والثقة ، كانوا يرون
انفسهم في موقف يدافعون فيه عن اعز شيء في الوجود وهو رسول الله
الذي بين اظهرهم فلا يهم الواحد منهم ان تحين منيته لانه واثق بما بعدها
فهو يعد الشهادة إحدى الحسنيين وكل هذا المعارب بمثابة امدادات يراها
متواليه الورد

وقد قيل في هذه الغزوة كثير من الشعر قاله شعراء المدينة وشعراء
مكة ومن أرق ما قيل منه ما قالته قتيلة بنت الحارث أخت النضر بن الحارث
ياراكباً إن الاثيل مظنة من صبح خامسة وأنت موفق

أبلغ بها ميتاً بأن تحية ما إن تزال بها النجائب تحقق
منى إليك — وعبرة مسفوحة جادت بواكفها وأخرى تحقق
هل يسمعي النضر إن ناديته أم كيف يسمع ميت لا ينطق؟
أحمد ولدتك خير نجبية في قومها والفحل فحل معرق
ما كان ضرك لو مننت وربما من الفتي وهو الغيظ المحقق؟
أو كنت قابل فدية فلينفقن بأعز ما يغلو به ما ينفق
فالنضر أقرب من أسرت قرابة وأحقهم — إن كان عتق يعتق
ظلت سيوف بني أبيه تنوشه لله أرحام هناك تشقق
صبراً يقاد إلى المنية متعباً رسف المقيد وهو عان موثق
فيقال والله أعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال — لما باغى هذا
الشعر — لو بلغنى هذا قبل قتله مننت عليه
وكان الفراغ من هذه الغزوة في عقب شهر رمضان

السكدر

لم يقيم بالمدينة إلا سبع ليال حتى غزا بنفسه يريد بني سليم فبلغ ماء من
مياهم يقال له السكدر فأقام عليه ثلاث ليال ، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق
كيداً فأقام بها بقية شوال وذا القعدة ، وفي مقامه هذا فدى جل أسارى بدر

السويق

كان أبو سفيان حين رجع فل قريش من بدر نذراً لا يمسه رأسه من
جناية حتى يغزو محمد بن نجر في مثنى راكب من قريش ليبر يمينه حتى —

كان من المدينة - على نحو يريد ، ثم خرج من الليل حتى أتى بني النضير تحت الليل فأتى حيي بن أخطب فضرب عليه بابه فأبى أن يقبله فانصرف عنه إلى سلام بن مشكم سيد بني النصار المعاهدين لرسول الله وللمسلمين ففتح له بابه وأكرمه وأعلمه أبو سفيان بخبره ثم خرج في عقب ليلته ، حتى أتى أصحابه فبعث رجالاً منهم فأتوا ناحية يقال لها العريض فخرقوا نخبها ووجدوا رجالين من الانصار فقتلوهما ، ثم انصرفوا راجعين ونذر بهم الناس فخرج عليه السلام في طلبهم حتى بلغ قرقرة الكدر ، ثم انصرف راجعاً وقد فاته أبو سفيان ، وسميت بغزة السويق لكثرة ما طرح المشركون من أزوادهم التي أكثرها السويق حتى يتخففوا للنجاة وقال أبو سفيان عند منصرفه لما صنع به سلام بن مشكم

واني تخيرت المدينة واحدا	لحلف فلم اندم ولم اتلوم
سقاني فرواني كميتاً مدامة	على عجل مني سلام بن مشكم
ولما تولى الجيش قلت - ولم أكن	لا فرحه - أبشر بغزو مغنم
تأمر فان القوم سر وانهم	صريح لئوي لاشماطيط جرم
وما كان الا بعض ليلة راكب	أتى ساعياً من غير خلة معدم

ذى أمر

لما رجع عليه السلام من غزوة السويق أقام بالمدينة بقية ذي الحجة أو قريباً منها ثم غزا نجداً يريد غطفان فأقام بنجد صفراً كله أو قريباً من

فلك ولم يلق كيداً ثم رجع الى المدينة فلبث فيها شهر ربيع الاول كله
أو الا قليلا منه

الفرع

خرج عليه السلام في أواخر ربيع الأول يريد قريشاً حتى بلغ بجران
وهو معدن بالحجاز من ناحية الفرع فأقام بها شهر ربيع الآخر ثم رجع
ولم يلق كيداً

أمر بني قينقاع

كان بنو قينقاع اول يهود تقضوا عهدهم — كما قاله ابن اسحاق عن
عاصم بن عمر بن قتادة — وظهر منهم بعد بدر ما كان خافياً من أعدائهم
اذ انهم قالوا له يا محمد لا يغرنك انك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فاصبت
منهم فرصة والله لئن حاربناك لتعلمن اننا نحن الناس وقد ابتدأ الشر بينهم
وبين المسلمين ظاهراً بمحاذنة وقعت في سوق بني قينقاع ، سببها تعدى رجل
من اليهود على امرأة من العرب تعدىامعيباً فصاحت مستغيثة فأغاها رجل
من المسلمين فقام الى اليهودى فقتله ، وقامت اليهودى على المسلم فقتلوه ، وبذلك
وقع الشر واستحكم العداء بين الفريقين فخرج اليهم رسول الله وحاصره
في ديارهم خمس عشرة ليلة في آخرها نزلوا على جكمه فأجلاهم عن المدينة
فخرجوا منها الى اذرعات بالشام وأقاموا فيها

كان من نتيجة بدر أن قريشا حذرت طريقها المعتاد فسلكوا

طريق العراق فخرج ابو سفيان ومعه تجار واستأجروا رجلا من بكر بن وائل يدلهم على الطريق فعلم بذلك عليه السلام وأرسل اليهم زيد بن حارثة فلقاهم على القردة - ماء من مياه نجد - فأصاب تلك العير وما فيها وأعجزه الرجال فقدم بالعير على رسول الله صلى الله عليه وسلم

أمر كعب بن الاشرف

كان كعب بن الاشرف يهوديا من طيء ثم من بني نبهان وأمه من بني النضير ، فلما انتصر المسلمون ببدر وأرسل الرسول زيد بن حارثة وعبد الله ابن رواحة يبشران أهل المدينة بانتصاره وقتل من قتل من قريش ، قال كعب والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الارض خير من ظهرها ولما يتقن الخبر خرج حتى قدم مكة فنزل على المطلب بن أبي وداعة السهمي فأنزله امرأته وأكرمه وجعل يحرض على رسول الله ويقول الاشعار ويبكي أصحاب القلب من قريش الذين أصيبوا ببدر فقال :

طحننت رحا بدر لمهلك أهله	ولمثل بدر تسهل وتدمع
قتلت سراة الناس حول حياضهم	لاتبعدوا إن الملوك تصرع
كم قد أصيب به من ايض ماجد	ذي بهجة تأوي اليه الضيع
طلق اليدين اذا الكواكب أخلفت	حمل أثقال يسود ويربع
ويقول أقوام أسر بسخطهم	إن ابن الاشرف ظل كعبا يجزع
صدقوا: فليت الارض ساعة قتلا	ظلت تسوخ بأهلها وتصدع
صار الذي أثر الحديث بطعنة	أو عاش أعشى مرعشا لا يسمع

تبئت أن بني المغيرة كلهم
وابن ربيعة عنده ومنبه
تبئت أن الحارث بن هشامهم
ليزور يثرب بالجموع وانما
خشعوا القتل أبي الحكيم وجدعوا
مانال مثل المهلكين وتبع
في الناس يبنی الصالحات ويجمع
يحمي على الحسب الكريم الاروع
ثم رجع إلى المدينة فشبب بنساء المسلمين حتى آذاهم فارسل له عليه
السلام نفراً من الانصار فقتلوه جزاء خيانتته العهد



المحاضرة الثالثة عشر

أحد

لما أصيب يوم بدر من قريش من أصيب ورجع فلهم الى مكة ورجع
ابوسفیان بعيره مشى عبد الله بن أبي ربيعة وعكرمة بن أبي جهل وصفوان
ابن أمية في رجال من قريش ممن أصيب آباؤهم وابناؤهم واخوتهم يوم بدر
فكلموا اباسفیان بن حرب ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة
فقالوا يا معشر قريش ان محمداً قد وتركم وقتل خياركم فاعينونا بهذا المال على
حربه ، فاعلنا ندرك منه ثأرنا بمن اصاب منا ففعلوا واجتمعت قريش لحرب
المسلمين بأحاديثها ومن اطاعها من قبائل كنانة واهل تهامة وكان ابو عزة
الجمحي الذي من عليه الرسول يبدر طلب منه صفوان بن أمية ان يخرج معهم
فقال له ان محمداً قد من علي فلا اريد ان اظاهر عايه قال فأعنا بنفسك فلاك
الله على ان رجعت ان اغنيك وان اصبحت ان اجعل بناتك مع بناتي يصبن
ما اصابهن من عسر ويسر ، فخرج ابو عزة يسير في تهامة ويدعو كنانة ودعا
جبير بن مطعم غلاما له حبشيا يقال له وحشي يقذف بحربة له قذف الحبشة
قلما يخطيء بها فقال له اخرج مع الناس فان قتلت حمزة عم محمد بعني طعيمة
فانت عتيق فخرجت قريش بحدها وجدها واحاديثها ومن تبعها من كنانة
واهل تهامة وخرجوا معهم بالطعن التماس الحفيظة وان لا يفروا فاقبلوا حتى
نزلوا بعينين بجبل بيطن السبخة من قناة علي شفير الوادي مقابل المدينة

لما سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وبزوطهم استشار أصحابه
 أن يخرج اليهم أم يقيم في المدينة؟ فقال له عبد الله بن أبي بن سلول — وكان
 رأساً في الانصار الا أنه كان يضر نفاقاً — نرى أن نقيم بالمدينة وندعهم حيث
 نزلوا فان أقاموا أقاموا بشر مقام وإن دخلوا علينا قاتلناهم فيها وكان ذلك رأى
 رسول الله لكن كان رأى جمهورهم أن يخرج الى العدو فدخل عليه السلام
 الى بيته فلبس لامته وذلك يوم الجمعة لاربعة عشرة خلت من شوال (١) حين
 فرغ من الصلاة ثم خرج عليهم وقد ندم الناس وقالوا استكرهنا رسول الله
 صلى الله عليه وسلم ولم يكن لنا ذلك ، فلما خرج عليهم قالوا استكرهناك
 يا رسول الله ولم يكن ذلك لنا فان شئت فاقعد فقال عليه السلام ما ينبغي لنبي
 اذا لبس لامته أن يضعها حتى يقاتل فخرج عليه السلام في ألف من الصحابة
 حتى اذا كان بالشوط انخزل عنه عبد الله بن أبي بن سلول بثلاث الناس ، وقال
 أطاعهم وعصاني ما ندرى غلام تقتل أنفسنا هنا أيها الناس ! فرجع بمن اتبعه
 من قومه وهم أهل نفاق وريب ومضى رسول الله حتى نزل الشعب من أحد
 في غداة الوادي الى جبل فجعل ظهره وعسكره الى أحد وقال لا يقاتلن أحد
 منكم حتى تأمره بالقتل . ثم تعي عليه السلام للقتال وهو في ٧٠٠ رجل وأمر
 علي الرماة عبد الله بن جبير وقال له انضح الخيل عنا بالنبل ، لا يأتونا من خلفنا
 إن كانت لنا أو علينا فثبت مكانك لا تؤتين من قبلك ، وكان صاحب لواء
 المسلمين مصعب بن عمير . وتعبت قریش وهم ثلاث آلاف رجل ومعهم مثني

(١) حسب تقويم بخار باشا المصري كان أول شوال الاحد فالجمعة ١٣ منه
 (١٩ مارس سنة ٦٢٥)

فرس قد جنبوها ، وكان على ميمنة خيلهم خالد بن الوليد وعلى ميسرة
عكرمة بن أبي جهل ، وقال أبو سفيان لأصحاب اللواء من بني عبد الدار يا بني
عبد الدار انكم قد وليتم لواءنا يوم بدر فاصابنا ما قد رأيتم وإنما يؤتى الناس
من قبل راياتهم ، اذا زالت زالوا فلما أن تكفونا لواءنا وإما ان تخلوا بيننا
وبينه فنكفيكموه ، فهموا به وتواعدوه ، وقالوا نحن نسلم اليك لواءنا ستعلم
غداً اذا التقينا كيف نصنع وذلك ما أراد أبو سفيان

التقى الناس ودارت رحا الحرب واشتهر بأعظم عمل فرسان معلمون من
المسلمين منهم حمزة بن عبد المطلب وأبو دجاجة سمك بن خرشة الساعدي وعلى
ابن أبي طالب وغيرهم فأبلى المسلمون بلاء حسناً فأنزل الله عليهم نصره وصدقهم
وعده فحسوا عدوهم بالسيوف حتي كشفوهم عن العسكر ، وكانت الهزيمة لاشك
فيها — الا أن الرماة لما رأوا المشركين انكشفوا مالوا الى العسكر وخواوا ظهور
المسلمين للعدو فالتفت خيالة المشركين بقيادة خالد بن الوليد حتى جاءتهم
من خلفهم وبعضهم مشتغل بأخذ الغنيمة فاختلت صفوفهم وأخذت لواء
المشركين عمرة بنت علقمة الحارثية رفعتة لقريش فلا ثوابه وتراجعوا لما
رأوا الخلل في صفوف المسلمين حتى دهشوا ، ومما زاد في دهشتهم وأضعف
عزائهم أن رجلاً قتل مصعب بن عمير وأذاع عند قتله أن محمداً قد قتل فكان
هذا الخبر شديداً على أنفس كثير منهم فانكشفوا فاصاب فيهم العدو ، وكان
يوم بلاء وتمحيص حتى خلاص العدو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وحتى
رمى بالحجارة ووقع لشقه فاصيبت ربايعيته وشج وجهه وكلمت شفته ودخلت
حائطان من حلق المغفر في وجنته ووقع في حفرة من الحفر التي حفرها

أبو عامر ليقع فيها المسلمون وهم لا يعلمون فاخذ علي بن أبي طالب بيده ورقعه طاحه بن عبيد الله حتى استوى قائماً ولما غشيه القوم قام دونه خمسة نفر من الانصار يردون عنه العدو ، ثم فاءت فئة من المسلمين فاجهم وضوئهم عنه وقاتلت في ذلك اليوم أم نسيبة بنت كعب وهي ممن بايع بيعة العقبة وكانت في أول النهار تسقي الماء فلما رأت هزيمة المسلمين انحازت إلى رسول الله وباشرت القتال وصارت تذب عنه بالسيف وترمي عن القوس وجرحته في ذلك اليوم جرحاً شديداً ، وقد امتاز جماعة من الانصار والمهاجرين بوقوفهم دون رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم أبو دجانة وكان النبل يقع في ظهره وهو منحني على رسول الله حتى كثر فيه النبل ومنهم سعد بن أبي وقاص وكان رامياً ومنهم عبد الرحمن بن عوف

كان بعض المسلمين ترك الموقعة لظنه قتل الرسول حتى عرفه كعب ابن مالك أحد الانصار فنادى بأعلى صوته يا معشر المسلمين أبشروا هذا رسول الله فأشار عليه السلام أن أصمت ولما علم بذلك بعض من انهزم عادوا اليه ونهض معهم نحو الشعب معه كبار أصحابه وذوو الاثر الصالح في هذه الموقعة فلما أسند ظهره الى الشعب أقبل أبي بن خلف وهو يقول أين محمد لا تجوت ان نجا فتناول عليه السلام الحربة من الحرث بن الصمة ثم استقبله فطعنه في عنقه طعنة تدأداً منها عن فرسه مراراً وخدش في عنقه فاحتقن الدم وكان ذلك سبباً لموته وهو عائد إلى مكة وهو الرجل الوحيد الذي قتل بيده عليه السلام

ولما انتهى الى قم الشعب خرج على بن أبي طالب حتى ملأ درقته ماء
من المهراس وجاء به الى الرسول ليشرّب منه فوجد له ريحاً فعاقه فلم يشرب
منه فغسل عن وجهه الدم وصب على رأسه . وينا هو بالشعب معه أولئك
النفر من أصحابه يمنعونهم اذ علت عالية من قريش الجبل فذهب اليهم من
المسلمين من أنزلهم عنه

يظهر أن قريشاً رأّت بما فعلت أنها قد شفت أنفسها مما تجدد من عار
بدر فاكتفت به وعولت على الانصراف فصعد أبو سفيان ربوة ونادى
بأعلى صوته - بحيث يسمعه من في الشعب - وقال أنعمت فعال : ان لحرب
سجال يوم بيوم بدر ، أعل هبل ، فقال عليه السلام قم يا عمر فاجبه فقل الله
أعلى وأجل لاسواء : قتلانا في الجنة وقتلاك في النار ، فلما سمع أبو سفيان
صوت عمر قال له هلم الى يا عمر ، فقال له الرسول ائتته فانظر مشأته فجاءه
فقال له أبو سفيان أشدك الله يا عمر أقتلنا محمداً ؟ قال عمر انهم لا وانه
ليسمع كلامك الآن ، قال أنت أصدق عندي من ابن قتيبة وأبرثم نادى ابو
سفيان انه كان في قتلاك مثل والله مارضيت وما سخطت وما أمرت وما
نهيت ، ثم نادى ان موعدكم بدر للعام المقبل فامر عليه السلام من يقول له
نعم هو بيننا وبينك موعد

وكان الذي بهم الرسول صلى الله عليه وسلم في موقفه أن يعلم ذات
نفس قريش ، أيريدون المدينة أم ينصرفون الى مكة فارسل على بن أبي
طالب فقال اخرج في أثر القوم فانظر ماذا يصنعون ؟ وما يريدون ، فان
كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الابل فانهم يريدون مكة وان ركبو الخيل

فوساقوا الابل فانهم يريدون المدينة ، والذى نفسى بيده لئن أرادوها لاسيرن اليهم فيها ثم لاناجزنهم نخرج على في أثرهم فرآهم جنبوا الخيل وامتطوا الابل ووجهوا الى مكة

فرغ المسلمون الى قتلاهم فدفنوها ، وكان منهم حمزة بن عبد المطلب قتله وحشى ومثلت به هند بنت عتبة زوج ابني سفيان

ثم انصرف عليه السلام راجعاً الى المدينة فاقبته في الطريق حمزة بنت جحش فنعى اليها أخاها عبد الله بن جحش فاسترجعت واستغفرت له ثم نعى اليها خالها حمزة بن عبد المطلب فاسترجعت واستغفرت له ثم نعى لها زوجها مصعب بن عمير فصاحت وولولت فقال عليه السلام ان زوج المرأة منها لم يمكن لما رأى من تثبتها على أخيها وخالها وصياحها على زوجها . ومر بامرأة من بني دينار من الانصار وقد أصيب زوجها واخوها وابوها فلما نعوها لها قالت فما فعل رسول الله ؟ قلوا خير أيا أم فلان هو بحمد الله كما تحمين قالت ارونه حتى أنظر اليه ؟ فأشير لها اليه حتى اذا رآته قالت كل مصيبة بعدك لجعل الله — تيد صغيرة

في غد ذلك اليوم وهو يوم الاحد ١٦ شوال او ١٥ منه اذن مؤذن رسول الله بطلب العدو ، واذن مؤذنه ان لا يخرج معنا الا من حضره منا بالامس ، وانما فعل ذلك لهرب قريشا وليبأغهم انه خرج في طلبهم ليظنوا به قوده وان الذي اصابهم لم يوهنهم عن عدوهم فخرجوا بثأهم عليه من التعب واجراح حتى بلغوا حمرا ادمدا — وهي من المدينة على ثمانية اميال فأقام بها الاثني والثلاثاء والاربعاء وقد مر به معبد بن أبي معبد

الخزاعي وكانت خزاعة مسلمهم ومشرِكهم عيبة نصيح للمسلمين بتهامة
صفقتهم معه لا يخنزون عنه شيئاً كان بها ومعبد يومئذ مشرك ، فقال يا محمد
والله لقد عز علينا ما أصابك في أصحابك ولوددنا أن الله عافاك فيهم ثم تركه
بحمراء الاسد وسار حتى انتهى أبا سفيان وأصحابه بالروحاء ، وقد جمعوا الرجعة
فاتهم قال بعضهم لبعض أصبنا أحد أصحابه وأشرافهم وقادتهم ثم ترجع قبل
ان نستأصلهم لنكون على بقيتهم فلنفرغن منهم فلما رأى أبو سفيان معبداً
قال له ما وراءك يا معبد ؟ قال محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله
قط يتحرقون عليكم تحرقا قد اجتمع معه من كان يخلف عنه في يومكم وندموا
على ما ضيعوا فيهم من الخلق عايكم - شيء لم أر مثله قط قال ويحك ما تقول
قال والله ما أرى أن ترحل حتى ترى نواصي الخيل فتنبئ ذلك أبا سفيان
ومن معه

والذي اترض به اقرشيون على أنفسهم يرد بخاطر كل انسان حين
يمر بتلك الموقعة فقد كان لهم النصر في نهاية اليوم باحد وقتلوا كثيراً من
المسلمين ، وانهمزم عنهم كثير ثم علموا أن الرسول بالشعب هو وجمع قليل
من الحمة يدافعون عنه ومع ذلك لم يخطر ببالهم أن يتمموا هذا الانتصار
بالوقوف عليهم ، ثم لما ظهر لهم النصر وانصرفوا عن أحد لم يعرجوا على
المدينة ليقال ان النصر قد تم لهم لم يفعلوا هذا ولا ذاك حتى اذا كانوا على
نحو يومين من المدينة خطر لهم خاطر الرجوع

واظهر أن القوم كان عندهم شيء من الحذر لأنهم كانوا يعلمون أن
كثيراً من الانتصار تخلف عنه بالمدينة فخفوا أن يعلم المتخلفون ان إخوانهم

صديبوا فيسرعوا إلى نجاتهم فيكون ما تكره قريش فاكثفوا بما أصابوا
من الدماء التي رأوها سائلة في وادي أحد وكانت القتلى تقرب من قتلاهم في
يوم بدر فاشتفت أنفسهم ، وهذا كل ما كانوا يريدون ومما يدل على ذلك أن
أيا سفيان كان يريد أن يعرج على المدينة عقب انصرافه من أحد فقال له
صفوان بن أمية بن خلف لا تفعلوا فإن القوم قد حاربوا وقد خشيتنا أن
يسكون لهم قتال غير الذي كان فارجمعوا فرجعوا

وعند انصراف الرسول من حمراء الأسد ظفر بابي عزة الجمحي الذي
من عليه بعد بدر ، فقال له أقلى يا محمد فقال عليه السلام والله لا تمسح عارضيك
بعمكة بعدها تقول خدعت عمداً مرتين : لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ثم
أمر بضرب عنقه

والذين استشهدوا باحد من المسلمين ٢٠ رجلاً أربعة من المهاجرين
وباقيتهم من الانصار والذين قتلوا من المشركين ٢٢ رجلاً
أنزل الله في هذا اليوم ستين آية من القرآن : في سورة آل عمران
وهي السورة الثالثة من أول قوله تعالى « وإذ غدوت من أهلك تبوي المؤمنين
مقاعد للقتال والله سميع عليم » الى قوله فأمنوا بالله ورسوله وان تؤمنوا
وتتقوا فلکم أجر عظيم

وقد جمعت هذه الآيات أموراً (١) أجل تعزية لهم على ما أصابهم
يوم أحد (٢) إن صفة الصبر وعلو النفس لا يتبين أثرهما الا عند النكبات
(٣) توييخ لهم - بالطف إشارة على ما كان من ضعفهم حينما أشيع أن محمداً
قتل (٤) بيان الاسباب الحقيقية لما كان يوم أحد (ولقد صدقكم الله وعده

إذ محسبونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون) وكل هذه متى حصل أمر منها في جيش ففسد النظام والروح التي بها يستحق الظفر وهي الفشل والتنازع والعصيان (٥) ما كان منهم حين الانصراف عن الموقعة وكيف كان يدعوهم إلى الثبات والصبر (٦) التنديد بجماعة المنافقين الذين أكثروا من غمز المسلمين والشماتة بهم (٧) اعلان العفو عن المهزمين (إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حلیم) (٨) الثناء على شهداء الموقعة والاخبار أنهم (أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين) وأخيراً أشار إلى ما كان من خروجهم ثاني يوم أحد بعد أن أصابهم القرع ووعدهم الذين أحسنوا منهم واتقوا أجراً عظيماً وقد قيل في هذه الموقعة كثير من الشعر العربي قالته قريش والمسلمون

نقله ابن هشام في سيرته

يوم الرجيع

قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أحد رهط من عضل والقارة وهما بطنان من خزيمة بن مدركة فقالوا يا رسول الله ان فينا إسلاماً فلو أرسلت معنا نفرًا من أصحابك يفقهوننا في ديننا ويقرءوننا القرآن ويعلموننا الإسلام فبعث معهم ستة من أصحابه أميرهم مرثد بن أبي مرثد الغنوي) فخرجوا معهم حتى إذا كانوا بالرجيع غدروا بهم فاستمضوا عليهم هذيل

فلم يزع القوم في رحالهم الا الرجال بأيديهم السيوف قد غشوه قأخذ المسلمون
أسيافهم ليقاتلوهم فقالت لهم هذيل انا لا تريد قتلكم ولكنا نريد أن نصيب
بكم شيئاً من أهل مكة ولكم عهد الله وميثاقه أن لا نغدر بكم فقبل هذا
القول ثلاثة منهم فقاتلوا حتى قتلوا وأجاب إلى العهد الثلاثة الآخرون
فقتل أحدهم بالطريق والآخران يبعان بمكة فقتلا هناك وقال أبو سفيان
لأحدهم وهو زيد بن الدثنة — حين قدم ليضرب عنقه — أنشدك الله يا زيد
أتحب أن محمداً عندنا الآن في مكانك يضرب عنقه وأنت في أهلك قال والله
ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنا في
جالس في أهلي فيقول أبو سفيان ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب
أحباب محمد محمداً

حديث بر معونة

قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم في صفر من السنة الرابعة أبو
براء عامر بن مالك الملقب بملاعب الاسنة العامري فعرض الرسول عليه
الاسلام فلم يسلم ولم يبعد ، وقال يا محمد لو بعثت رجلاً من أصحابك الى
أهل نجد فدعوهم الى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك ، فقال عليه السلام
إني أخشى عليهم أهل نجد : فقال أبو براء أنا لهم جار فادعهم فليدعوا الناس
إلى أمرك فبعث عليه السلام أربعين رجلاً عليهم المنذر بن عمرو الساعدي
فخرجوا حتى نزلوا بئر معونة وهي بين أرض بني عامر وحررة بني سليم فلما
نزلوها بعثوا أحدهم بكتاب رسول الله الى عامر بن الطفيل فلما جاءه
الكتاب لم ينظر فيه حتى عدا على الرجل فقتله ثم استصرخ عليهم بني عامر

فأبوا أن يخفروا جواز أبي براء فاستصرخ عليهم قبائل من بني سليم :
عصية ورعل وذكوان فاجابوه الى ذلك فخرج بهم حتى غشوا القوم في
رحالهم فلما رآهم المسلمون أخذوا سيوفهم فقاتلوهم حتى قتلوا عن آخرهم
ماعدًا رجلين : عمرو بن أمية الضمري لانه كان في الرحال وكعب بن زيد فاته
ترك بالمعركة جريحاً قد ظن موته فارتث من بين القتلى وقد كان عمرو اسر
لما ذهب يتفقد القوم ثم أطلقه عامر بن الطفيل فعاد الى المدينة وبينما هو عائد
قابله رجلان من بني عامر فاغتالهما وكان معهما عقد من رسول الله لم يعلم
به عمرو

فلما وصل إلى المدينة واخبر الرسول عليه الصلاة والسلام بخبر القوم
والقتيلين قال هذا عمل أبي براء قد كنت لهذا كارها متخوفاً ثم قال لعمرو
لقد قتلت قتيلين لأدينيهما



المحاضرة الرابعة عشرة

اجلاء بنى النضير — ذات الرقاع — بدر الآخرة — الخندق

وقريظة — بنى المصطلق

اجلاء بنى النضير

خرج عليه السلام الى بنى النضير يستعينهم في أمر ذينك القتيلين اللذين قتلها عمرو بن أمية وكان بين بنى النضير وبين بنى عامر عقد وحلف فلما جاءهم وطلب منهم المعاونة قالوا نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه (وكان جالساً الى جنب جدار من بيوتهم) فمن رجل يعلو هذا البيت فيلقي عليه صخرة فيرمي بها منه فانتدب لذلك أحدهم فصعد ليلقي الصخرة كما قال — ورسول الله في نفر من أصحابه — فجاءه الوحي بما عزم عليه القوم فقام وخرج راجعاً الى المدينة وأخبر أصحابه الخبر بما كانت اليهود ارادت من الغدر به وأمر بالتهيؤ لحربهم والسير اليهم وكان ذلك في شهر ربيع الاول سنة ٤ فتحصنوا منه في الحصون فأمر بقطع النخيل والتحريق فيها فسادوه ان يا محمد قد كنت تنهي عن الفساد وتعيب على من صنعه فما بال قطع النخيل وتحريقها

أرسل جماعة من منافقي اهل المدينة الى بنى النضير ان اثبتوا وتمنعوا

فانا لن نسامكم ان قوتلتم قاتلنا معكم وان أخرجتم بخرجنا معكم فتربصوا
ذلك من نصرهم فلم يفعلوا واشتد بهم الخوف فطلبوا ان يجلوا ويكف عن
دمائهم على أن لهم ما حملت الابل من أموالهم الا الحلقة فرضى الرسول بما
طالبوه فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الابل وخرجوا الى خيبر ومنهم
من سار الى الشام

ونزل في أمر بنى النضير من القرآن سورة الحشر وهي السورة الستون
من القرآن قص فيها الحادثة وما كان من المنافقين الذين راسلوا بنى النضير
ثم عين حكم الأموال التي تركوها وسماها فيئاً وجعل أمرها لرسول الله
يضعها حيث أمره الله (لله ولرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن
السييل كيلا يكون دولة بين الاغنياء منكم) ثم عذر المسلمين على ما فعلوه من
قطع بعض نخيلهم بانه لم يكن المقصود منه الفساد، وانما كان باذن الله ليضعف
به أمر العدو ثم أمر المسلمين بالتقوى وان تنتظر النفس ما قدمت لغد
ذات الرقاع

خرج عليه السلام من المدينة في جمادى الاولى من سنة ٤ يريد بي
محارب وثعلبة من غطفان حتى اذا نزل نخل لقي بها جمعاً عظيماً من غطفان
فتقارب الناس ولم يكن حرب وقد خاف بعضهم بعضاً حتى صلى الرسول
باصحابه صلاة الخوف ثم انصرف بالناس
بدر الآخرة

جاء شعبان من السنة الرابعة وفيه سوق بدر وهي موعد أبي سفيان
وخرج عليه السلام باصحابه حتى نزل بدرأ واقام ينتظر ابا سفيان أما هذا

فانه خرج بقریش حتى بلغ مجنة أو عسقان ثم بداله فقال ايها الناس إنه لا يصلحكم الا عام خصيب ترعون فيه الشجر وتشربون فيه اللبن ، وان عامكم هذا عام جذب وانى راجع فارجعوا فرجع الناس ، وكان ذلك مما أخذ الناس على أبي سفيان لعدم وفائه وانكها الحروب ولقاء الموت تحمل الناس كثيراً على ما يكرهون الخندق

خرج نفر من اليهود ثم من بني النضير الذين أجلاهم رسول الله الى خيبر ومعهم جماعة من بني وائل حتى قدموا مكة على قریش فدعوه الى حرب رسول الله وقالوا انا سنكون معكم عليه حتى نستأصله فقالت لهم قریش يا معشر يهود انكم أهل الكتاب الاول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد أفديننا خير أم دينه ؟ قالوا بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق منه فسر ذلك قریشاً ونشطوا لما دعوه اليه فاجتمعوا لذلك واتعدوا له ثم خرج أولئك النفر حتى أتوا غطفان فدعوه الى مثل ما دعوا اليه قریشاً وأخبروهم أنهم سيكونون معهم وأن قریشاً قد تابعوهم على ذلك فاجتمعوا معهم فيه فخرجت قریش وقائدهم أبو سفيان بن حرب وخرجت غطفان وقائدهم عيينة بن حصن في بني فزارة والحارث بن عوف في بني مرة ومسعر بن ربيعة في بني أشجع بن أريث

لما سمع رسول الله بما أجمعت عليه قریش وأحزابها ضرب الخندق على المدينة بإشارة سلمان الفارسي وقاسي المسامون في حفره متاعب شديدة وما زالوا حتى أحكموه

ثم جاءت قريش ومن معها حتى نزلوا بمجمع الاسيال من دومة بين
الجرف وزغابة في عشرة آلاف وجاءت غطفان حتى نزلوا بذنب نعمى الى
جانب احد وخرج رسول الله والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع
في ثلاثة آلاف من المسلمين وضرب هنالك عسكره والخذق بينه وبين العدو
وأمر بالنساء والذراري فجعلوا في الآطام

خرج حي بن أخطب النصيري حتى أتى كعب بن أسد القرظي سيد بني
قريظة وصاحب عقدهم وعهدهم وكان عاقد رسول الله وعاهده على أن
ينصره اذا أصابته حرب كما تقدم فضرب عليه حتى الباب فأغلقه دونه فما
زال يكلمه حتى فتح له بابه ثم قال له — انى قد جئتك يا كعب بعز الدهر
وبيجر طام جئتك بقريش على قادتها وسادتها حتى انزلتهم بذنب نعمى وقد
عاهدوني وعاهدوني على أن لا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه فقال
له كعب جئتني والله بذل الدهر ويجهام قد هراق ماؤه فهو يرعد ويبرق
وليس فيه شيء ويحك يا حي فاني لم أر من محمد الا صدقاً ووفاء فلم ينزل حي
بكعب يفتلة في الذروة والغارب حتى تقض كعب بن أسد عهده وبرىء مما
كان بينه وبين المسلمين فلما انتهى الخبر إلى الرسول وإلى المسلمين بعث سعد
ابن معاذ سيد الاوس وسعد بن عباد سيد الخزرج ليعالما الخبر بنى قريظة
وكان أمرهم يهملهم كثير مما يهملهم امر قريش وغطفان لان هؤلاء في بلدهم والخيانة
منهم تؤثر كثيراً في مركز جيشه فلما انتهى السعدان إلى بني قريظة وجدوهم
على اخبت ما بلغهم عنهم نالوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا من رسول
الله لا عهد بيننا وبين محمد لا فشاتمهم سعد بن معاذ وكان رجلاً فيه حدة فقال له سعد

ابن عبادة دع عنك مشائمتهم فما بيننا وبينهم اربى من المشائمة ثم جاء السعدان الى رسول الله وأعلموه بما عليه القوم فعظم عند ذلك البلاء عند المسلمين واشتد الخوف وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم حتى ظن المسلمون كل ظن ونجم النفاق من بعض المنافقين

أقام المسلمون على ذلك الحال بضعا وعشرين ليلة لم يكن بينهم حرب الا المراماة بالنبل والحصار . ولما اشتد بالناس البلاء رأى عليه السلام أن يفعل أمراً يفرق به كلمة الاحزاب فبعث الى عيينة بن حصن الفزاري والحرث ابن عوف المري وهما قائد اغطفان فراوضهما ان يعطيتهما ثلث ثمار المدينة على ان ينصرفا بجيوش غطفان فقبلا ولكنه قبل ان يرم الامر أرسل الى السعدين سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فاستشارهما فيما رأى فقالا يا رسول الله أمراً نحبه فنصنعه ام شيئاً أمرك الله به لا بد لنا من العمل به ام شيئاً تصنعه لنا قال بل شيء أصنعه لكم فقال له سعد بن معاذ يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك وعبادة الاوثان لانعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطعمون ان يأكلوا منها ثمرة الا قري أو بيعاً أفحين أكرمنا الله بالاسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا والله مالنا بهذا من حاجة والله مانعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم ، فقال عليه السلام أنت وذلك فرجع رئيسا غطفان واستمر الامر كما كان وقد استفزت النمرة بعض الشبان من قريش فاقتحموا الخندق بأفراسهم فمنهم من وقع فيه واندق عنقه ومنهم من برز له شجعان من المسلمين فقتلوه ومنهم من فر

جاء ذات يوم نعيم بن مسعود الاشجعي فقال يا رسول الله اني أسألت

ولم يعلم قومي بأسلامي فرنى بما شئت فقال له عايبه السلام انما أنت رجل واحد نخذل عنا ما استطعت، فان الحرب خدعة فخرج نعيم حتى أتى بنى قريظة وكان لهم نديما فى الجاهلية فقال يابنى قريظة قد عامتم ودي اياكم وخاصة ما بينى وبينكم وان قريش ليسوا مثلكم البلد بلدكم فيه أموالكم وأبناؤكم ونسائكم لا تقدرُوا أن تتحولوا منه الى غيره وان قريشا وغطفان قد جاؤا لحرب محمد وأصحابه وقد ظاهرتموهم عليه وبلدكم واهلهم ونسائهم وبغيره فان رأوا نهزة أصابوها وان كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ولا طاقة لكم به ان خلا بكم فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا رهنا من أشرافهم يكونون بأيديكم ! قالوا لقد اشرت بالرأي ثم خرج حتى أتى قريشا فقال لابي سفيان بن حرب - ومن معه من رجال قريش - قد عرفتم ودى لكم وفراقى لمحمد وانه قد باغنى أمر قدرأيت على حقا أن أبلغكموه نصحا لكم . إن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد وقد أرسلوا اليه إنا قد ندمنا على ما فعلنا فهل يرضيك أن نأخذك من القبيلتين قريش وغطفان رجالا من أشرافهم فنعطيهما لك فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقي منهم حتى نستأصلهم ؟ فأرسل اليهم ان نعم فان طلبت منكم يهود أحداً من أشرافكم فلا تدفعوا اليهم منكم رجلا واحداً ، ثم جاء غطفان فلعب بعقولهم بمثل ذلك

فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة ٥ أرسلت قريش وغطفان إلى بنى قريظة عكرمة بن أبى جهل فى نفر من القبيلتين فقالوا لهم اننا لنسنا بدار مقام قد هلك الخلف والحافر فاعندوا للقتال حتى نتاجز محمداً فقالوا لهم ان

عدداً السبت ، وهو يوم لا نفعل فيه شيئاً ولسنا مع ذلك بالذين تقاتل محمدًا
معكم حتى تعطونا رهناً من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا فلما رجع عكرمة
ومن معه بتلك الرسالة تأكدت قريش وغطفان من خبر نعيم بن مسعود
وأرسلوا إلى بني قريظة أنا والله لا ندفع إليكم أحداً من رجالنا فإن كنتم تريدون
القتال فاخرجوا فتأكدت قريظة حينئذ مما قال لهم نعيم وامتنعوا من القتال
حتى يأخذوا الرهائن فأبوا عليهم ودب حينئذ إلى القلوب الفشل والرعب
وهما كافيان لخذلان أعظم جند وصادف أن جاءتهم ريح في ليلة شاتية باردة
شديدة البرد فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح آيتهم

لما علم عليه السلام بما حصل بين الأحزاب من الخلاف أرسل حذيفة بن
اليمان ليعلم له خبر القوم جاء معسكرهم في ذلك الليل فاذا ابوسفيان يقول لهم
لينظر امرؤ من جليسه قال حذيفة فأخذت بيد الرجل الذي كان إلى جنبي
فقلت له من أنت ؟ قال أنا فلان بن فلان ثم قال ابو سفيان يامعشر قريش
إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام لقد هلك الكراع والخف وأخلفتنا بنو
قريظة وبلغنا عنهم الذي نكره ولقينا من شدة الريح ماترون ماتمئن انسا
قدر ولا تقوم لنا نار ولا يستمسك لنا بناء فارتحلوا فاني مرتحل ثم قام إلى جملة
وهو معقول جلس عليه ثم ضربه فوثب به على ثلاث ما أطلق عقله الا وهو
قائم فتبعته قريش وسمعت غطفان بما كان فانشمروا راجعين إلى بلادهم
وبذلك أزيحت هذه الغمة الثقيلة التي علمتهم كيف يخندقون على ديارهم
إذا جاءهم عدو أكثر منهم عدداً فكان يوم أحد كان درساً لهم استفادوا
منه الأناة في ملاقات الأعداء واضطروا بحكم ما هم فيه من الشدائد أن

يستعينوا بالخدع التي تفرق بين الأعداء الذين اعتدوا عليهم وعرفوا أن من عاهدوهم من بنى قريظة لأعهد لهم ولا رادع عما استكن في أنفسهم من العداء الشديد فلم يكن هناك بد من جزائهم جزاء شديدا يناسب ذلك الجرم الفظيع

لذلك أمر عليه السلام - بعد انصراف الأحزاب - أن يتوجه المسلمون إلى بنى قريظة ليعاقبوهم عقوبة الخائن الغادر فذهب المسلمون إليهم وحاصروهم خمسا وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار وقذف في قلوبهم الرعب فنزلوا على حكم سعد بن معاذ حليفهم فحكم عليهم حكما يناسب جرمهم وهو قتل مقاتلاتهم فنفذ الحكم فيهم وكان الأوس يريدون من سعد أن يحكم فيهم بما حكم به عبد الله بن أبي في مواليه من قينقاع بأجلاتهم فلم يرض

ومن الغريب أن اخوانهم بالشام في هذه الآونة كانت تدور عليهم تلك الكأس المرة من يد هرقل بعد غابته كسرى من جراء ما فعلوه بنصارى الشام حينما كان الظفر لفارس فكانوا في الجهتين أعداء للطرفين

ذكر الله قصة الأحزاب في سورة سميت باسمهم وهي السورة الثالثة والثلاثون وأولها قوله تعالى (يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا إذ جاءكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذا زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا. هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلالا شديدا) والذين كانوا من فوقهم بنو قريظة والذين كانوا أسفل منهم قريش وعظفان ، ثم بين حال المنافقين ومثل ما كانوا عليه من الخوف أحسن تمثيل

ثم بين حال المؤمنين حينما رأوا الأحزاب (ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا :
هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم الا إيماناً وتسليماً)
ثم ذكر أمر بني قريظة الذين ظاهروا الأحزاب في عدوانهم والآية تدل على
أن القتل لم يعمهم (وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصبيهم
وقذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً)

واستشهد من المسلمين يوم الخندق ستة نفر من المسلمين منهم سعد بن
معاذ أصابه سهم في ذراعه فقطع أ كحله وقد مات بعد حكمه على بني قريظة
وقتل من المشركين ثلاثة نفر

وبعد الانصراف من الأحزاب انضم الى صفوف المسلمين قائدان
عظيمان من قواد قريش وهما عمرو بن العاص السهمي وخالد بن الوليد المخزومي
وذلك يدل أن الحرب قد شرعت تضع أوزارها بين الفريقين وقد كان ذلك
فانه لم تحصل مواقف مهمة بين الفريقين بعد ذلك

بنو حيان

أقام عليه السلام بالمدينة — بعد الخندق — الى جمادى الاولى سنة ٩
وفيه خرج الى بني حيان يطالب بأحد باب الرجيع فسار حتى نزل بغيران وهو
واد بين أمج وعسفان ينزله بنو حيان فوجدهم حذروا وتفرقوا وتمنعوا في
رءوس الجبال فعاد الى المدينة

ذى قرد

لم يقم بالمدينة الا ليالى قلائل حتى اغار عيينة بن حصن — في خيل من
غطفان — على لقاح لرسول الله بالغابة وفيها رجل من غفار وامرأته فقتلوا

الرجل واحتملوا المرأة فتذريهم سلمة بن عمرو بن الاكوع الاسلمي
فاشرف في ناحية سلع وصرخ واصباحاه ثم خرج يشتد في أثر القوم وكان
وامداً محيداً فصار يرميهم بالنبل ويقول خذوها أنا ابن الاكوع فاذا انعطفت
عليه الخيل انطلق هارباً ثم يعود فيفعل كما كان يفعل وكان قصده أن يؤخرهم
ويأمر يلحقهم جند المدينة . بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم صياح ابن
الاكوع فصرخ بالمدينة الفرع الفرع ! فترامت اليه الخيول فلما اجتمعوا
أمر عليهم سعد بن زيد وقال له اخرج في أثر القوم حتى أحقك فخرجوا
يشتدون في أثر القوم حتى أدركوهم فناوشوهم حتى لحقهم رسول الله صلى الله
عليه وسلم واستنقذوا منهم بعض اللقاح وهرب غطفان بالباقي وأقام
المسلمون بنى قرد يوماً وليلة ثم عادوا قافلين الى المدينة وقتل منهم
رجل واحد .

بنو المصطلق

أقام عليه السلام بالمدينة الى شعبان وفيه خرج يريد بني المصطلق وهم
يطن من خزاعة وكان بلغه أنهم يجمعون له ، وقائدهم الحرث بن ضرار فلما
سمع عليه السلام بهم خرج اليهم حتى لقيهم على ماء لهم يقال لهم الريسيع
من ناحية قديد إلى الساحل فتزاحف الناس واقتتلوا فانهزمت خزاعة وحاز
المسلمون أموالهم وأبناءهم ونساءهم فقسم السبي في المسلمين وفيه جويرة بنت
الحرث رئيس القوم

ويظهر انه عليه السلام كان يميل لمن على السبي وإطلاقه فتزوج جويرة
بنت الرئيس فخرج الخبر الى الناس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج

جويرية بنت الحارث فقال الناس أصهار رسول الله وأرسلوا ما بأيديهم
 قالت عائشة فلقد اعتق بتزوجه إياها مئة أهل بيت من بني المصطلق
 فما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها
 الحديبية

أقام عليه السلام بالمدينة إلى ذى القعدة من سنة ٦ وفيه خرج يريد مكة
 معتمراً لا يريد حرباً وساق معه الهدى وأحرم بالعمرة ليأمن الناس من
 حربه وليعلموا أنه إنما خرج زائراً لهذا البيت ومعظما له وكان قد أراد الله في منامه
 أنه هو وأصحابه يدخلون المسجد الحرام آمنين : فسار بهم حتى بلغ الحديبية
 وكانت قريش قد سمعت بمسيره إلى مكة فتأهبوا للذود عنها

ولما اطمأن به المقام جاءه بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من خزاعة
 يسألونه عن سبب مجيئه ؟ فاجابهم انه لم يأت يريد حرباً وإنما جاء زائراً للبيت
 معظماً له فرجعوا إلى قريش وأعلموهم بذلك فاهمهم قريش وجهه ثم قالوا
 وإن كان جاء لا يريد قتالاً فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبداً ولا نتحدث بذلك
 عند العرب ١١ ثم بعثوا إليه رسولا آخر من بني عامر فأخبره عليه السلام بمثل
 ما أخبر به بديلاً ثم بعثوا إليه الحليس بن علقمة الكناني سيد الاحابيش
 فلما رآه عليه السلام قال هذا من قوم يتألهون فابعثوا الهدى في وجهه حتى
 يراه فلما رأى الهدى يسيل عليه من عرض الوادي رجع إلى قريش ولم يصل
 إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إعظماً لما رأى فقال لهم ذلك فقلوا إجلس
 فإنا انت اعرابي لا علم لك فغضب الحليس عند ذلك وقال يا معشر قريش
 ما على هذا حالكم أيعبد عن البيت من جاء معظماً له ؟ والذي نفس الحليس

فبيده لتخلن بين محمد وبين ما جاء له أو لنفرن بالاحابثش نفرة رجل واحد فقالوا له مه - كف عنا يا حليس حتى نأخذ لانفسنا ما رضى به . ثم بعثوا له عروة ابن مسعود الثقفي وأمه سبيعة بنت عبد شمس فخرج حتى جاءه ، وقال له يا محمد أجهت أو شاب الناس ثم جئت بهم الى بيضتك لتفضها بهم إنها قریش قد خرجت معها العوذ المطافيل قد لبسوا جلود النمر يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبداً وإيم الله لكاني بهؤلاء قد انكشفوا عنك . ولما كانت هذه الكلمة شديدة لا يحتملها المسلمون نال منه أبو بكر ثم كلمه عليه السلام بما كلم به أصحابه واخبره انه لم يأت يريد حرباً وقد هال عروة ما رآه من شدة احترام المسلمين لرسول الله صلى الله عليه وسلم ومحبتهم له فرجع الى قریش وقال لهم بامعشر قریش قد جئت كمرى في ملكه وقيصر في ملكه والنجاشي في ملكه وإني والله مارأيت ملكاً في قوم قط مثل محمد في أصحابه . ولقد رأيت قوما لا يسمونه لشيء أبداً فروا رأيكم

دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم - بعد ذلك عمر بن الخطاب ليرسله الى قریش حتي يبلغهم عنه ما جاء من أجله فقال عمر يا رسول الله اني أخف قریشاً على نفسي وليس بمكة من بني عدى أحد يمني وقد عرفت قریش عدواني لها وغلظتي عليها ولكني أدلك على رجل أعز بها مني عثمان بن عفان فدعا عليه السلام عثمان فبعثه الى أبي سفيان وأشراف قریش يخبرهم انه لم يأت الحرب وإنما جاء زائراً لهذا البيت ومعظما له فخرج عثمان الى مكة فلقبه ابن سعيد بن العاص ابن أمية حين دخل مكة فحمله بين يديه ، ثم أجاز دحتى يبلغ الرسالة فبلغها ثم قالوا له إن شئت أن تطوف بالبيت فطف فقال ما كنت لأفعل حتى يطوف

رسول الله صلى الله عليه وسلم واحتبست قريش عندها عثمان فشاع بين المسلمين أن عثمان قتل ، فلما بلغت تلك الاشاعة رسول الله قال لا تبرح حتى تنأجر القوم ثم دعا أصحابه إلى البيعة فبايعوه بيعة الرضوان - تحت الشجرة - على أن لا يفروا ثم تبين بعد ذلك بطلان تلك الاشاعة

بعثت قريش بعد ذلك سهيل بن عمرو العامري وقالوا له إئت محمداً قصالحه ولا يكن في صلحه الا أن يرجع عنا عامه هذا فوالله لا نتحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبداً : فأتاه سهيل بن عمرو ، فلما رآه عليه السلام قال أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل فجاء سهيل وتكلم مع الرسول في أمر الصلح واتفقا على قواعده وهي هذه :

(١) إن الرسول يرجع من عامه فلا يدخل مكة ، وإذا كان العام القابل دخلها المسلمون فأقاموا بها ثلاثاً معهم سلاح الرأكب السيوف في القرب بعد أن تخرج منها قريش

(٢) وضع الحرب بين الطرفين عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف

بعضهم عن بعض

(٣) من أتى محمداً من قريش من غير إذن وليه رده عليهم ومن جاء

قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه

(٤) من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ومن أحب أن

يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه

ثم دعا علياً ليكتب الكتاب بذلك فأملى عليه بسم الله الرحمن الرحيم فقال سهيل اكتب باسمك اللهم فأمره عليه السلام بذلك ثم أملى هذا ما صالح

عليه محمد رسول الله فقال سهيل لو شهدت أنك رسول الله ماقاتلتك ولكن
أكتب اسمك واسم أبيك فقال عليه السلام أكتب هذا ما صالح عليه محمد بن
عبد الله سهيل بن عمرو . ولما كتبت الصحيفة دخلت خزاعة في عهد رسول
الله صلى الله عليه وسلم ودخلت بنو بكر في عهد قريش

وبينا الكتاب يكتب إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف
في قيوده قد انقلت الى المسلمين فلما رأى سهيل ابنه قام اليه وأخذ بتلايته
وقال يا محمد قد لجت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا قال صدقت
وأبو جندل ينادى يا معشر المسلمين أأرد الى المشركين يفتنونني في ديني
ولم تكن هناك حيلة الا أن يرد أبو جندل - عملاً بوثيقة الصالح - عملاً
بالآية الكريمة (وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر الا على قوم
بينكم وبينهم ميثاق)

كانت حال بعض المسلمين عند ما انتهى الصلح شديدة لما رأوه من
رجوعهم دون أن يطوفوا بالبيت ، وقد كانوا لا يشكون في ذلك لما كان رؤيا
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم لما رأوه من هذه الشروط التي رضىها عليه
السلام وظن بعضهم أنها لا تليق بالمسلمين حتى أن عمر بن الخطاب رضى الله
عنه قال يا رسول الله أأست برسول الله ؟ قال بلى قال أولسنا بالمسلمين ؟ قال
بلى قال أوليسوا بالمشركين ؟ قال بلى قال فعلام نعطي الدنية في ديننا قال أنا
عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعني

لم يبق بعد ذلك الا أن يتحلل المسلمون من عمرتهم بنحر الهدى وحلق
الرؤوس أو تقصيرها فنحر عليه السلام وحلق فتواثبوا الى هديهم ينحرون

ثم خلقوا رؤوسهم : أنزل الله في هذه الحادثة سورة الفتح بأسرها
وقد سميت في أولها هذه الحادثة فتحاً مبيناً وذلك واضح فإن الناس
أمن بعضهم بعضاً بسببها وأمن طريق الدعوة التي ما كانت كل هذه الحروب
الا لتأمينها فتفرغ عليه السلام لمكاتبة الملوك ورؤساء العشائر يذهب رسله
ويؤوبون وهم آمنون من شر قريش ومن شر حلفائهم والذي ضحي في نيل
ذلك إنما هو شيء قليل جداً وليكن الناس لا يصبرون — ثم ذكر في
السورة البيعة فجعل الذين يبايعونه إنما يبايعون الله ووعد الموفى وأوعد
الناكث ، ثم تكلم عن أمر الأعراب الذين تخلفوا عنه حينما خرج إلى
الحديبية وأبان ما سيحدثون به ووبخهم على ما فعلوا لأنه لم يقبل اعتذارهم
ثم أعلن رضاه عن أصحاب بيعة الشجرة ، ثم بين للناس الأسباب التي من
أجلها امتنع الرسول عن الحرب — ثم تكلم عن رؤيا رسول الله فقال (لقد
صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين
محلقي رءوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك
فتحاً قريباً) ثم ختم السورة بوصف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم
وتمثيلهم أحسن تمثيل

بهذه الهدنة أمن المسلمون شر قريش وصارت لهم الحرية يسرون
حيث شاءوا الا أنهم كان لهم عدو بالقرب منهم يترصد بهم الدوائر وذلك
العدو هم أهل خيبر الذين لا ينسون ما حل بهم وباخوانهم فصمم عليه السلام
على المسير اليهم والاستراحة منهم

فخرج في محرم السنة السابعة حتى حل بساحتهم ونازل حصونهم وصار

يفتحها منهم حصنا حصنا حتى جاء على آخرها وصالح أهلها على أن يبقوا فيها
ويدفعوا نصف ما يخرج من أرضهم وإذا شاء المسلمون أخرجوهم ويهدون
الأنهى من خيبر ذهب إلى وادي القرى فحاصر أهله ليالي ثم عاد إلى المدينة
بعد أن صالحه أهل فدك على مثل صالح أهل خيبر

وفي يوم فتح خيبر قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحبشة
بقية من كان بها من المهاجرين ، وفي مقدمتهم جعفر بن أبي طالب وكان
قدومهم على أثر بعث الرسول إلى النجاشي عمر بن أمية الضمري يطلب توجيههم
إليه فأسلمهم للنجاشي على مركبين وكانوا ستة عشر رجلا معهم من بقي من
نسائهم وأولادهم وبقيتهم جاءوا إلى المدينة قبل ذلك

ولما حال الحول على عمرة الحديبية خرج عليه السلام بأصحابه الذين
صدوا في العام الماضي ليقضوا تلك العمرة التي فاتتهم حسب عهدة الحديبية
فوصل إليها في ذي القعدة من السنة السابعة وحينئذ خرج منها أهل مكة
ودخلها المسلمون ، وكانت قريش تتحدث أن أصحاب محمد في جهد وشدة
ووقفوا أمام دار الندوة مصطفين ينظرون حال المسلمين فلما دخل عليه السلام
المسجد اضطبع بردائه وأخرج عضده اليمنى وقال رحم الله أمراً أراهم اليوم
قوة من نفسه ثم استلم الركن وخرج يهرول ويهرول أصحابه معه حتى إذا
واراء البيت منهم واستلم الركن اليماني مشى حتى يستلم الحجر الأسود ثم هرولا
كذلك ثلاثة أطواف ومشى سائرهما

ثم أقام عليه السلام بمكة ثلاثاً ثم انصرف إلى المدينة في ذي الحجة

مؤتة

كان من ضمن رسل النبي عليه السلام الحارث بن عمير الازدي ، وكان رسولا الى هرقل فقتله شرحبيل بن عمرو الفسائي فكان ذلك شديداً على رسول الله فجهز تلك السرية للقصاص ممن قتله وكان عدتها ثلاثة آلاف نفر وكان رئيس السرية زيد بن حارثة ، وقال لهم عليه السلام إن قتل زيد فرئيسكم جعفر بن أبي طالب ، فإن أصيب فرئيسكم عبد الله بن رواحة ، فخرجوا في جمادي الاولى سنة ٨ حتى نزلوا معان من أرض الشام فبلغ الناس أن هرقل (١) قد نزل مآب من أرض البلقاء في مئة ألف من الروم وانضم اليهم من عرب الشام مثلهم فأقام المسلمون ليلتين في معان ثم شجعوا أنفسهم على الهجوم على ذلك العدو ، وهم في العدد القليل ، فساروا حتى اذا كانوا بتخوم البلقاء أقيمتهم جموع هرقل بقرية من قرى البلقاء يقال لها مشارف فاحاز المسلمون الى قرية يقال لها مؤتة ثم التقى الناس فاقتتلوا فقاتل زيد بن حارثة حتى قتل فاخذ الراية جعفر بن أبي طالب فقاتل حتى قتل فأخذ الراية عبد الله بن رواحة فما زال يقاتل حتي قتل فاخذ الراية رجل من المسلمين وطلب منهم أن يصطالحوا على أمير لهم فاتفقوا على خالد بن الوليد ، وفي ذلك الوقت أظفر مهارته في تخليص المسلمين مما ورطوا أنفسهم فيه ، وصار يتأخر بهم قليلا قليلا — مع حفظ نظام جيشه ولم يتبعه الروم لانهم ظنوا أنه يخدعهم حتي

(١) في تاريخ هرقل أنه قدم أورشليم ٦٢٩ ميلادية بعد انتصاره على الفرس ابشكر الله علي ما قبضه له من النصر ورد الخشبة المقدسة التي كانت الفرس قد استلبوها وطرد اليهود من أورشليم ولعله علم حينذاك بورود المسلمين فسار اليهم أو أنقذ لهم بعض قواده ليردوهم

يرمي بهم في الصحراء ثم عاد خالد بذلك الجيش الى المدينة . وعندنا أن تلك
الاعداد التي يذكرها المؤرخون لحنود الروم والعرب الذين معهم مبالغ فيها
لان غاية ما رآه المسلمون أنهم رأوا عدداً كثيراً امامهم ولا يمكن بحال ان
يعطوه قدره الحقيقي له وثلاثة آلاف عدد قليل جداً في جانب متى ألف
لا تمكنهم المقاومة بحال والمؤرخون اذا عدوا من قتل في هذه الموقعة لا يزيدون
عن اثني عشر رجلاً ومن المحال أن يصدم جيش عظيم القدر بجيش نسبته
اليه ضئيلة ثم لا يقتل في الميدان الا اثنا عشر نفرًا
فتح مكة

كانت بطون خزاعة قد دخلت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم
— كما قدمنا — وبكر دخلت في عهد قريش وكان بين الحيين في الجاهلية
دماء ، فلما كانت الهدنة اغتصمتها بنو الديل من بني بكر وأرادوا ان
يصيبوا من خزاعة ثأرهم فخرجوا وقائدهم نوفل بن معاوية الديلي ورفدتهم
قريش بالسلاح ، وخرج منهم نفر يساعدون بانفسهم فانضموا الى صفوف
بني بكر وقاتلوا خزاعة حتى تهرموا منهم بالحرم بعد ان اصابوا فيهم فخرج
من خزاعة عمرو بن سالم الخزاعي حتى قدم على الرسول بالمدينة فوقف عليه
وهو جالس في المسجد فانشده شعراً يخبره فيه بنقض قريش لعهدهم
ومظاهرتهم لبني بكر على خزاعة ، ويطلب منه النصح وفاء بالعهد ، ثم خرج
بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من خزاعة حتى أتوا رسول الله فخبروه بما
نقضت قريش من العهد ، ثم انصرفوا راجعين الى المدينة . أحست قريش
بما فعلت وعلمت أن الخبر لا بد أن يصل الى المسلمين فرأى أبو سفيان

أن يسير الى المدينة ليشد العقد ويزيد في المدة فلم ينجح ، وكان حبيثه - على هذه الصورة - مما أكد الخبر عند رسول الله والمسلمين فأمرهم أن يتجهزوا الى مكة وأمرهم بالجد والتهيؤ ولم يكن يحب أن تعلم قريش بمسيره فكتب حاطب بن أبي بلتعة كتابا الى أهل مكة يخبرهم بمسير المسلمين وأرسله مع امرأة فعلم بذلك عليه السلام فأرسل اليها من جاء بالكتاب منها وسأل حاطبا عن سبب كتابه هذا الكتاب فاعتذر وقبل عذره وكانت عدة من خرج في هذا الجيش عشرة آلاف رجل وكان خروجهم لعشر مضين من شهر رمضان سنة ٨ (أول يناير سنة ٦٣٠) فساروا حتى نزلوا بحر الظهران قريبا من مكة

كانت قريش محسة بأنه لا بد من شيء بعد أن فعلت ما فعلت ولكن عميت عليهم الاخبار فلم يعاموا بشيء من مسير المسلمين اليهم. وبينما المسلمون بحر الظهران خرج أبو سفيان وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء يتجسسون الاخبار فظفرت بهم جنود المسلمين . وكان أول من لقي أبا سفيان العباس ابن عبد المطلب فأردفه على عجز بغلته وسار به سيراً حثيثاً ليستأمن له الرسول وخاف أن يسرع اليه من يبغيه فيه فلما وصل العباس وأبو سفيان الى خيمة الرسول وجد عمر قد سبقه وهو يطلب أن يأمر بقتل أبي سفيان فقال العباس يا رسول الله قد أمنتته فقال للعباس اذهب به إلى رحلك فاذا أصبحت فأنتى به فذهب به حتى اذا كان الصباح غدا به فقال الرسول لأبي سفيان ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله الا الله؟ قال بأبي انت وأمي ما أحلمك وأوصلك وأكرمك والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره

لقد أغنى عنى شيئاً بعد قال ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك ان تعلم أني رسول الله ؟ قال بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك أما هذه فإن في النفس منها حتى الآن شيئاً ، وبعد كلام وحوار أسلم أبو سفيان وشهد شهادة الحق فقال العباس يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً فقال عليه السلام من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن أغلق عليه باباه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ، ثم أطلق فذهب الى مكة مسرعاً ونادى بأعلى صوته يامعشر قريش محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم وأعلن لهم كلمة الرسول فتفرق الناس الى دورهم والى المسجد ، ثم سار عليه السلام بجذوده حتى دخل من أعلى مكة ولم يحصل بين المسلمين وقريش المناوشات لا تستحق الذكر ، فلما نزل مكة واطمأن الناس سار الى البيت فطاف به سبعة على راحلته ثم أخذ مفتاح الكعبة من حاجبها عثمان بن طلحة اليشبي ثم وقف على باب الكعبة وقال لا إله الا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى به فهو تحت قدمي هاتين الاسدان البيت وسقاية الحاج ثم قال يامعشر قريش ان الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء : الناس من آدم وآدم من تراب . ثم قال يامعشر قريش ما تظنون أني فاعل بكم قالوا خيراً أخ كريم وابن أخ كريم قال

اذهبوا فانتم الطلقاء

ثم رد مفتاح الكعبة الى سادنها فهي في أعقابها الى اليوم . ثم دخل البيت فأزال ما به من الصور والتماثيل المختلفة

وأمر حين — دخوله مكة — بقتل أفراد ذوي جرائم خاصة بهم فقتل
أكثرهم ودخل في الاسلام في هذا اليوم معظم قريش لم يتخاف منهم
الا القليل ثم أساموا بعد: يعتبر فتح مكة حداً فاصلاً بين المدة السابقة عليه
وبين ما بعده فإن قريشاً كانت في نظر العرب حماة الدين وأنصاره والعرب
في ذلك لهم تبع يخضوع قريش يعتبر القضاء الأخير على الدين الوثني في
جزيرة العرب
أمر حين

الا أن بطون هوازن رأت من نفسها عزاً وأنفة أن تقابل هذا الانتصار
بالخضوع فاجتمعت الى مالك بن عوف النضري ودخل معهما في ذلك بطون
ثقيف وكاهن من قيس عيلان وأجمعوا أمرهم على المسير الى حرب المسلمين ،
فلما سمع بهم رسول الله خرج اليهم ومعه اثنا عشر ألفاً وهو أكثر جند
خرج به فلما استقبلوا وادي حنين وشرعوا ينحدرون فيه كانت هوازن
وثقيف قد كنوا في شعابه فشدوا على المسلمين شدة رجل واحد قبل أن
يهيئ هؤلاء صفوفهم فانشمر الناس راجعين لا يلوى أحد على أحد فأنحاز عليه
السلام جهة اليمين وهو يقول هلموا الى أيها الناس أنا رسول الله أنا محمد بن
عبد الله ولم يبق معه في موقفه الا عدد قليل ! فقال للعباس عمه وكان جهير
المصوت أصرخ يا معشر الانصار يا معشر أصحاب السمره فأجابوا لبيك لبيك
فيذهب الرجل ليثني بعيره فلا يقدر عليه فيأخذ درعه فيقذفها في عنقه ويأخذ
سيفه وترسه ويقتحم عن بعيره ويخلى سبيله فيؤم الصوت حتى اذا اجتمع
اليه منهم مئة استقبلوا الناس فاقتتلوا ثم تلاحق بهم من كانوا تركوا الموقعة

وكانت حدة العدو قد انكسرت فلم تكن الا ساعات قلائل حتى هزموا
عدوهم هزيمة منكرة وقتل من ثقيف - وخدمهم - نحو السبعين، وحاز المسلمون
ما كان مع العدو من مال وسلاح وظعن

ولقد أنزل الله في هذه الموقعة في سورة التوبة « لقد نصركم الله في
مواطن كثيرة ويوم حنين إنا عجبناكم كثرتم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت
عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ثم أنزل الله سكينة على رسوله
وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء
الكافرين »

وبعد انتهاء حنين سار عليه السلام إلى ثقيف بالطائف فحاصروهم مدة ،
ثم عاد عنهم بدون أن يفتح العائف فسار حتى نزل الجعرانة فأتاه هناك وفد
من هوازن مسامين فقالوا يارسول الله انا أصل وعشيرة ، وقد أصابنا من
البلاء ما لم يخف عليك فن علينا من الله عليك وقال له رجل من هوازن انما
في الحظائر عمامتك وخالاتك وحواضتك اللاتي كن يكفلنك ولو أنا ملحننا
للحارث بن أبي شمر الغساني أو للنعمان بن المنذر ثم نزل بنا بمثل الذي نزلت
رجونا عطفه وعائده علينا وأنت خير المكفولين فقال لهم عليه السلام
أبناءؤكم ونساءؤكم أحب اليكم أم أموالكم فقالوا أخيرتنا بين أموالنا وأحسابنا
بل ترد الينا نساءنا وأبناءنا فهو أحب الينا فقال لهم أما ما كان لي ولبي عبد المطلب
فهو لكم واذا أنا صليت الظهر بالناس فقوموا فقولوا انا نستشفع برسول
الله الى المسلمين وبالمسلمين الى رسول الله في أبنائنا ونسائنا فسأعطيك عند
ذلك وأسأل لكم فلما صلى الظهر قاموا فتكلموا بمثل ما قال لهم فقال لهم

عليه السلام أما ما كان لي ولبنى عبد المطلب فهو لكم فقال المهاجرون
والانصار ما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم وبذلك رد عليه السلام
الى هوازن أبناءهم ونساءهم ثم وفد عليه بعد ذلك مالك بن عوف فرد عليه أهله
وماله وأعطاه فوق ذلك مئة من الابل فحسن اسلامه واستعمله عليه السلام
بعد ذلك معتمراً من الجعرانة فأدى العمرة وانصرف بعد ذلك راجعاً الى
المدينة بعد أن ولي على مكة عتاب بن أسيد وكان رجوعه الى المدينة لست
ليال بقيت من ذي القعدة

تبوك

أقام عليه السلام بالمدينة الى رجب من السنة التاسعة وفيه أمرهم أن
يتجهزوا لغزو الروم الذين سبقت منهم وقعة زيد بن حارثة ومن أصيب معه
في مؤتة ويسمي هذا الجيش بجيش العسرة لأن التأهب لها كان في زمن
عسرة من الناس وشدة من الخروج جذب من البلاء وحين طابت الثمار والناس
يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم ويكرهون الشخوص على الحال من الزمان
الذي هم فيه فتجهز الناس وأنفق الكرام ما يتجهز به ضعفاء الحال ولما تجهز
الجيش خرج بهم عليه السلام حتى وصل تبوك وهناك جاءه ليحظة بن رؤبة
صاحب أيلة فصالح الرسول وأعطاه الجزية واتاه اهل جرباء واهل اذرح
فأعطوه الجزية فكتب ليحظة (بسم الله الرحمن الرحيم هذه امانة من الله
ومحمد النبي رسول الله ليحظة بن رؤبة واهل ايلة سفنهم وسيارتهم في البر
والبحر لهم ذمة الله وذمة محمد النبي ومن كان معهم من اهل الشام واهل البحر
فمن احدث منهم حدثاً فانه لا يحول ماله دون نفسه وإنه طيب لمن اخذه من

الناس وانه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ولا طريقا يريدونه من بر أو بحر) ثم بعث وهو بتبوك خالد بن الوليد الى أكيدر دومة فذهب اليه وأسره وجاء به الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فحقن له دمه وصالحه على الجزية ثم خلى سبيله فرجع الى قريته وأقام المسلمون بتبوك بضعة عشرة ليلة ثم انصرف قافلا الى المدينة وحديث هذه الغزوة وما كان فيها قصه الله في سورة التوبة

وهذه الغزوة آخر مرة خرج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم محارباً

التشريع في المدينة

بيننا فيما سبق أن الذي نزل بالمدينة من القرآن احدى وعشرون سورة

وهو يبلغ نحو ثلث القرآن

ويمتاز المدني من القرآن عن المكي منته بامرين (الاول) ما فيه من قصص الغزوات وأسبابها وما كان فيها مما يصح أن يكون درساً نافعا للمسلمين (الثاني) ما تناول من الشرائع الاجتماعية والدينية ونعني بالدينية ما شرعه ليكون أساساً لمعاملات الناس بعضهم مع بعض

الشرائع الدينية

(١) الصلاة لم يزد الكتاب في تفصيلها شيئاً إلا أنه شرع صلاة الجمعة في اليوم الذي اختير ليكون خاصاً بالمسلمين وقد ورد ذكر هذه الصلاة في سورة سميت بالجمعة وشرع صلاة الخوف في حال تقابل الصفوف وقدينتها في سورة النساء : ثم زاد المسلمين حثاً على اقامة الصلاة والمحافظة عليها

(٢) الصيام شرع في المدينة في السنة الثانية وميز به رمضان لانه الشهر

الذي نزل فيه القرآن لأول مرة وقد بين ذلك في سورة البقرة

(٣) الحج شرع في المدينة في السنة السادسة وقد بين الحج في موضعين من سورة البقرة (الاول) في قوله تعالى (إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه ان يطوف بهما ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم) (الثاني) في قوله (وأتموا الحج والعمرة لله) إلى قوله (فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون) وذكره في سورة آل عمران من قوله (ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً)

وقد بين في سورة الحج المكية شيء من تاريخ الحج والغاية منه (ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الانعام) الآيات ولم يحج عليه السلام الا في السنة العاشرة من الهجرة وتسمى حجته بحجة الوداع لانه ودع فيها الناس وقال لهم لعل لا ألقاكم بعد عامي هذا وأوصاهم فيها بكثير من الوصايا وبين لهم تفاصيل الحج عملاً

(٤) الزكاة لم يرد في تفصيلها في الكتاب شيء جديد وانما بينها السنة وبين القرآن مصارفها في سورة التوبة

الشرائع الاجتماعية

كننا نحب أن نجعل في مقدمتها الزكاة والحج ولكن لما كان فقهاؤنا يمدونها من العبادات لم نستجز أن نخالفهم والا فواضح انهما من الشرائع الاجتماعية لان الغرض من الزكاة إعانة الاغنياء للفقراء فهي أمر مالي محض والمقصد من الحج أن يكون موفداً عاماً يشهد فيه المسلمون منافعهم ويذكرون اسم الله

ماورد في الكتاب من الشرائع الاجتماعية ثلاثة انواع
الاول — مايتعلق بالبيوت وتكوينها ونظامها وهو الذي يسميه الناس
الآن أحوال شخصية وهذا الاسم ترجمة حرفية للفظ الافرنجي ~~واي~~ كنا
لا نستجيز اطلاق هذا الاسم عليه لأن نظام البيوت ليس بالامر الشخصي
الذي ترجع أوامره ونواهيها الى الشخص وحده وانما هو أمور اجتماعية
عامة وهي أليق المشروعات باسم الاحوال الاجتماعية العائلية ان رضى لنا
أهل اللغة باسم العائلة والا سمينها الاحوال البيتية لأنها ترجع الى تكوين
البيت ونظامه

الثاني — مايتعلق بمعاملات الناس بعضهم مع بعض

الثالث — مايتعلق بالقصاص والحدود

نظام البيوت

(١) الزواج : شرع القرآن الزواج وسمي عقده (ميشاقا غليظاً)
وامتن على الناس بأن جعل بين الزوجين (مودعة ورحة) وجعل كلام الزوجين
لباساً للآخر (هن لباس لكم وأنتم لباس لهن) ومعنى هذا أنكم تسكنون
اليهن ويسكن إليكم كما قال جعل لكم الليل لباساً أي تسكنون فيه

(٢) حرم التزوج بنساء يبنهن فنهى في البقرة عن تزوج المشركات
وتزويج المشركين ، نهى في سورة النساء عن تزويج نساء يبنهن من أول
قوله تعالى ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء الايات

وأجاز في سورة المائدة تزوج المحصنات من أهل الكتاب
أباح التزوج بأكثر من واحدة الى أربع ولكنه اشترط لذلك أن

لا يكون المتزوج خائفاً من عدم العدل فهو اذاً مأمور بالاقتصار على الواحدة والاسلوب الذي جاءت به آية إباحة التعدد مما يلفت نظر الانسان الى التنبيه جيداً لا امر العدل والاحتراس من التورط حتى لا يقع فيما نهى عنه الشارع فانهم بعد أن أمرهم بالمحافظة على أموال اليتامى كانوا يخفون من أمرهم والوصاية عليهم فقال لهم إن خفتم أن لا تقسطوا في اليتامى فمكذلك خافوا أن لا تعدلوا في النساء فلا تنكحوا من تخفون معه من عدم العدل وعبر عن ذلك المعنى بقوله (فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع) يعني إن أمنتم أن تعدلوا فانه قال بعد (فان خفتم أن لا تعدلوا فاحدة) ومما يلفت النظر أنه قال في السورة نفسها (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة)

(٣) أمر باعطاء النساء مهراً عند الزوج (وآتوا النساء صدقاتهن نحلة) ولكنه لم يجعل لهذا المهر حداً معيناً يبتدىء به ولا ينتهي اليه

(٤) العشرة : كثر في القرآن وصاية الرجل بالمعروف في معاشرته امرأته (فامساك بمعروف) البقرة ٢٢٩ (فامسكوهن بمعروف) البقرة ٢٣٠ والطلاق ٣ وجعل للرجل الرياسة في البيت (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم) وهذه الرياسة لا تجعل له امتيازاً في الحقوق فان الكتاب يقول (ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة) فهذه تسوية واضحة توجب على الرجل أن يؤدي لها من الحقوق مثل الذي يطلب منها من الواجبات وله درجة الرياسة جمع ذلك في جملة وجيزتهي أساس كبير لكل نظام يكون لحياة الزوجين

اهتم الكتاب كثيراً بأمر عقدة الزواج حتى لا تنحل بسبب ما يحصل بين الزوجين من النفور فأول الأمر شكك الزوج في وجدانه إذا أحس من نفسه بكراهة لزوجته فقال مخاطباً الأزواج (وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً) وأي زوج لا يتأثر مما ذكره الله بشكل توقع فانه توقع الخير الكثير ممن يكرهها الرجل ثم أباح للرجل أن يؤدب الزوجة إن بدا منها النشوز وتعدت الحدود المشروعة

ثم خاطب المسلمين أنهم إن خافوا شقاقاً بين الرجل وزوجه أن يبعثوا حكماً من أهلهما وحكما من أهله لاسعي في التوفيق حتى لا تنفصم عروة الزوجية وضمن التوفيق بين الزوجين إذا كان الحكماء يريدان اصلاحاً فقال (وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدوا اصلاحاً يوفق الله بينهما)

وإذا لم يقف بعد ذلك الزوجان عند الحدود المشروعة كان الطلاق أمراً لا بد منه لئلا تكون العيشة تنغيصاً عليهما (وان يتفرقا يغن الله كلا من سعته) وشرع في الكتاب نظاماً للطلاق لو اتبع - كما جاء - لأفاد المسلمين وأزال عنهم وصمات شائنة هي لاصقة بهم ماداموا على حالهم

بين ذلك النظام في سورتين من الكتاب أحدهما البقرة وقد جعل فيها الطلاق مرتين يخير الإنسان بعدهما بين الأمساك بالمعروف والتسريح بالإحسان ثم الثالثة تكون بعدها الفرقة المؤبدة لأن ذلك دليل على عدم ائتلاف القلوب وزوال السعادة مع تلك الحياة فتتظر المرأة زوجاً غيره فربما

ورضيته ورضيها فان حصلت فرقة بين الزوجة وزوجها الثاني وظنت هي وزوجها الاول ان في امكانهما أن يقيما حدود الله فلا جناح عليهما إذا تراجعا (فان طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله)

جعل للطلاق مدة تحصل الفرقة الفعلية بعدها ان لم يبدل الزوج أن يعود الى عشرة زوجته باحسان (وبعولتهن أحق بردهن في ذلك ان أرادوا اصلاحا) وحتم أن هذه المدة تقيمها المرأة في بيتها الذي كانت تعيش فيه مع زوجها لا تخرج ولا تخرج الا أن كانت بذينة اللسان وذلك هو المراد بالفاحشة المبينة . اقرؤا ان شئتم سورة الطلاق وتأملوا قوله في حكمة بقائها في بيتها (لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً) ثم قال (فاذا بلغن أجلهن فامسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف وأشهدوا ذوي عدل منكم وأقيموا الشهادة لله) لم يكتف الشارع بذلك بل أمر للمرأة اذا طلقت بمتمعة عوضا عما يكون قد نالها من الاذى بسبب هذه الفرقة فقال (ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين) وقال (وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين) وقال « فمتعوهن وسرحوهن سرا حايلا » وقال « وان اردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم احداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم الى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا »

فلا نرى الكتاب اهتم بامر كما اهتم بالمحافظة على العشرة الزوجية بما

وضعه من هذا النظام

« ٥ » فصل الكتاب أمر الميراث وجعل للنساء منه نصيبا مفروضا بعد

ان كانت العرب لا تورث النساء فهدم قاعدتهم بقوله « الرجال نصيب مما ترك الولدان والاقربون وللنساء نصيبا مما ترك الولدان والاقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا » ثم بين تلك الانصباء بيانا تاما في سورة النساء

(٦) اهتم الكتاب بأمر اليتامى فأمر بالمحافظة على أموالهم ونهى عن أكلها وجعل الذين يأكلونها إغما يأكلون في بطونهم نارا وبين الوقت الذي يؤتون فيه أموالهم كل ذلك مبين في أول سورة النساء كما بين أموال السفهاء الذين لا يمكنهم ان يحسنوا التصرف في أموالهم

بذلك وبامثاله وضع لهم اساس نظام عائلي قوي فالذين يقولون ليس في الاسلام اعتناء بذلك النظام نراهم ابتعدوا جداً عن معرفة ما اشتمل عليه الكتاب



المحاضرة السادسة عشرة

المعاملات - الحدود - الدعوة ونتائجها

المعاملات

جمع الكتاب أساس المعاملات في مواضع من كتابه

(١) أمر أمراً عاماً بالوفاء بالعقود وهي كلمة تشمل جميع الالتزامات

التي يلتزمها الإنسان للإنسان

(٢) نهى عن أكل أموال الناس بالباطل والادلاء بها إلى الحكام

وأباح الربح من التجارة (إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم)

(٣) نهى عن أكل الربا أشد نهى ومثل آكله أشنع تمثيل كآثرونه

في سورة البقرة

(٤) يبين شكل التعامل في أطول آية من القرآن وهي آية الدين أمر

فيها أمراً مؤكداً بكتابة الدين والاستشهاد عليه وقال فيها (ولا تساموا أن

تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى

أن لا ترتابوا إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح

أن لا تكتبوها) ثم جعل الرهن وثيقة بما في الذمة ان لم يجدوا كاتباً ثم

وكلهم إلى أنفسهم وضمهم إن أمن بعضهم بعضاً وأمر من أوثمن أن

يؤدي أمانته

هذه هي الاصول العامة التي اعتنى الكتاب بوضعها

وقد نبه بعد ذلك على آداب اجتماعية منها :

(١) آداب الاستئذان وقد بينها في سورة النور في موضعين (الاول) (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسألوا على أهلها ذلکم خير لکم لعلکم تذكرون فان لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لکم وان قيل لکم ارجعوا فارجعوا هو أزکی لکم والله بما تعملون علیم ليس علیکم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسکونة فيها متاع لکم والله یعلم ما تبدون وماتکتُمون) (الثاني) في آخر السورة حيث يقول (يا أيها الذين آمنوا لیستأذنکم الذین ماسکت ایمانکم والذین لم یبلغوا الحلم منکم ثلاث مرات) الى آخر الآيتين

(٢) نهی النساء عن أن یبدین زینتهن الا ماظهر منها وهو ما كان على الاعضاء الظاهرة وأمرهن أن یضربن بخمرهن على جیوبهن وقد أباح ابداء الزينة بمحضر أقاربهن سہم في سورة النور وأمرهن في الاحزاب بأدناء الجلباب لیكون شعاراً للحرائر حتى لا یتعرض لهن أحد في طریقهن كما یفعل ذوو الدعارة

(٣) أمر في التحية أن یحيا الانسان یاحسن تحية أو بمثلها الى غير ذلك من الاداب الخلقية التي بها يتم تعاطفهم وإفهم الحدود والقصاص

شرع الكتاب القصاص ، واثبت في سورة الاسراء أن من قتل مظلوما قد جعل الدين لولیہ السلطان ونهاه أن یسرف في القتل وكان ولی

الدم عند العرب اقرب عاصب للانسان (ويتولاه الآن ذو الولاية العامة فهو الذي صار له الحق ان يقيم دعوى القصاص وغيرها لان العصبية العربية لم يعد لها أثر) وبين في البقرة أن كتب القصاص في القتل وان القصاص لا ينبغي أن يتجاوز القاتل فالحر يقتل بالحر ولا يقتل به غيره مهما تكن قيمة القاتل والعبد يقتل بالعبد ولا ينبغي أن يتجاوز ذلك الى ساداته والاثني بالاثني ولا ينبغي أن يتجاوز ذلك الى رجالها أو عصبتها ولم يمنع العفو ممن ثبت له الحق في القصاص وهو الولي وذكر الكتاب ان من الشرائع التي كتبها على قوم موسى القصاص فقال « وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والانف بالانف والاذن بالاذن والسن بالسن والجروح قصاص »

أما الحدود فقد ذكر منها ثلاثة « الاول » حد الزاني وقد جعله الكتاب مائة جلدة « الثاني » حد القذف وقد جعله الكتاب ثمانين جلدة وهذان الحدان في سورة النور « الثالث » حد السارق وقد جعله الكتاب قطع اليد « الرابع » حد قطاع الطريق وهم الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الارض فساداً أن يقتلهم الامام أو يصلبهم أو يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفئهم من الارض ، وقد ذكر الكتاب تلك العقوبات على شكل التخيير ولكن الفقهاء وزعوها على جرائم مختلفة وعلى كل حال فان الكتاب قال فان تابوا من قبل أن تقدرؤا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم وهذان الحدان في المائدة

هذه جملة صغيرة من النظام الذي شرعه الله في هذا الدين ليكون أساساً
(م - ١٤)

لأعمال المسلمين وقد قصدنا بذلك أن ترجعوا إلى هذا الكتاب لتتوسعوا

فيما أشرنا إليه

الدعوة وتأثيرها

هاجر عليه السلام من مكة والذين دخلوا في دينه جمع من قريش ومن حلفائهم ومواليهم وقليل غيرهم من سائر العرب ثم جماعة الأوس والخزرج من سكان يثرب وهم الذين سموا بالانصار وكان الاسلام يعمهم لولا توقف عدد قليل منهم تشابهت عليهم الطرق أو خافوا على سيادتهم أن يزيلها الاسلام فوقفوا وتبعهم فريق ممن لهم الرياسة عليه الا أنهم كانوا في الظاهر مشاركين المسلمين في الاسلام وأضرموا خلاف ما أظهروا فسيماهم المؤمنون باسم المنافقين ، ويظهر لي أن هذا الاسم من المحدثات الدينية فاني لم أر العرب تستعمل النفاق بهذا المعنى قبل الاسلام وكان الرسول يترفق بهؤلاء الناس حتى تخلص قلوبهم حتى انه لما مات عبد الله بن أبي بن سلول رأسهم صلى عليه وكفنه في قميص له ونزل في قبره مع أنه كان سبباً عظيماً في مصائب كثيرة ولكن الرسول كان يتألف قلوب القوم ويودلو يكون باطنهم كظاهريهم لان في هذه قوة كبرى

ودخل في الاسلام قليل من يهود المدينة كعبد الله بن سلام ومن سار على رأيه : كان عليه السلام يدعو الناس من سائر العرب يرسل اليهم الرسل ويكتب اليهم الكتب ولكن لم تكن النتيجة كبيرة قبل أن ينتهي الحال مع قريش ، ومما يزيد التردد عندهم أن الحرب كانت بين الفريقين سجالات فان انتصر المسلمون بيدر فقد انتصرت قريش بأحد ولم يظهر المسلمون في

الخنديق بمظهر من يقدر على مساواة قريش والوقوف أمامها وجهاً لوجه كل ذلك كان مما يجعل الدعوة في سائر العرب واقفة عند حد لا تتعداه

فلما كان صلح الحديبية أمن المسلمون شر قريش وما كانوا يتظاهرون به من الطعن في الدين الاسلامي فكان ذلك سبباً مهماً من أسباب النجاح لأن القرآن كان يهاجم عقولهم بأسلوبه البديع فيؤثر فيها وليس هناك ما يعارض هذا الأثر . حتى اذا فتحت مكة ودخلت قريش في الاسلام ثبت عند سائر العرب أن المسلمين لهم قوة تؤيدهم فان الظفر بيدت الله الحرام واكتساب السيادة فيه أمر عظيم في نظر العرب لم يكن ينال الا بمعونة من الله القادر الذي يعبد كل منهم فلانت شكيمتهم بعد الالباء وشرعوا يفدون على رسول الله صلى الله عليه وسلم أفواجاً قد دانوا بالاسلام ورضوا بما يوجب عليه من الفرائض العملية والمالية وتسمي السنة التاسعة سنة الوفود

فمن وفد عليه ثقيف . بعد أن انصرف عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون رأوا أن الاسلام عم من مجانبهم فأرسلوا عنهم وفداً يبايع الرسول على الاسلام وفي مقدمة الوفد عبد ياليل بن عمرو فلما قدموا عليه ضرب لهم قبة في ناحية مسجده ثم حادثوه فيما يريدون من الاسلام وطلبوا منه أشياء أباهم عليهم وأشياء أعطاهم اياها طلبوا اليه أن يعفيهم من الصلاة فقال لا خير في دين لا صلاة فيه وطلبوا منه أن لا يكسروا أوثانهم بأيديهم فأعفاهم من ذلك وبعث معهم أباسفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة لهدم طاغيتهم (اللات) وأمر عليهم عثمان بن أبي العاص منهم وكان أحدثهم سنّاً لانه كان أعلمهم وأوصاه قبل رحيله بقوله يا عثمان تجاوز في الصلاة وأقدر

الناس بأضعفهم فإن فيهم الكبير والصغير والضعيف وإذا الحاجة وكانت ثقيف
من أصدق القبائل إسلاماً

وممن وفد عليه بنو تميم وفد عليه أشرافهم منهم عطار بن حاجب بن
زارة والاقرع بن حابس والزبرقان بن بدر وعمرو بن الاهتم وقيس بن
عاصم ولما قدم هذا الوفد الى المسجد نادوا من وراء الحجرات أن اخرج
الينا يا محمد وفيهم نزل أول سورة الحجرات ولما خرج عليه السلام استأذنه
خطيبهم أن يتكلم فخطب مفتخراً بقومه وعشيرته فأجابه على خطبته قيس
ابن شماس خطيب المسلمين وقد أثنى في خطبته على المهاجرين والانصار ثناء
دينيًا . ثم قام شاعرهم فلقى كلمة يفتخر - وأولها

نحن الكرام فلا حي يعادلنا منا الملوء وفيما تنصب البيع
فقام حسان بن ثابت شاعر المسلمين وأجابه بقصيدة ربما كانت أحسن
ما قال حسان وأولها

إن الدوائب من فہر وإخوتہم قد بینوا سنة للناس تتبع
یرضی بہم کل من كانت سریرتہ تقوی الا کہوکل الخیر یصطنع
قوم اذا حاربوا ضروا عدوہم أو حاولوا النفع فی أشیاعہم نفعوا
سجیة تلک فیہم غیر محدثہ ان الخلائق فاعلم شرہا البدع
ولما فرغ حسان قال الاقرع بن حابس وأبی أن هذا الرجل المؤتی له
خطیبہ أخطب من خطیبنا ولشاعرہ أشعر من شاعرنا ولا صواتہم أحلی من
أصواتنا ولما فرغ القوم اساموا واجازہم علیہ السلام

وممن وفد من قیس : بنو عامر فیہم عامر بن الطفیل واربد بن قیس

وكان بنو عامر قالوا لابن الطفيل يا عامر إن الناس قد أسلموا فأسلم قال والله
لقد كنت آليت أن لا أنهي حتى تتابع العرب عقي أفا أنا أتبع هذا الفتى
من قريش؟ ثم سار اليها مضمراً غدرًا فلم يفرز برغبته ولم يسلم ومات بالطاعون
وهو عائد

وقدم عليه وفد بني سعد بن بكر وكان وافدهم ضمام بن شعابة وكان رجلاً
جلداً أشعر ذا غديرتين فلما دخل المسجد والرسول بين أصحابه قال أيكم
ابن عبد المطلب فقال عليه السلام أنا ابن عبد المطلب قال أمحمد قال نعم
قال يا ابن عبد المطلب اني سائلك ومغاظ عليك في المسئلة فلا تجدف على
في نفسك قال لأجد في نفسي فسئل عما بدالك قال أنشدك الله إلهك وإله
من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك آله بعثك إلينا رسولا؟ قال اللهم نعم
قال فأنشدك الله الخ آله أمرك أن تأمرنا أن نعبد وحده ولا نشرك به
شيئاً وأن نخضع هذه الانداد التي كان آباؤنا يعبدون معه؟ قال اللهم نعم قال
فأنشدك الله الخ آله أمرك أن تصلي هذه الصلوات الخمس؟ قال اللهم نعم ثم جعل
يذكر فرائض الاسلام فريضة فريضة الزكاة والصيام والحج وشرائع
الاسلام كلها حتى اذا فرغ قال فاني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً
رسول الله وسأؤدي هذه الفرائض واجتنب ما نهيتني عنه ثم لا أزيد ولا
أنقص ، ثم خرج حتى أتى قومه فما أسمى من ذلك اليوم وفي حاضره رجل
ولا امرأة الا مساماً بعد ان علمهم الاسلام وشرائعه

وممن وفد عليه من ربيعة بنو عبد القيس رئيسهم الجارود بن بشر بن

المعلي وكان نصرانياً فأسلم هو ومن معه وكان الجارود من أشد الناس تمسكاً
بالإسلام

وممن وفد عليه من ربيعة بنو حنيفة ، ومنهم مسيامة بن حنيفة الذي
لقب بالكذاب لادعائه النبوة بعد موت الرسول صلى الله عليه وسلم فأسلموا
وأجازهم الرسول ولما عادوا إلى بلادهم ارتد مسيامة وادعى النبوة وصار يسجع
لهم أسجاعاً يحاكى بها القرآن

* وممن وفد عليه من قحطان زيد الخليل يقدم وفد طيء فأسلموا وحسن
إسلامهم وقال عليه السلام في زيد ما ذكر لي رجل من العرب بفضيل ثم جاءني
إلا رأيته دون ما قيل فيه إلا زيد الخليل فإنه لم يبلغ كل ما كان فيه ثم سماه
زيد الخير وأقطعه فيداً وأرضين معه ، ثم وفد عليه من طيء عدى بن حاتم
الطائي فأسلم وحسن إسلامه والسبب في وفادته أخته

ثم أقبل عليه وفود من مراد وزبيدة وكندة وقدمت عليه رسل ملوك
حمير بإسلامهم وهم الحارث بن عبد كلال وأخوه نعيم والنعمان قيل ذى رعين
ومعافر وهمدان وبعث إليه زرعة ذو يزن مالك بن مرة الرهاوي بإسلامهم
ومفارقتهم المشرك وأهله فكتب إليهم الرسول عليه السلام كتاباً بين لهم
فيه فريضة الزكاة وأرسل مع الكتب رسلاً من أصحابه يفقهون الناس في الدين
وممن كتب إليه بإسلامه فروة بن عمرو الجذامي وكان عاملاً للروم على
من يليهم من العرب ، وكان منزله معان من أرض الشام فمابله الروم بإسلامه
أخذوه فحبسوه ثم قتلوه ولما قدموه ليقتل قال

بلغ سراة المسلمين باننى سلم لربي اعظمي ومقامي

ثم قدم عليه وفد بنو الحرث بن كعب مع خالد بن الوليد مسامين ولما سألهم عليه السلام بم كنتم تغلبون من قاتلكم في الجاهلية؟ قالوا له كنا نجتمع ولا نفترق ولا نبداً أحداً بظلم ثم قدم عليه رفاعة بن زيد الجذامي وافداً عن قومه وقدم وفد همدان يتقدمهم ذو المعشار المكنى بأبي ثور

وهكذا دخل الناس في الدين أفواجا حتى كان رسول الله في حجة الوداع آخر سنة عشر من الهجرة أكثر من مئة ألف كلهم دانوا بهذا الدين في حياته صلى الله عليه وسلم والذين لم يكونوا معه في هذه الحجة أكثر منهم أضعافاً مضاعفة إلا أنه لا يمكننا القول إن الدين قد تمكن من أنفس هؤلاء بأسرهم لأنه كان في وسطهم كثير من الأعراب الجفافة الذين أسلموا تبعاً لساداتهم ولم تكن أنفسهم قد خلصت بعد ما تأصل فيها من الميل إلى الغارات ولم تكن تعاليم الإسلام قد هذبت أنفسهم تمام التهذيب وقد وصف القرآن بعضهم بقوله في سورة التوبة «الأعراب أشد كفراً ونفاقاً واجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم» (ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم) وقد أثنى على آخرين منهم فقال «ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول إلا إنها قربة لهم سيدخلهم الله في رحمته إن الله غفور رحيم»

أما الحاضرون منهم في المدينة ومكة وثقيف وكثير من اليمن والبحرين فقد كان الإسلام فيهم قويا ومنهم كبار الصحابة وسادات المسلمين ولما كانت رسالة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم عامة بنص القرآن لم

يقتصر في دعوته على الجزيرة العربية بل ارسل كتبه ودعائه الى الملوك ورؤساء الامم الى الدين حتى لا يكونوا ممن يصد عن الاسلام أو يقف في سبيل دعوته ومعلوم بالبداهة ان الدعوة في تلك الازمنة وتلك الحكومات لا بد ان تبدأ بالكبراء وذوى الزعامة لانهم لا يمكن ان يتركوا لداعية حريته اذا كانوا مخالفين له

اختار من اصحابه رسالهم معرفة وخبرة وارسلهم الى الملوك فاختر دحية بن خليفة الكلبي رسولا الى ملك الروم وكتب له كتابا هذا نصه (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى هرقل عظيم الروم السلام على من اتبع الهدى اما بعد اسلم تسلم واسلم يؤتلك الله اجر ك مرتين وإن تقول فان إسم الاكارين عليك)

ونقل هنا ما رواه ابن عباس عن ابي سفيان بن حرب قال كنا قوماً تجاراً وكانت الحرب بيننا وبين رسول الله قد حصرتنا حتى انهكت اموالنا فلما كانت الهدنة بيننا وبين رسول الله لم نأمن ان لا نجد امنا فخرجت في نفر من قريش تجاراً الى الشام وكان وجه متجرونا منها غرة فقد منهاها حين ظهر هرقل على من كان بأرضه من فارس واخرجهم منها وانتزع له منهم صليبه الاعظم . وكانوا قد استلبوه اياه . فلما بلغ ذلك منهم وبلغه ان صليبه قد استنقذ له وكانت حص منزله خرج منها يمشى على قدميه متشكراً لله حين رد عليه ماورد ليصلي في بيت المقدس تبسط له البسط وتلقي عليه الرياحين فلما انتهى الى ايليا وقغى فيها صلاته ومعه بطارقه واشراف الروم اصبحت ذات غداة مهموما يقرب طرفه الى السماء فقال له

بطارفته والله لقد اصبحت ايها الملك الغداة مهموماً قال اجل رأيت في هذه الليلة ان ملك اختان ظاهر قالوا له ايها الملك ما نعلم امة تختن الا يهود وهم في ساطانك وتحت يدك فابعث الى كل من لك عليه سلطان في بلادك فمره فليضرب اعناق كل من تحت يديه من يهود واسترح من هذا الهم فوالله انهم لفى ذلك من رأيهم يدبرونه اذا تاه رسول صاحب بصرى برجل من العرب يقوده وكانت الملوك تهادى الاخبار بينها فقال ايها الملك ان هذا الرجل من العرب من اهل الشاء والابل يحدث عن امر حدث ببلاده عجب فسله عنه

فلما انتهى به الى هرقل رسول صاحب بصرى قال هرقل لترجمانه سله ما كان هذا الحدث الذى كان ببلاده فسأله فقال خرج بين اظهرنا رجل يزعم انه نبي قد اتبعه ناس وصدقوه وخالفه ناس وقد كانت بينهم ملاحم في مواطن كثيرة فتركتهم على ذلك فلما اخبر الخبر قال جردوه فاذا هو مختون فقال هرقل هذا والله الذى رايت لاماتقولون اعطوه ثوبه ثم قال لصاحب شرطته قلب الى الشام ظهراً وبطناً حتى تأتيني برجل من قوم هذا الرجل قال ابو سفيان فوالله انا لبغزة اذهجم علينا صاحب شرطته فقال انتم من قوم هذا الرجل الذى بالحجاز قلنا نعم قال انطلقوا بنا الى الملك فانطلقنا معه فلما انتهينا اليه قال انتم من رهط هذا الرجل قلنا نعم قال ايكم امس به رحماً قال ابو سفيان انا فقال ادنه ادنه فاقعدني بين يديه واقعد اصحابي خلفي ثم قال انى سأسأله فان كذب فردوا عليه فوالله لو كذبت ما ردوا على ولكنى كنت امراً سيداً اتكرم عن الكذب

وعرفت أن أيسر ما في ذلك أن أنا كذبت به أن يحفظوا على ذلك ثم يحدثوا به غنى فلم أكذبه فقال أخبرني عن هذا الرجل الذي خرج بين أظهركم يدعي ما يدعي قال فجعلت أزهد له شأنه وأصغر له أمره وأقول له أيها الملك ما يهملك من أمره أن شأنه دون ما يبلغك فجعل لا يلتفت إلى ذلك ثم قال أنبئني عما أسألك عنه من شأنه كيف نسبه فيكم قلت محض أوسطنا نسباً قال هل كان أحد من أهل بيته يقول مثل ما يقوله فهو يتشبه به قلت لا قال فهل كان له فيكم ملك فاستلبتموه إياه فجاء بهذا الحديث لتردوا عليه ملكه قلت لا قال فأخبرني عن اتباعه منكم من هم قال قلت الضعفاء والمساكين والاحداث من الغلمان والنساء وأما ذوو الاسنان والشرف من قومه فلم يتبعه منه أحد قال فأخبرني عن من تبعه أيحبه ويلزمه أم يقليه ويفارقه قلت ما تبعه رجل ففارقته قال فأخبرني كيف الحرب بينكم وبينه قلت سجال يدال علينا ونдал عليه قال هل يغدر فلم أجد شيئاً لما سألتني عنه أغمره فيه غيرها قلت لا ونحن منه في هدنة ولا نأمن غدره فوالله ما التفت إليها مني ثم كر على الحديث قال سألتك كيف نسبه فيكم فزعمت أنه محض من أوسطكم نسباً وكذلك يأخذ الله النبي إذا أخذه لا يأخذه إلا من أوسط قومه نسباً وسألتك هل كان أحد من أهل بيته يقول قوله فهو يتشبه به فزعمت أن لا وسألتك هل كان له فيكم ملك فاستلبتموه إياه فجاء بهذا الحديث يطلب به ملكه فزعمت أن لا وسألتك عن اتباعه فزعمت أنهم الضعفاء والمساكين والاحداث والنساء وكذلك اتباع الانبياء في كل زمان وسألتك عن من يتبعه أيحبه ويلزمه أم يقليه ويفارقه فزعمت أن لا يتبعه أحد فيفارقته وكذلك حلاوة الايمان لا تدخل قلباً فتخرج منه وسألتك هل يغدر فزعمت

أَنْ لَا فَلَانْ كُنْتَ صِدْقَتِي لِيُغْلِبَنِي عَلَى مَا تَحْتَ قَدَمِي هَاتِينَ وَلَوْ دِدْتَ أَنِّي
عِنْدَهُ فَأَغْسِلْ قَدَمِيهِ انْطَلِقْ لَشَأْنُكَ قَالَ فَقَمْتُ مِنْ عِنْدِهِ وَأَنَا أَضْرِبُ إِحْدَى
يَدَيَّ عَلَى الْآخَرَى وَأَقُولُ أَيُّ عِبَادِ اللَّهِ لَقَدْ أَمْرًا مِنْ أَبِي كَبِشَةَ أَصْبَحَ مَلُوكَ
بَنِي الْأَصْفَرِ يَهَابُونَهُ فِي سُلْطَانِهِمْ بِالشَّامِ . وَقَدِمَ عَلَيْهِ إِذْ ذَاكَ دَحِيَّةٌ بِكِتَابِ
رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمَّا تَرَجَّمَهُ لَقِيصْرَ جَمْعٍ بِطَارِقَتِهِ وَعَرَضَ عَلَيْهِمُ
الْكِتَابَ وَاسْتَشَارَهُمْ فِي اتِّبَاعِهِ فَظَهَرُوا كِرَاهَةَ ذَلِكَ وَلَمَّا رَأَى نَقُورَهُمْ قَالَ إِنَّمَا
فَقَاتِ مَا قُلْتُ لَا خَيْرَ صِلَا بَتَكُمْ فِي دِينِكُمْ وَمَنْ هُنَا نَفَهُمُ السَّبَبَ فِي احْتِشَادِ
الرُّومِ وَالْعَرَبِ لِمُحَارَبَةِ الْمُسْلِمِينَ حِينَمَا بَالِغُهُمْ مَجِيءُ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ وَمَنْ تَبِعَهُ وَكَانَتْ
بُوقَعَةٌ مُؤْتَةٌ كَانَهُمْ أَرَادُوا أَنْ يَسْتَأْصِلُوا الْأَمْرَ قَبْلَ اسْتَفْجَالِهِ

وَبَعَثَ عَلَيْهِ السَّلَامُ شُجَاعُ بْنُ وَهَبٍ مِنْ بَنِي أَسَدٍ بَنٍ خَزِيمَةَ إِلَى الْمَنْذَرِ
ابْنِ الْحَارِثِ بْنِ أَبِي شَمْرٍ الْغَسَّانِي صَاحِبِ دِمَشْقَ وَكُتِبَ إِلَيْهِ (سَلَامٌ عَلَى مَنْ
اتَّبَعَ الْهُدَى وَآمَنَ بِي أَنِّي أَدْعُوكَ إِلَى أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ يَبْقَى
لَكَ مَلِكُكَ) وَلَمَّا وَصَلَهُ الْكِتَابَ قَالَ مَنْ يَنْزِعُ مَلِكِي مِنِّي أَنَا سَائِرُ إِلَيْهِ وَلَمْ يَسْلَمْ
وَبَعَثَ عُمَرُ بْنُ أُمَيَّةَ الضُّمَرِيُّ إِلَى النَّجَاشِيِّ بِكِتَابٍ يَدْعُو فِيهِ إِلَى الْإِسْلَامِ
وَيَطْلُبُ مِنْهُ أَنْ يُرْسِلَ جَعْفَرًا وَمَنْ مَعَهُ مِنْ مُهَاجِرِي الْحَبَشَةِ فَفَعَلَ النَّجَاشِيُّ
مَا طَلَبَ مِنْهُ فَارْسِلَ جَعْفَرًا وَاجَابَ إِلَى الْإِسْلَامِ كَمَا أَعْلَنَ بِكِتَابِهِ وَلَمَّا بَلَغَ الرَّسُولُ
وَفَاتَهُ صَلَّى عَلَيْهِ بِالْمَدِينَةِ

وَبَعَثَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حِذَافَةَ السَّهْمِيُّ إِلَى كَسْرَى وَمَعَهُ كِتَابٌ فِيهِ (بِسْمِ اللَّهِ
الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى كَسْرَى عَظِيمِ فَارَسَ سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ

الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وأتى رسول الله إلى الناس كافة لينذر من كان حياً أسلم تسلم فإن أبيت فانما عليك أثم المجوس) فمزق كسرى كتابه ولما بلغ ذلك الرسول صلى الله عليه وسلم قال مزق الله ملكه ثم كتب كسرى إلى باذان عامله على اليمن ابعت إلى هذا الرجل الذى بالحجاز رجلين من عندك جليدين فليأتيا نى به فاختر باذان رجلين ممن عنده بكتاب إلى رسول الله يأمره أن ينصرف معه إلى كسرى فلما قدما المدينة وقابلان النبي صلى الله عليه وسلم قال أحدهما إن شاهنشاه ملك الملوك كسرى قد كتب إلى الملك باذان يأمره أن يبعث إليك من يأتيه بك وقد بعثنى إليك لتنتطلق معي وقالوا قولاً تهديدياً . فى ذلك الوقت كان شيرويه بن كسرى قد قام على أبيه فقتله وأخذ الملك لنفسه وعلم رسول الله الخبر من الوحي فاخبرهما بذلك فقالا هل تدري ما تقول إنا قد تقمنا عليك ما هو أيسر من هذا أفنكتب هذا عنك وتخبره الملك قال نعم أخبراه ذلك عني وقولا له إن ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ كسرى وينتهي إلى منتهى الخلف والخافر وقولا له إن أسلمت أعطيتك ماتحت يدك وملكتك على قومك من الأبناء فخرجنا من عنده حتى قدما على باذان فاخبراه الخبر وبعد قليل جاء كتاب بقتل شيرويه لآبيه وقال له شيرويه فى كتابه انظر الرجل الذي كان كتب فيه أبى إليك فلا تهجه حتى يأتيك أمري وكان ذلك سبباً في إسلام باذان ومن معه من أهل فارس باليمن وهم الأبناء وبعث حاطب بن أبى بلتعة إلى المقوقس عظيم مصر فلم يسلم ولم يبعد وهو الذي بعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمارية القبطية أم إبراهيم فكان بذلك الرحم التي بين العرب وأهل مصر

وبعث سليط بن عمرو العامري الى هوزة بن علي الحنفي وبعث الملاء
ابن الحضرمي الى المنذر بن ساوى صاحب البحرين وعمرو بن العاص الى
جيفر وأخيه عباد الازديين

بذلك كان عليه السلام قد بلغ الدعوة الى اكثر ملوك الارض يعلنهم
بدعوته ويطلب منهم اتباعه وكان هذا الاعلان سبباً في اجابة بعض وشاء
الفكرة الاخرين فلم يلحق بربه الا ومعظم الجزيرة العربية قد اتبعته وانقادت
لدينه وفي غيرها عرف اسمه ودينه وعلم به الرؤوس والسادات



المحاضرة السابعة عشرة

صفة الرسول وأخلاقه وبيته — ختام القرآن — الوفاة

صفته وأخلاقه وبيته

ومما كان سبباً كبيراً في نجاح الدعوة الإسلامية على يدى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ما امتاز به من جمال خلقه وكمال خلقه وقد كان بعض المدعوين لا يحتاج الى دليل على صدقه فوق ما هو معروف عنه من الفضائل فقد قالت له خديجة - حينما أخبرها بأمره أول مرة - ما كان الله ليخزيك أبداً انك تحمل الكل وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الحق . الاخلاق الفاضلة في الداعي مسالك أمره كله ألا ترى الله سبحانه يقول (ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك) وهذا واضح فانه يستحيل أن ينال بالشدة قلب لهذا رأينا أن نوضح لكم ما كان عليه الرسول من الاخلاق والاعادات حسبما اتصل الينا

النظافة الظاهرة — مما يروى عنه عليه السلام بني الدين على النظافة وكان قد خص من النظافة بما لم يكن لغيره وكان يحب الطيب حتى أنه لم يكن يمر في طريق فيتبعه أحد الا عرف أنه سلكه من طيبه وكان يصافح المصافح فيظل يومه يجرد ريحها

العقل والذكاء — لامرية أنه عليه السلام كان أعقل الناس وأذكاهم

ومن تأمل تديره أمر بواطن الخلق وظواهرهم وسياسته العامة والخاصة
فضلاً عما أفاده من العلم وقرره من الشرع دون تعلم سبق ولا ممارسة تقدمت
ولا مطالعة للكتب لم يشك في رجحان عقله وثقوب فهمه لأول بديهة
ساس تلك الالة الجافية حتى كان أحب الى أفرادها من آبائهم وأبنائهم
وفدوه بانفسهم وذلك محتاج - بعد معونة الله وتوفيقه - إلى أكل
عقل وأرجحه

فصاحة اللسان وبلاغة القول - كان عليه السلام من ذلك بالمحل الافضل
والموضع الذي لا يجهل ، سلاسة طبع ونصاعة لفظ وجزالة قول وصحة معان
وقلة تكلف أوّتى جوامع الكلم وخص ببدائع الحكم وعلم السنة العرب
يخاطب كل قبيلة بلسانها ويحاورها بلغتها ليس كلامه مع قريش والانصار
وأهل الحجاز ونجد ككلامه مع ذي المشعار الهمداني وطهفة النهدي وغيرها
من قحطان وقد كتب كثير من المؤرخين في الماثور من كلامه الجامع ومنه
مالا يوازي فصاحة ولا يبارى بلاغة نحو قوله (لاخير في صحبة من لا يرى
لك ماترى له - الناس معادن - ماهلك امرؤ عرف قدره - المستشار
مؤتمن وهو بالخيار ما لم يتكلم - رحم الله عبداً قال خيراً فغنم اوسكت فسليم
ان احبكم إلى واقربكم منى مجالس يوم القيامة أحاسنكم اخلاقاً الموطئون
اكتشافاً الذين يألفون ويؤلفون - ذو الوجهين لا يكون وجيهاً عند الله --
اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن -
الظلم ظلمات يوم القيامة) وهذا قليل من كثير . قال له اصحابه يوماً ما رأينا
الذى هو افصح منك قال وما يمنعنى وانما انزل القرآن بلسانى اسان عربى

مبين وقال مرة أخرى أنا أفصح العرب بيد أني من قريش ونشأت في بني سعد فجمع له بذلك قوة عارضة البادية وجزالتها ونصاعة الفاظ الحاضرة ورونق كلامها إلى التأييد الإلهي الذي مدده الوحي والحلم والاحتمال والعفو عند المقدرة والصبر على المكاره صفات أدبه الله بها فقال له (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) وقد بين له الوحي معناها بقوله أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك وقال له (واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور) وقال له (فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل) وقال (ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور) ولا خفاء بما يؤثر من حمله واحتماله . كل حلیم قد عرفت منه زلة وحفظت عنه هفوة وهو لا يزيد مع كثرة الأذى إلا صبراً وعلى اسراف الجاهل إلا حِلماً قالت عائشة ماخير رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمرين قط إلا اختاراً يسرها ما لم يكن إثماً فإن كان إثماً كان أبعد الناس عنه وما انتقم لنفسه إلا أن انتهك حرمة الله فينتقم لله بها ولما حصل له بأحد ما حصل قيل له لو دعوت عليهم فقال اني لم ابعث لعاناً ولكني داعيا ورحمة اللهم اهد قومي فانهم لا يعلمون فلم يقتصر على السكوت عنهم حتى عفا عنهم ثم اشفق عليهم ورحمهم ودعا وشفع لهم ولما قال له الرجل اعدل فان هذه قسمة ما أريد بها وجه الله لم يزد في جوابه ان بين امة ما جهله ووعظ نفسه وذكرها بما قال له فقال ويحك فمن يعدل ان لم اعدل خبت وخسرت ان لم اعدل ونهي من أراد من أصحابه قتله . لم يؤاخذ عبد الله بن ابي واشباهه من المنافقين بعظيم ما نقل عنهم في جهته قولاً وفعلاً بل قال لمن اشار بقتل بعضهم (لا لئلا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه) والحديث

عن حلمه وصبره وعفوه عند المقدرة أكثر من أن تأتي عليه وحسبك صبره على قسوة قریش وأذى الجاهلية ومصابرة الشدائد الصعبة معهم فلما أظفروه الله عليهم وحكمه فيهم مازاد على أن قال اذهبوا فانتم الطلقاء أقول كما قال أخى يوسف لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين وكان عليه السلام أبعد الناس غضباً وأسرعهم رضا

الجود والكرم - كان عليه السلام في هذا الخلق لا يبارى ، بهذا وصفه كل من عرفه قال جابر ماسئل عليه السلام عن شيء فقال لا وقال ابن عباس كان أجود الناس بالخير وأجود ما يكون في شهر رمضان وكان إذا لقيه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة. وعن أنس أن رجلاً سأله فاعطاه غنما بين جبلين فرجع الى بلده وقال أساموا فان محمداً يعطي عطاء من لا يخشى فاقة وأعطى غير واحد مئة من الابل وهذه كانت حاله قبل النبوة وحمل اليه تسعون ألف درهم فوضعت على حصير ثم قال اليها بقسمها فارد سائلاً حتى فرغ منها وجاءه رجل فسأله فقال ما عندي شيء ولكن اتبع على فاذا جاءنا شيء قضيناه فقال له عمر ما كلفك الله ما لا تقدر عليه فكره النبي ذلك فقال رجل من الانصار يا رسول الله أنفق ولا تخف من ذي العرش إقلالا فتبسم صلى الله عليه وسلم وعرف البشر في وجهه وقال بهذا أمرت

الشجاعة والنجدة - كان عليه السلام منهما بالمكان الذي لا يجمل حضر المواقف الصعبة وفر عنه الكماة والابطال غير مرة . وهو ثابت لا يبرح ومقبل لا يدبر ولا يتزحزح وما شجاع الا وقد احصيت له فرة وحفظت عنه جولة سواه . وقف يوم حنين على بغلته والناس يفرون عنه وهو يقول أنا النبي لا

كذب . أنا ابن عبد المطلب : فما روي أحد يومئذ كان أشد منه وكان اذا غضب لا يغضب الا لله لم يقم لغضبه شيء وقال على كنا اذا حمى البأس واحمرت الحلق اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم فما يكون أحد أقرب الى العدو منه . فزع أهل المدينة ليلة فانطلق ناس قبل الصوت فتلقاهم رسول الله راجعاً وقد سبقهم الى الصوت واستبرأ الخبر على فرس عرى والسيف في عنقه وهو يقول لن تراعوا

الحياء والاغضاء - كان عليه السلام أشد الناس حياء وأكثرهم عن العورات اغضاء قال ابو سعيد كان عليه السلام أشد حياء من العذراء في خدرها وكان اذا كره شيئاً عرفناه في وجهه وكان لطيف البشرة رقيق الظاهر لا يشافه أحداً بما يكره حياء وكرم نفس وقالت عائشة (كان النبي صلى الله عليه وسلم اذا بلغه عن أحد ما يكرهه لم يقل ما بال فلان يقول كذا ولكن ما بال أقوام يصنعون أو يقولون كذا ينهي عنه ولا يسمى فاعله وروى أنه كان من حيائه لا يثبت بصره في وجه أحد وأنه يكنى عما اضطره الكلام اليه مما يكره)

حسن العشرة والادب وبسط الخلق مع أصناف الخلق — قال علي في وصفه كان عليه السلام أوسع الناس صدراً وأصدق الناس لهجة وألينهم عريكة وأكرمهم عشرة . وقال قيس بن سعد بن عبادة زارنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما أراد أن ينصرف قرب له سعد حماراً وطأ عليه بقطيفة فركب ثم قال سعد يا قيس إصحب رسول الله قال قيس فقال له عليه السلام اركب فاييت فقال اما ان تركب وأما أن تنصرف فانصرفت وكان يؤلفهم ولا ينفّرهم ويكرم كريم

كل قوم ويؤليه عليهم ويحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوى أحد منهم بشره ولا خلقه ، يتفقد أصحابه ويعطي كل جاسائه نصيبه لا يحسب جلسه ان أحداً اكرم عليه منه من جالسه أو قاربه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه ومن سأله حاجة لم يرده الا بها أو بميسور من القول قدوسع الناس بسطه وخلقه فصار لهم ابا وصاروا عنده في الحق سواء وكان دائم البشر سهل الخلق لين الجانب ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب ولا فحاش ولا عياب ولا مداح ، يتغافل عما لا يشتهي ولا يؤنس منه وكان يحيب من دعاه ويقبل الهدية ويكافي عليها وقال أنس خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لي اف قط !! وما قال لشيء صنعته لم صنعتته ولا لشيء تركته لم تركته وكان يمازح أصحابه ويخالطهم ويحادثهم ويجيب دعوة الحر والعبد والامة والمسكين ويعود المرضى في اقصى المدينة ويقبل عذر المعتذر وكان يبدأ من اقيه بالسلام ويبداً أصحابه بالمصافحة يكرم من يدخل عليه وربما بسط له ثوبه ويؤثره بالوسادة التي تحته ويعزم عليه في الجلوس عليها إن ابى ويكنى أصحابه ويدعوهم بأحب اسمائهم تكرمة لهم ولا يقطع على احد حديثه حتى يتجاوز فيقطعه بانتهاء او قيام ويروى انه كان لا يجلس اليه احد وهو يصلي الا خفف صلاته وسأله عن حاجته فاذا فرغ عاد الى صلاته وكان اكثر الناس تبسماً واطيبهم نفساً ما لم ينزل عليه قرآن او يخطب

الشفقة والرأفة والرحمة - وصفه الكتاب بذلك (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم) . روي أن اعرابياً جاءه يطلب منه شيئاً فأعطاه ثم قال أحسنت اليك يا عرابي قال

الاعرابي لا ولا أجملت فغضب المسلمون وقاموا اليه فأشار اليهم أن كفوا
ثم قام ودخل منزله وأرسل الى الاعرابي وزاده شيئاً ثم قال أحسنت اليك
قال نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً فقال له النبي صلى الله عليه وسلم
إنك قلت ماقلت وفي أنفك أصحابي من ذلك شيء فإن أحببت فقل بين
أيديهم ماقلت بين يدي حتى يذهب ما في صدورهم عليك فاما كان العشي
جاء فقال عليه السلام ان هذا الاعرابي قال ما قال فزدناه فزعم أنه رضى
أ كذلك ؟ قال الاعرابي نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً فقال عليه
السلام مثلي ومثل هذا مثل رجل له ناقة شردت عليه فاتبعها الناس فلم يردوها
الا نفوراً فناداهم صاحبها خلوا بيني وبين ناقة فاني ارفق بها منكم وأعلم
فتوجه لها بين يديها فأخذ لها من قمام الارض فردها حتى جاءت واستناخت
وشد عليها رحلها واستوى عليها واني لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال
فقتلتموه دخل النار وروى عنه عليه السلام أنه قال لا يبلغني أحد منكم
عن أحد من أصحابي شيئاً فاني أحب أن أخرج اليكم وأنا سليم الصدر .
كان يسمع بكاء الصبي فيتجوز في صلاته

الوفاء وحسن العهد وصلة الرحم - قال عبد الله بن أبي الحمساء بايعت
النبي صلى الله عليه وسلم ببيع قبل أن يبعث وبقيت له بقية فوعده أن آتية
بها في مكانه فنسيت ثم ذكرت بعد ثلاث فجئت فاذا هو في مكانه فقال
يا فتى لقد شققت على أنا ههنا منذ ثلاث أنتظرك . وقال أنس كان عليه السلام
إذا أتى بهدية قال اذهبوا بها الى بيت فلانة انها كانت صديقة لخديجة انها
كانت تحب خديجة . دخلت عليه امرأة ففحش لها وأحسن السؤال عنها

فلما خرجت قال انها كانت تأتيننا أيام خديجة . وكان يصل ذوى رحمه من غير أن يؤثرم على من هو أفضل منهم وقال ان آل أبي فلان ليسوا لي بأولياء غير أن لهم رحماً ماسة سأبليها ببلاها ولما قدم وفد النجاشي قام عليه السلام بنفسه يخدمهم فقال له أصحابه نحن نكفيك فقال انهم كانوا لأصحابنا مكرمين واني أحب أن أكفئهم . وكان يبعث الى ثويبة مولاة أبي لهب مرضعته بصلاة وكسوة فلما ماتت سأل هل بقي من قرابتها أحد فقيل لا أحد

التواضع — كان عليه السلام أشد الناس تواضعاً وأقلهم كبراً . عن أبي امانة قال خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم متوكئاً على عصا فقمنا له فقال لا تقوموا كما تقوم الاعاجم يعظم بعضهم بعضاً وكان يعود المساكين ويجالس الفقراء ويجيب دعوة العبد ويجلس بين اصحابه مختلطاً بهم حينما انتهى به المجالس جلس . وكان يدعى الى خبز الشعير والاهالة السنخة فيجيب وحين على رث وعليه قطيفة لا تساوي اربعة دراهم فقال اللهم اجعله حجاباً لارياء فيه ولا سمعة هذا وقد اهدى في حجه ذلك مئة بدنة . ولما فتحت عليه مكة ودخلها بجيوش المسلمين طأطأ على رحله رأسه حتى كاد تمس قادمته تواضعاً لله تعالى . ومن تواضعه قوله لا تفضلوني على يونس ابن متى ولا تفضلوا بين الانبياء ولا تخيروني على موسى . ودخل عليه رجل فأصابته من هيئته رعدة فقال له هون عليك فاني لست بملاك انما انا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد

العدل والامانة والعفة وصدق اللمجة — كان عليه السلام آمن الناس

واعلمهم واعفهم واصدقهم لهجة منذ كان اعترف له بذلك محاوروه واعداءه
وكان يسمى قبل نبوته الامين وقال الربيع بن خثيم كان يتحاكم الى رسول
الله صلى الله عليه وسلم في الجاهلية قبل الاسلام وروى عن علي ان ابا جهل
قال له انا لانكذبك ولكن نكذب بما جئت به وفي ذلك قال الكتاب
(فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) وسأل هرقل
ابا سفيان فقال هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل ان يقول ما قال قال
لا وقال النضر بن الحارث لقريش قد كان محمد فيكم غلاما حدثا ارضاكم
فيكم واصدقكم حديثا واعظمكم امانة حتى اذا رايتهم في صدغيه الشيب
وجاءكم بما جاءكم به قلم ساحر !! لا والله ما هو بساحر . وفي حديث علي
في وصفه اصدق الناس لهجة وعن الحسن كان رسول الله صلى الله عليه
وسلم لا يأخذ احدا ولا يقرف احدا ولا يصدق احدا على احد اي لا يسمع
وشاية الواشين

وقال خارجة بن يزيد كان النبي صلى الله عليه وسلم أوقر الناس في مجلسه
لا يكاد يخرج شيئا من أطرافه وكان كثير السكوت لا يتكلم في غير حاجة
يعرض ممن تكلم بغير جميل وكان ضحكه تبسما وكلامه فصلا لا فضول ولا
تقصير وكان ضحك أصحابه عنده التبسم توقيرا له واقتداء به ، مجلسه مجلس
حلم وحياء وخير وأمانة لا ترفع فيه الاصوات ولا تؤبن فيه الحرم اذا تكلم
أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير

وعلى الجملة فقد كان عليه السلام محلي بصفات الكمال أدبه ربه
فأحسن تأديبه وقد أثنى عليه الكتاب فقال مخاطبا له (وإنك لملي خلق

عظيم) وكانت هذه الخلال مما قرب اليه النفوس وحببه الى القلوب
والآن من شكيمة قومه بعد الالباء وجعلهم يدخلون في دين الله أفواجا
مناصرين موازين ولو لم يكن له الا ذلك مما يثبت التاريخ وتؤيده الحوادث
لكان أعظم شاهد على صدقه فضلا عما أيده الله به من المعجزات وقد أفاض
القول فيها كتاب السير

البيت النبوي

كان البيت النبوي في مكة قبل الهجرة يتألف منه عليه السلام ومن
زوجه خديجة بنت خويلد الاسدية من قريش وهي أول من تزوجه من
النساء ولم يتزوج غيرها في حياتها. وقد كان له منها أبناء وبنات فأما الابناء
فلم يعيش منهم أحد فانهم توفوا بمكة وهم القاسم الذي كان يكنى به عليه
السلام وعبد الله الملقب بالطيب والطاهر. وأما البنات فكان أربعاً زينب
ورقية وأم كلثوم وفاطمة — فاما زينب فقد تزوجها قبل الهجرة ابن خالتها
أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس وهو على دينه واستمرت
معه حتى هاجر عليه السلام وبقيت هي بمكة فلما كانت وقعة بدر وأسرا أبو
العاص أرسلت زينب في فدائه قلادة لها كانت حلتها بها أمها خديجة ومالا
فلما رأى الرسول القلادة رق لها رقة شديدة وقال ان رأيتم
أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها قلادتها فافعلوا فرضي بذلك
المسلمون وأخذ عليه السلام عهداً على أبي العاص أن يترك زينب تهاجر
فلما عاد أبو العاص الى مكة سرح زينب حتى اذا كان قبل الفتح خرج أبو
العاص تاجراً الى الشام وكان رجلاً ماموناً بماله وأموال لرجال من قريش

أبضعوها معه فلما فرغ من تجارته عاد الى مكة بعد خطب طويل ورد المال الى أهله ثم عاد الى المدينة مساماً فرد النبي صلى الله عليه وسلم اليه زوجته زينب ويقول المؤرخون إنه لم يحدث زواجاً جديداً وإنما ذلك بالعقد الاول وأما رقية وأم كلثوم فقد تزوجهما عثمان بن عفان الواحدة بعد الاخرى وأما فاطمة فقد تزوجها علي بن أبي طالب ومنها كان الحسن والحسين وزينب وبعد موت خديجة تزوج عليه السلام بعدة زوجات كان يتألف منهن ميتة بالمدينة .

ومعلوم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان ممتازاً عن أمته بحل الزواج بأكثر من أربع زوجات لأغراض كثيرة سنبينها بعد أن نذكرهن كان عدد من عقد عليهن ثلاث عشرة امرأة منهن تسع مات عنهن واثنان توفيتا في حياته احدهما خديجة واثنان لم يدخل بهما وهما هي أسماؤهن

(١) سودة بنت زمعة بن الاسود من بني عامر بن لؤي من قريش وكانت قبله عند ابن عمها السكران بن عمرو

(٢) عائشة بنت أبي بكر الصديق وكانت بكرأ ويقال انهما كانت وقت العقد عليها بنت ست سنين وبني عليها بعد الهجرة وهي بنت ثمان أو تسع وفي النفس شيء من تقدير هذه السن

(٣) حفصة بنت عمر بن الخطاب وكانت قبله عند خنيس بن حذافة

السهمي

(٤) أم سامة هند بنت أبي أمية بن المغيرة بن نبي مخزوم وكانت قبله
عند عبد الله بن جحش

وهؤلاء الخمس كلهن من قريش يضاف اليهن خديجة فتكون القرشيات
ستاً من هذه البطون — عبد مناف — أسد بن عبد العزي — مخزوم بن
يغظة — تيم بن مرة — عدي بن كعب — عامر بن لؤي

(٦) زينب بنت جحش من بنى أسد بن خزيمة ومن حلفاء بنى أمية وهي
بنت عمته وكانت قبله تحت يد زيد بن حارثة الذي كان معتبراً ابناً للنبي صلى
الله عليه وسلم وقد أرادت الشريعة هدم قاعدة التبني فأمر الرسول أن يتزوج
زينب زوج زيد ليعلم الناس أنه لم يعد للتبني حرمة وكان عليه السلام يخشى
اعتراض أعدائه عليه لأن عمله هذا يخالف ما أطبقت عليه عامة العرب فأخفى
في نفسه ما أمر به من هذا الزواج ولذلك كان هناك في الخطاب نوع شدة
(وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله
وتخفى في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى
زيد منها وطراً زوجنا بها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج ادعيائهم
إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولاً) فبينت الآية أنه كان يقول
لزيد أمسك عليك زوجك واتق الله وكان النزاع اشتد بينهما فاحب ان
يفارقها — وتخفى في نفسك ما الله مبديه وهو الأمر بتزوجها بعد أن يطلقها
زيد وهذا هو الذي أبدته الآية — وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه —
تخشى الناس أن يعيروك فيقولون تزوج زوج ابنه — ثم أبدى ما أمر به وهو
قوله فلما قضى زيد منها وطراً زوجنا بها وبين العلة في ذلك بما ذكر بعد . ولقد

هدم قاعدة التبنى قولاً كما هدمها فعلاً فقال ادعوهم لا بآئهم هو اقسط عند الله
وقال ما كان محمد اباً احد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين

(٧) جويرية بنت الحارث سيد بنى المصطلق من خزاعة وهي التي

عشق بسبب زواجها هذا من كان أسراً أو سبي من قومها وأسلم أبوها
(٨) ميمونة بنت الحارث من بنى هلال بن عامر بن صعصعة وكانت

قبله عند أبي رهم بن عبد العزى من بنى عامر بن لؤي
(٩) صفية بنت حيي بن أخطب من بنى إسرائيل ، وكانت قبله عند

كنانة بن أبي الحقيق وهؤلاء التسع هن اللاتي توفى عنهن
(١٠) زينب بنت خزيمة من بنى هلال بن عامر بن صعصعة وكانت

تسمى أم المساكين لرحمتها إياهم ورقتها عليهم وكانت قبله عند عبيدة بن
الحارث بن عبد المطاب بن عبد مناف وهذه توفيت في حياته

هؤلاء احدى عشر سيدة تزوج بهن الرسول وبنى بهن منهن ست من
قريش وخمس من سائر العرب

وهناك اثنتان لم يبن بهن . وتسرى بمارية القبطية التي أهداها له المقوقس
فأولدها ابنه ابراهيم الذي توفى صغيراً بالمدينة في حياة أبيه وكان يقال لزوجاته
أمهات المؤمنين سماهن بذلك الكتاب فقال (وأزواجه أمهاتهم)

يظهر لنا انه كان للنبي صلى الله عليه وسلم رأى في ان يجمع في نساء من
قبائل العرب المختلفة ليكون ذلك من باب التأليف لعشائرهن فان الصهر كان
عند العرب باباً من ابواب التقرب بين البطون المختلفة وقد كان زواجه بخديجة
وهو بمكة أكبر مساعداً له ومبعداً له اذى كثيراً من اعدائه فلما كان بالمدينة

صاهرا كبر القبائل من قريش واقوى البطون من سائر العرب وبنى اسرائيل
وقد كانت هناك ظروف خصوصية لبعض من تزوجهن كما في جويرة وزينب
وصفية

وكان لامهات المؤمنين فضل كبير في نقل أحواله المنزلية للناس خصوصا
من طالت حياته منهن كعائشة فانها روت عنه كثيراً من أفعاله وأقواله
ومجدون في سورة الاحزاب كثيراً من أحوال بيته وفيها يقول الكتاب
(إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً)
ختام القرآن

اعلن القرآن ان نزوله قد انتهى في يوم الحج الاكبر من السنة
العاشرة من الهجرة قبل وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم بثلاثة أشهر حيث
انزل عليه (اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم
الاسلام ديناً) وكانت آياته قد رتبت وسوره قد تمت وكان هناك من اصحابه
من يحفظه كله ومنهم من يحفظ بعضه وكانت آياته وسوره مكتوبة الا انها
لم تجمع في مصحف واحد في حياته وقد تم ذلك في خلافة ابي بكر (راجع
خطابنا الذي القيناه بنادى العلوم في سنة ١٩١٠ ونشر بصحيفة النادى في
تلك السنة)

الوفاة

في أواخر صفر من السنة الحادية عشر ابتداء عليه السلام بشكواه وكان
مرضه الحى فاستأذن نساءه أن يمرض في بيت عائشة فاذن له ولما رأى شدة
المرض خرج الى اصحابه فصعد المنبر وقال (يامعشر المهاجرين استوصوا

بالانصار خيراً فان الناس يزيدون وان الانصار على هيئتها لا تزيد وانهم كانوا عيبى التى اويت اليها فأحسنوا الى محسنهم وتجاوزوا عن مسيئتهم) وامر ابو بكر ان يصلى بالناس فصلى بهم مدة مرضه

ولما كان يوم الاثنين ١٣ ربيع الاول سنة ١١ (٨ يونيه سنة ٦٣٢) لحق عليه السلام بالرفيق الاعلى وقد اعلن الصحابة بوفاة ابو بكر حيث قال لهم وهم مجتمعون ايها الناس من كان يعبد محمداً فان محمداً قد مات ومن يعبد الله فان الله حي لا يموت ، ثم تلا هذه الآية (وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل افان مات او قتل انقلبتم على اعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين)

وحينذاك خرج اصحابه الى سقيفة بني ساعدة يأترون فيمن يخلفه حتى بويع ابو بكر فأقبلوا على جهازه عليه السلام يوم الثلاثاء فغسل في قميصه وكفن في ثلاثة اثواب ووضع على سريره ثم دخل الناس يصلون عليه افراداً دخل الرجال اولاً ثم النساء ثم الصبيان وقد انتهوا من صلاتهم وسط ليلة الاربعاء وكان قد صنع له لحد في الموضع الذى مات فيه وهو صفة حجرة عائشة التى كانت في الجهة الشرقية الشمالية من مسجده ودفن بها وكانت سنه عليه السلام ثلاثاً وستين سنة قرية



المحاضرة الثامنة عشرة

— الخلافة —

الخلافة

قد كان لارسل صلى الله عليه وسلم وظيفتان يؤديهما لامتته (الاولى) التبليغ عن الله بحكم الرسالة التي اختير ليقوم بآدامها فهو بذلك مشرع عن الله (الثانية) كونه إماماً للمسلمين تجتمع اليه كلمتهم يوجههم الى الخير ويبعدهم عن الشر واليه القضاء في مشكلاتهم بحسب ما يوحى اليه من الشريعة ثم هو يقوم بتنفيذ تلك الاحكام

والوظيفة الاولى انتهت بموته عليه السلام بعد تشريع ما اراد الله تشريعه فلم يكن بعد ذلك لاحد الا البناء على قواعد تلك الشريعة والاستنباط من جملها وهذه الخلافة التشريعية ان ساغ لنا ان نسميها كذلك موعدا بها الوقت المناسب لها

والوظيفة الثانية هي التي اختصصنا بها محاضرتنا هذه لم ير المسلمون بداً من إقامة من يخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم في خلافة المسلمين . ولم يوجد بين هذه الامة شىء تشعبت فيه الآراء واختلفت الكلمة بمقدار ما كان منها في الخلافة ومدار البحث كان في أمرين (الاول) البيت الذي يكون منه الخليفة (الثانى) الشكل الذي به ينتخب الخليفة

بيت الخلافة

من المحقق أن الكتاب لم يشر أي إشارة الى تعيين بيت أو بطن أو شعب يكون منه خليفة المسلمين وأما الرسول صلى الله عليه وسلم فروى عنه (الأئمة من قريش) كما أثر عنه اسمعوا وأطيعوا وإن تأمر عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة

لم يدفن النبي صلى الله عليه وسلم حتى كانت هناك فكرتان (الاولى) عدم تخصيص الخلافة ببيت من البيوت (الثانية) تخصيصها . وهذه الفكرة ذات شعبتين (الاولى) تخصيصها بالبيت القرشي على اختلاف بطونه (الثانية) تخصيصها بالقرابة القريبة من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أقرب الناس اليه وقت موته من أعمامه العباس بن عبد المطلب ومن بني عمه علي وعقيل ابنا أبي طالب ويمتاز على من بينهم بسبقه الى الاسلام وشهوده مشاهد رسول الله ونزوجه بأنته فاطمه ويمتاز العباس بانه العاصب الوحيد له ان كان هناك ارث رأى عدم التخصيص كان للانصار فاتهم كانوا يريدون أن يكون الخليفة منهم لما كان لهم من فضيلة النصر والايواء والمساعدات العظيمة التي قاموا بها وان لم يتيسر ذلك كان منهم أمير ومن المهاجرين أمير وأخذ بهذا الرأي من بعدهم جميع الخوارج الذين كانوا يخرجون على الخلفاء في أزمنة مختلفة ومنهم من كان يتسمى بأمير المؤمنين كقطرى بن الفجاءة وليس من قريش وانما هو رجل من تميم وهؤلاء كانوا يرون أن القصد من امامة المسلمين انما هو توجيههم الى الصلاح وابعادهم عن الشر والسير فيهم بأوامر دينهم غير ناظرين في ذلك الى بيت أو قبيلة بل الى مافى الشخص من

المقدرة والكفاءة ويستندون في رأيهم الى قاعدة وضعها القرآن وهي (إن
أكرمكم عند الله أتقاكم)

ورأى التخصيص بقريش كان في ذلك الوقت رأياً للجمهور لما رواه
لهم أبو بكر من ذلك الحديث المتقدم ذكره وقد بين أبو بكر طرفاً من علة
هذا التخصيص بقوله إن هذا الأمر أن تولته الأوس نفسته عليهم الخرج
وإن تولته الخزرج نفسته عليهم الأوس ولا تدين العرب إلا لهذا الحي
من قريش . ومن هنا استنبط العلامة ابن خلدون امتتناجه أن السر في
تخصيص قريش بالخلافة إنما هو ما كان لهم من العصبية والتقدم على سائر
بطون العرب بهذا يعترف لهم الناس ولا ينكره عليهم أحد فاذا كان الخليفة
منهم لا يذتظر أن يعارضه أحد من القبائل الأخرى مهما يكن قدره عظيماً
وبنى على ذلك أنه لما كانت العلة هي العصبية التي بها يكون اجتماع الكلمة وكانت
عصبية قريش جاء عليها وقت ظهر فيه ضعفها حتى لم تعد قادرة على حماية البيضة
والدفاع عنها وكانت الشريعة مبنية على العلل والحكم في كل زمان بحسبه كان
من الممكن أن تسكون الخلافة في غير قريش ممن فيهم تلك القوة والعصبية
المجتمعة

ورأى التخصيص بالقرابة القريبة كان لعلي بن أبي طالب ومن شايعه
وكان يرى نفسه أحق بالخلافة من سواه لقرابته من رسول الله صلى الله عليه
وسلم كما صرح بذلك في حديث مع أبي بكر ولما لم يكن له مساعد يساعده
على نيل ذلك الحق الذي رآه لنفسه اذعن لرأي الجمهور
مكث الرأي الأوسط سائداً والآخر خامداً لا يبدله محرراً حتى كان

آخر عهد عثمان فقام بالحواضر الاسلامية دعاء له ينهون الناس اليه ويقتبحون من خالفه اذ كيف يحرم خلافة الرسول قرابته وهذا موضع من الامة شديد الاحساس فسرعان ماتنبه وقد كان تنبهه سبباً لخطوب طويلة ومصائب عظيمة ذهب في سبيلها الخليفة الثالث عثمان بن عفان ومع هذا فلم يصف الامر للخليفة الرابع علي بن أبي طالب لانه قام في وجهه نصف الامة قادمًا اليه من الشمال غير متأثر من تلك الدعوة التي قصد منها اقرار الامر في نصابه من يدت النبوة وكان هناك تصادم بين الرأيين وقد غلبت القوة واحسان السياسة رأى عدم التخصيص بالقرابة حيث انتهى الحال بظفر معاوية بن أبي سفيان بالخلافة وهو من بنى أمية وليس من بنى هاشم

عادت فكرة الشيعة الى الحمود ولكن السيوف وان تكن تغلبت في الظاهر عليها فقد استكننت في النفوس تهيج وقتاً اذا لاح لها بارق الامل وتكمن حيناً انتظاراً للمستقبل

مازال أبناء علي يرون هذا الحق لهم ارثاً لا ينازعهم فيه الا ظالم وتتمنى قلوب شيعتهم أن ينالوا هذا الحق فيحملون الواحد منهم بعد الواحد على الخروج فيخرجون ثم تكون العاقبة قتلاً وتمثيلاً الا ان هذا الظفر كان مما يزيد النار تأججاً والقلوب تأثراً لانه كان يعطي الشيعة قوة يحركون بها القلوب ويبكون منها العيون فما كان اكثر ما يقولونه من الشعر المأثور في تمثيل الحسين معزراً بدمائه بكر بلاء بعد ان اذيق من العطش الكروب واهل بيته يساقون سبائاً الى قاعدة ملك الظالمين ثم تمثيل من بعده ممن خرجوا على بنى أمية حتى ينقاد الناس الى من يدعوهم للقيام الى رد الحق لاهله

لم يكن أحد من الناس يفاضل بين بنى علي وبنى العباس في استحقاق الخلافة بل كانت بنو علي يرون الحق لهم خالصاً لما لأبيهم من الامتيازات الكثيرة ولكن بنى العباس جدت عندهم فكرة الدعوة إلى أنفسهم بعد وفاة أبي هاشم بن محمد بن علي عن غير عقب فزعموا أنه أدلى بالامر إلى محمد بن علي ابن عبد الله بن عباس مع اضافتهم إلى ذلك أن العباس أولى بميراث رسول الله من علي لأن الاول عم والثاني ابن عم فاشتغلوا في الامر بمهارة حيث كان لهم دعاة يدعون الناس اليهم سرّاً في دولة بنى أمية واتصل بهم ذلك الزعيم المقدم أبو مسلم الخراساني فتم لهم الامر ورد اليهم الخلافة بعد أن أسقط بنى أمية من تلك العروش السامية ومن المؤكد أنه كان يدعو الناس الى الرضا من أهل البيت ولا يصرح باسمه ولا بنسبه مما يدل على أن الامة كان توجهها الى علي وأهل بيته أكثر من توجهها الى بنى العباس فلما تم له الامر أعلن اسم عبد الله السفاح بن محمد بن علي بن عبد الله ابن عباس

عاد الاصطدام حينئذ بين البيتين العلوي والعباسي ، فكان نصيب آل علي في خلافة بنى هاشم أشد وأقسى مما لاقوه في عهد خصومهم من بنى أمية فقتلوا وشرّدوا كل مشرد ، وخصوصاً في زمن المنصور والرشيد والمتوكل من بنى العباس وكان اتهم شخص في هذه الدولة بالميل الى واحد من بنى علي كافياً لاتلاف نفسه ومصادرة ماله وقد حصل ذلك فعلاً لبعض الوزراء وغيرهم الا أن ذلك كله لم يذهب بفكرة استحقاق علي وأهل بيته للخلافة وأنهم قد ظلموا وسلب حقهم فصاروا يخرجون علي بنى العباس كما كانوا

يخرجون على بنى أمية والعاقبة القتل والتشريد : وحينئذ بدت لبعضهم
فكرة الخروج إلى أرض لاتناها قوة العباسيين ومن بقي منهم بالشرق
سكت على ما في نفسه

ذهب الفارون الى أفريقية بعد أن سبقهم دعائهم فأسسوا بها دولا
علوية لها كبير ذكر في التاريخ كالدولة الفاطمية ودولة الادارسة وغيرها ممن
سيأتي ذكرهم بعد والباقون بالشرق كانت لهم شيعة تكرمهم وتميل اليهم في
السرح حتى كان شيء من ذلك فيما يقال سبباً من أسباب سقوط الدولة
العباسية فان ابن العلقمي وزير المستعصم كان من غلاة الشيعة فساعد على
مجيء التتر الى بغداد وهم الذين أزالوا الخلافة العباسية من بغداد وكان أعظم
سلطان - اذذاك في الممالك الاسلامية - امصر وملوكها فساعدوا على اعادة
الخلافة العباسية ليستمدوا منها العهد اليهم حتى يكون سلطانهم مقبولا لا يتكلم
الناس فيه وجاءت على أثرهم الدولة العثمانية فاستمدت من آخر خلفائهم بمصر
عهد الخلافة

هذا كان شأن الاختلاف في البيت الذي يكون منه خليفة المسلمين
شكل الانتخاب

لم يرد في الكتاب أمر صريح بشكل انتخاب خليفة لرسول الله صلى
الله عليه وسلم اللهم الا تلك الاوامر العامة التي تتناول الخلافة وغيرها مثل
وصف المسلمين بقوله تعالى (وأمرهم شورى بينهم) وكذلك لم يرد في السنة
بيان نظام خاص لانتخاب الخليفة الا بعض نصائح تبعد عن الاختلاف
والتفرق كأن الشريعة أرادت أن تسلك هذا الامر للمسلمين حتى يحلوه

بأنفسهم ولو لم يكن الأمر كذلك لمهدت قواعدها وأوضحت سبله كما أوضحت
سبل الصلاة والصيام وغيرها . ولننظر مآسار عليه المسلمون في ذلك وهما هي
طرائقهم

(١) الطريقة الاولى : طريقة الانتخاب الاستشارية وقد حصلت
في انتخاب أبي بكر حيث اجتمع المسلمون في سقيفة بني ساعدة بالمدينة
وتشاوروا في الأمر ثم اتخبوا أبا بكر — بعد حوار وجدال — ولكن
انتخاب أبي بكر كان أمراً يحتاج الى السرعة في البت حذر الاختلاف
والفشل ويظهر أن المجتمعين في السقيفة لم يكن فيهم أحد من قريش
يتطلع للخلافة دون أبي بكر أول رجل سبق الى الاسلام وحضر
المساهد النبوية بأسرها ورافق رسول الله صلى الله عليه وسلم في الهجرة ففضلا
عما عرفه الصحابة من تقديم الرسول إياه ليصلى بالناس نيابة عنه في وقت
مرضه ولذلك لما اقترح أبو بكر أن يكون الخليفة واحداً من اثنين عمر بن الخطاب
او ابا عبيدة عامر بن الجراح اراد عمر ان ينهى الأمر بسرعة فمديده الى أبي
بكر فبايعه الناس وقد أثر عن عمر انه قال عن بيعة أبي بكر كانت فلقة وفي
الله شرها قال ذلك لما علم ان بعض الناس قال لو ان امير
المؤمنين مات لباعث فلانا : مضت هذه البيعة من غير ان يتبين
لناس البيعة التي لها الحق في انتخاب الخليفة إلا انها سنت الانتخاب
من حيث هو

(٢) الطريقة الثانية : ان يعهد الخليفة الموجود الى شخص آخر بعده
الخلافة وهي الطريقة التي كان بها انتخاب عمر بن الخطاب حيث اختاره

أبو بكر وقد قال للناس هل رضيتم من اخترته فقالوا نعم . وهذه الطريقة تجعل للخليفة الحرية في انتخاب ولي عهده من غير قيد

(٣) الطريقة الثالثة : طريقة الاختيار الشوري من افراد يعينهم الخليفة الموجود وهي الطريقة التي انتخب بها عثمان بن عفان فان عمر لما ضرب واحس بالموت خاف أن يترك المسلمين بدون خليفة لئلا يختلفوا ولم يكن امام نظره من لو استخلفه يكون مطمئن النفس من قبله فلم يشأ أن يتحمل أمر المسلمين حياً وميتاً فاختار ستة من كبار الصحابة وممن يرى أنه لا يتطلع لأمر الخلافة غيرهم ووضع لهم نظاماً ينتخبون به الخليفة من بينهم فامر أن يجتمعوا بعد وفاته في حجرة عائشة ويختاروا الخليفة في مدة لا تزيد على ثلاثة أيام وجعل للأغلبية الرأي المقبول فيجب على الأقل الرضوخ لحكمها والا اعتبر خارجاً يستحق القتل واذا تساوت الاصوات كان القسم الذي فيه عبد الرحمن بن عوف مرجحاً

وهذه الطريقة كانت بذرة صالحة لو وجدت منبتاً حسناً ولكننا لم نر في مستقبل الامة من تناولها فضلاً عن أن يحسن فيها : لا ينكر أنها طريقة مشورية ناقصة لانه لم يكن القصد منها أخذ رأى الجمهور فيمن يكون خليفة عليهم وإنما المقصود أن تؤخذ كلمة المرشحين للخلافة لاحد هم حتى لا يجد محبوب الخلافة مجالاً للخلاف ويظهر لنا أن عمر كان محسباً بان كلا منهم يتطلع لان يكون خليفة وخاف على الامة الشقاق من بعده فعهد اليهم عهده ويظن أن هذه الفكرة لم تكن عنده بنت وقتها بل كان يفكر في ذلك من قبل بعد أن سمع عبارة الرجل التي سبق ذكرها

لم يكن في طريقة من هذه الطرق الثلاث حل لتلك المسألة المتشابهة
الاطراف لان الطريقة الاولى لم يبين فيها من لهم حق الانتخاب الذين
يكون صوتهم محترماً أم الامة بأسرها أم هم أفراد مخصوصون ؟ وان كانوا
مخصوصين فمن هم ؟ وغاية ما أمكن شراح هذه القاعدة أن يقولوه أن قالوا
هم أهل الحل والعقد ، ولكن من هم أهل الحل والعقد ؟ أم ولاية الامصار أم
قواد الجيش أم أعيان الامة ؟ كل ذلك لم يبين فالتطلع للخلافة يجد مجالا
واسعاً للتأويل كما حصل عند استخلاف علي . والطريقة الثانية وهي طريقة
العهد ليس فيها ضمان لاختيار من يحبه الناس ويكون قادراً على حماية مصالحها
وان يكن من الممكن في بعض الاحيان أن يكون الشخص المختار لولاية
العهد خير الناس كما حصل في انتخاب عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز
والطريقة الثالثة — في حقيقة الامر — كالثانية اذا اقتصر فيها على الشكل
الذي رآه عمر لانها عبارة عن عهد إلى واحد غير معين من أفراد محصورين
يختارهم الامام لذلك لما جاء دور علي قام جماعة من أهل المدينة والثوار من
الآفاق فبايعوه بالخلافة وهو بالمدينة ولم يؤخذ في ذلك رأى غيرهم من المسلمين
في الحواضر الاسلامية كان أهل المدينة — وحدهم — هم الذين ينتهي اليهم
أمر انتخاب الخلفاء وليس لغيرهم معه رأي ولو كانوا من أهل الحل والعقد
في الامة متى كانوا بعيدين عن الحاضرة الكبرى : كان ممن يتربخ الخلافة
ويرى نفسه لها أهلاً معاوية بن أبي سفيان فقام بأهل الشام معلناً أنه مخالف
لان بيعة علي ليست بصحيحة وحصل اصطدام بين الطرفين في سهل صفين
فلما عضتهم الحرب بنابها عمدوا الى شيء سموه تحكيماً ومعنى ذلك أنهم

انتخبوا رجلاين من كل فريق أحدهما له هوى في صاحبه وأريد منهما أن يحكما في أهم مشكلة تهم الأمة الإسلامية بأسرها ومن المؤكد أن سلطة الحكمين لم تكن محدودة لانهما لم يقتصرا في البحث على الحكم بين الشخصين المتنازعين بل تجاوزا ذلك إلى البحث في خلعهما معاً وتولية شخص آخر وبطبيعة الحال لم يكن لهذا التحكيم نتيجة شأن كل شيء لم يوضع له أساس ولا حدود ولكنه أوجد للمتنازعين خصما ثالثا قويا الشكيمة وهم الخوارج الذين رأوا هذا التحكيم ضلالة بل مروقا من الدين منادين بشعار اتخذوهم وهو لا حكم إلا لله وعبارتهم تشعر ان الخليفة المختار معين من قبل الله فلا ينبغي له أن يكون في شك من امره ولما كان على هو الخليفة وحكم الناس في امره فقد شك ومن شك ضل فلم يعد يصلح في نظرهم للخلافة وكذلك معاوية لما تعرض لما ليس له بحق ضل فليس للخلافة بأهل وكذلك كونوا لهم جماعة اعطوها الحق في ان تنتخب لنفسها خليفة يكون بانتخاب ورأوا ان جميع مخالفهم كفار فاستباحوا دماءهم واموالهم وهؤلاء لم يضعوا لامرهم حدوداً مقررة لذلك تطرق اليهم الاختلاف كما تفرق غيرهم وطاردتهم الخلاف بما عندهم من القوة حتى لم يكن منهم فائدة لا لانفسهم ولا لغيرهم بل كان منهم الضرر الشامل والفتن الحاصدة . انتهى امر على واستقر الامر لمعاوية بفضل قوته وسياسته ويسميه التاريخ بالخليفة المتغلب وفي نظرنا ان خلافته وبيعته لم تنقص في الشكل عن بيعة على بقطع النظر عن التعرض لما في كل منهما من الصفات والامتيازات الدينية لان معاوية بايعه فريق من الناس وعلى بايعه فريق آخر ومن الضروري ان يتغلب اقوى المتنازعين

وليس هناك حدود معينة في الشريعة يقال ان احدهما تعداها الا ان سرنا على رأى من يقول ان علياً معين للخلافة بالنص عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا امر لم يتأكد الصحابة من صحته

سار بنو أمية من معاوية فمن دونه في ولاية العهد على أن الخليفة هو الذي يعينه كما هي طريقة أبي بكر في عهده لعمر الا أن بينهما فرقاً وهو أن أبا بكر اختار رجلاً ليس من ذوى قرابته بل من بطن آخر وبنو أمية كانوا يتخيرون من قرابتهم وكانوا في الغالب أولادهم حتى تكون بذلك دولة من بيت واحد فمعاوية عهد الى ولده يزيد ولكنه امتاز في عهده بان طلب من ولادة الامصار أن يوفدوا اليه وفوداً من أمصارهم يعرض عليهم اختيار ولى عهده وبالطبع لم يوفد هؤلاء الولادة إلا من لهم هوى في بقاء الامر في عقب معاوية فاما اجتمعوا لديه بدمشق عرض عليهم الامر ، وأنه يخاف اختلاف المسلمين من بعده وطلب منهم أن يختاروا لانفسهم فرشحوا ابنه يزيد للامر بعد أن تكلم متكلموهم بالثناء عليه وكان البادئون بذلك قوما لهم علم بما عزم الخليفة عليه وتابعهم على ذلك غيرهم وبهذا أخذ إعترافيهم قبل موته يزيد وبايعوه بولاية العهد الا أنه كان هناك من هو أكبر من يزيد، من كبار الصحابة من قریش ولهم فوقه شرف الصحبة فلم يخضعوا لارادة معاوية وكان من نتيجة هذا تلك الحوادث الكبرى التي حصلت في عهد يزيد من خروج الحسين بن علي وقتله وخلاف ابن الزبير

وعهد يزيد الى ابنه معاوية الا أن الرجل لم يقدر على تحمل ذلك العبء في وسط هذه الظلمات الخالكة فاعتزل وترك حبل الامة على غاربها وفي تلك

الظروف كانت الفتن تموج موجاً حتى استقر الامر بغلب مروان بن الحكمين
أبي العاص بن أمية الذي عهد بالخلافة من بعده لاثنين من أولاده يتلو
أحدهما الآخر وهما عبد الملك وعبد العزيز وهي أول مرة ولى العهد فيها
أثنان (١)

ولم تزل طريقة العهد سائدة في بني أمية حتى انقرضت دولتهم وجاءت
خلافة بني العباس فسارت على هذا النمط الا أنه في عهد الضعف الذي استولى
عليها لم يكن الخليفة يدرك أن يعهد لانه كان يجر من السرير الى القبر فيجتمع
أصحاب (العقد والحل) ويختارون من يشتهون ولولا ما كان يدين به الناس
من استحقاق القوم للخلافة لآل أمرها الى الفناء سريعاً بعد أن جاءها سيل

(١) ومن الغريب أنه ما من مرة ولى فيها اثنان الا كانت النتيجة سيئة من
جاء ذلك فان أولهما كان يميل الى نزع ثانيهما اما لانه يتوهم أنه يجتهد أن يتعجل
الامور لنفسه ولا يكون ذلك الا بهلاك الاول واما لان الاول يفضل ابنه على اخيه
أو ابن عمه الذي جعل ولى عهد له فيجتهد في نزع واقامة ابنه مقامه فقد اجتهد
عبد الملك أن يؤخر أخاه عبد العزيز ويولى ابنه الوليد . وولى سلمان بن عبد الملك
عنده ابن عمه عمر بن العزيز ثم أخاه يزيد بن عبد الملك فكان عمر يألم جدا من أن
يكون يزيد خليفة بعده ولولا ان عوجل لخرجها عنه بل عن بني أمية جميعا
وولى يزيد أخاه هشاماً ثم ابنه الوليد فكانت مدة هشام كلها تنغيصاً على الوليد
حتى ساءت اخلاقه وولى السماح عهده أخاه المنصور ثم من بعده ابن عمه عيسى
ابن موسى فلم يزل المنصور بعيسى حتى أخره وقدم المهدي . وولى المهدي ابنه
الهادي ثم الرشيد فحاول الهادي أن يخلع الرشيد لولا انه عوجل وولى الرشيد بنه
الامين ثم المأمون فكان بينهما من الحروب ما أدى الى قتل الامين ومن الغريب
أن اللاحق لا يتعلم مما اصاب السابق

المتغلبين من الشرق من آل بويه ثم آل ساجوق وغيرهم من الملوك الذين استحصل أمرهم في مصر والشام إلا أنهم لما قدمنا كانوا يأخذون عهد السلطان من هؤلاء الخلفاء حتى أن الظاهر بيبرس البندقدارى ثالث المماليك بمصر لما رأى سقوط بني العباس ببغداد ورأى نفسه ليس بذى عهد من خليفة ساعد على إثبات نسب أحد الوافدين عليه المنتسبين إلى آل عباس ليتسمى باسم الخلافة ثم يولييه الملك نيابة عنه

جاء البيت العثماني واخضع لسلطانه كثيراً من الأمم الإسلامية التي كان لها ملوك متفرقون وتسمى كبيره في عهد السلطان سليم فاتح مصر باسم خليفة المسامين وهذا البيت اتخذ له قاعدة يسير عليها في شكل الاختيار وهي أن تكون الخلافة للأكبر فالأكبر من البيت ومع هذا لم يخل الأمر من طموح غير الأكبر لمنازعة أخيه وبسبب ذلك كان يحصل الاضطراب حتى أدى ذلك بكثير منهم إلى أن تكون فاتحة أعمالهم قتل من لهم من الأخوة حينما يتولى ومع هذا فإن نظامهم حفظ الملك في بيتهم أكثر مما حفظه في أي بيت آخر

أما الانتخاب عند أهل التنصيص على البيت العلوى فانه كان منظوراً فيه إلى الوراثة فيقوم مقام الأب أكبر أولاده ولذلك ساقطها الفرقة الاثنا عشرية في بني الحسين بن علي وسموا علياً ومن يليه الاثمة وكانوا اثني عشر آخرهم المهدي المنتظر الذي اختفى وينتظرون عودته آخر الزمان ولغيرهم طرق أخرى في سوق الخلافة لسنا الآن بصدد بيانها ومع ضيق الدائرة التي جعلت منها الاثمة عند الشيعة لم يمكنهم أن يتفقوا فنال شكل

الانتخاب عندئذ الخلاف ففرقوا ذلك فرقاً

لم يكن يحل الخلاف في زمن من الأزمان إلا بالقوة فهي التي تجعل صاحبها صاحب الحق ظاهراً ولم يلتفت أحد من هؤلاء أن يسعى في جمع الحكامة على قانون يتبع في انتخاب الخلفاء وهي نتيجة طبيعية لكثرة المتطاعمين

تناول العلماء في الدولة العباسية مسألة الخلافة وأدخلوها ضمن مباحث العقائد الدينية ويخيل اليك أن أول من وضعها هذا الموضع كان يرى رأى الشيعة فإن الخلافة عندهم من أمور الدين ثم جبر إليه المتكلمين وصار أمرها موضوعاً جديلاً كغيره من المسائل الدينية وكان النزاع يدور بينهم على ستة أمور :

(١) وجوب نصب الامام أهو واجب على الأمة من طريق السمع كما هو رأى الجمهور ؟ أو من طريق العقل كما هو رأى المعتزلة والزيدية ؟ أو من طريقهما معاً كما هو رأى بعض المعتزلة ؟ أو على الله لحفظ قوانين الشرع كما هو رأى الامامية ؟ أو على الله ليكون معرفاً لله وصفاته كما هو رأى الاسماعيلية ؟ أو لا يجب كما هو رأى الخوارج أو يجب عند الامن أو عند الفتنة كما هو رأى هشام الغوطي واتباعه ؟ أو يجب عند الفتنة دون الامن كما هو رأى الاصم ومن شايعه من المعتزلة

(٢) شروط الامام وقد عدوا منها شروطاً لا خلاف فيها ومنها شروط فيها الخلاف كالقرشية عند الجمهور والهاشمية عند الشيعة والعلم بجميع مسائل الدين وظهور معجزة على يده عند بعض الشيعة

(٣) ما ثبت به الامامة وهو النص من رسول الله أو من الامام الموجود وبيعة أهل الحل والعقد خلافاً للشيعة ثم قالوا لا يحتاج الامر الى

اجتماع أهل الحل والعقد بل يكفي الواحد والاثنان وقال بعضهم لا بد أن يكون ذلك أمام بيعة عادلة وهل يجوز تعدد الائمة أو لا يجوز؟ وهل يجوز خلعهم ولاي شيء يكون ذلك؟

(٤) من هو الامام الحق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أهو أبو بكر أم علي؟

(٥) من هو أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم؟

(٦) ما حكم امامة المفضول مع وجود الفاضل؟

وكانت هذه المناقشات مع حديثها وغوصها على معان جميلة شريفة في بعض الاحيان عذبة الجدوى من الوجهة العملية لان هؤلاء يتجادلون بأسنة الاقلام في مدارسهم وعلى صفحات كتبهم وأولئك يحكمون صفحات الحسام ولا يلتقون بالا لتلك المناقشات كان شأنها لا يهمهم

والخلاصة : أن مسألة الخلافة الإسلامية والاستخلاف لم تسر مع

الزمن في طريق يؤمن فيه العشار بل كان تركها على ماهي عليه من غير حل محدد ترضاه الامة وتدفع عنه، سببا لاكثر الحوادث التي أصابت المسلمين وأوجدت ما سيرد عليكم من انواع الشقاق والحروب المتواصلة التي قلما يخلو منها زمن سواء كان ذلك بين بيتين او بين شخصين



المحاضرة التاسعة عشرة

انتخاب أبي بكر — أول خطاب له — ترجمته — أخلاق أبي بكر —

أخبار الردة

انتخاب أبي بكر

كانت الانصار منقسمة الى شعبتين الاوس والخزرج وكان الخزرج أكثر عدداً من الاوس والرياسة والتقدم لسعد بن عباد من بني ساعدة وهو أحد النقباء الذين انتخبوا ليلة العقبة وكانت دار سعد مما يلي سوق المدينة وعندها سقيفة وهي ظلة كانت بالقرب من داره . فلما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعلنت لهم وفاته اجتمع كبار الانصار في تلك السقيفة أوسهم وخزرجهم يريدون انتخاب خليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم منهم وكان نظرهم متوجهاً الى اختيار سعد بن عباد فان سعداً خطب فيهم مبيناً مال الانصار من الفضل والسبق الى حماية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنه لا ينبغي أن ينازعهم في هذا الامر أحد فأجابوه أصبت ووفقت ثم ترادوا الكلام فيما بينهم فقال قائل منهم فان أبي ذلك المهاجرون من قريش وقالوا نحن عشيرته وأولياؤه فاذا نقول لهم ؟ فقال له آخر نقول منا أمير ومنكم أمير ، ولن نرضى بدون هذا فقال سعد لما سمعها هذا أول الوهن

بلغ هذا الاجتماع كبار المهاجرين أبا بكر وعمر وغيرهما فمضوا إلى السقيفة

مسر عين حتى وصلوا اليها وكان عمر يريد أن يتكلم بكلام هياه في نفسه ليقوله في هذا الموقف فقال له أبو بكر على رسلك ! وكان أبو بكر رجلاً وقوراً فيه أناة ثم تكلم فذكر تاريخ المهاجرين وما لهم من فضل السبق وتحمل المصاعب في سبيل دينهم ثم كر على ذكر الانصار فاثني عليهم ولم يترك شيئاً مما لهم من المآثر الا ذكره ، ثم روى لهم ما أثر عن الرسول عليه السلام من قوله (الأئمة من قريش) ثم قال فنحن الامراء وأنتم الوزراء لا تفتاتون بمشورة ولا تقضى دونكم الامور ، فلما أتم خطابه قام اليه الحباب بن المنذر وهو من بني جشم بن الخزرج فقال يامعشر الانصار املكوا عليكم امركم فان الناس في فيئكم وظلمكم ولن يجترىء مجترىء على اخلافكم ولن يصدر الناس الا عن رايكم انتم اهل العز والثروة واولو العدد والمنعة والتجربة وذوو البأس والنجدة وإنما ينظر الناس الى ما تصنعون ولا تختلفوا فيفسد عليكم امركم ابى هؤلاء الا ما سمعتم فمنا امير ومنهم امير فقال عمر هيهات لا يجتمع اثنان في قرن وبعد كلام له قام الحباب ثانية فقال يامعشر الانصار املكوا على ايديكم ولا تسمعوا مقالة هذا واصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الامر ثم قال انا جديها (١) المحكك وعذيقها المرجب اما والله إن شئتم لنعيدنها جذعة فكان بينه وبين عمر حوار ثم قال ابو عبيدة يامعشر الانصار إنكم اول من نصر وأزر فلا تكونوا اول من بدل وغير فقام بشير بن سعد وهو من بني زيد بن مالك من الخزرج فقال يامعشر الانصار إنا والله لئن كننا اولى فضيلة وجهاد وسابقة في هذا

(١) تصغير الجذل عود ينصب للجري لتحتك به والعزيق تصغير المذق وهو النخلة وترجيبيها ان يبني تحتها دكان تعتمد اليه

الدين ما اردنا به إلا رضا ربنا وطاعة نبينا والكمدح لانفسنا فيما ينبغي لنا ان نستطيل على الناس بذلك ولا ينبغي به من الدنيا عرضاً فان الله ولي المنة علينا بذلك الا ان محمداً من قريش وقومه احق به واولي وايم الله لا يراني الله انازعهم هذا الامر ابداً فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم فقال ابو بكر هذا عمر وهذا ابو عبيدة فايهما شئتم فبايعوا فقال لا والله لا نتولى هذا الامر عليك فانك افضل المهاجرين وثاني اثنين اذهبا في الغار وخليفة رسول الله على الصلاة والصلاة افضل دين المسلمين فاذا ينبغي له ان يتقدمك او يتولى هذا عليك ابسط يدك لنبايعةك فمد عمر يده اليه فبايعه ثم ابو عبيدة ثم بشير ابن سعد فلما رأى ذلك الحباب قال لبشير عقتت ! انفتت على ابن عمك الامارة ؟ قال لا والله ولكني كرهت ان انازع قوما حقاً جعله الله لهم

ولما رأت الاوس ما صنع بشير وما تدعو اليه قريش وما تطالب الخزرج من تأمير سعد بن عباد قال بعضهم لبعض وفيهم أسيد بن حضير وكان أحد النقباء والله لئن وليتها الخزرج عليكم مرة لازالت لهم عليكم بذلك الفضيلة ولا جعلوا لكم معهم فيها نصيباً ابداً قوموا فبايعوا أبا بكر فقاموا اليه فبايعوه فانكسر على سعد وعلى الخزرج ما كانوا أجمعوا له من أمرهم فأقبل الناس من كل جانب يبايعون أبا بكر حتى كادوا يطؤون سعد بن عباد وهو مريض لا يقدر على النهوض ولم يتخلف عن هذه البيعة إلا علي بن أبي طالب ومن معه لانهم لم يحضروا السقيفة وكانوا مشغولين في جهاز رسول الله صلى الله عليه وسلم

بهذا تمت بيعة أبي بكر لان جمهور المسلمين بايعه وكان كبار الصحابة

كلهم اذذاك في المدينة ، ولم يزل على بن أبي طالب ممتنعاً عن مبايعة أبي بكر ستة أشهر حتى ماتت فاطمة زوجة و كانت لعل من الناس وجبة حياة فاطمة فلما ماتت استنكر وجوه الناس فالتمس مصالحة أبي بكر فأرسل الى أبي بكر أن أتتنا ولا يأتنا معك أحد كراهية محضر عمر بن الخطاب فقال عمر لأبي بكر والله لا تدخل عليهم وحدك فقال أبو بكر وما عساهم أن يفعلوا بي ؟ والله لا تدينهم فدخل عليهم أبو بكر فتشهد على ثم قال قد عرفنا يا أبا بكر فضيلتك وما أعطاك الله ولا تنفس عليك خيراً أسأقه الله اليك ولكنك استبددت علينا بالامر وكنا نحن نرى لنا حقاً اقربتنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يزل يكلم أبا بكر حتى فاضت عيناه ثم قال أبو بكر والله اقربا رسول الله أحب الى أن أصل من قرأتي وبعد أن أتم كلامه قال على لابني بكر موعدك العشية للبيعة فلما صلى أبو بكر صلاة الظهر رقي على المنبر فتشهد وذ كر شأن على وتحلفه عن البيعة وعذره بالذي اعتذر به ثم استغفر على وتشهد فنهظم شأن أبي بكر وأنه لم يحمله على الذي صنع نفاسة على أبي بكر ولا إنكاراً للذي فضله الله به ولكننا كنا نرى لنا في الامر نصيباً فاستبد به فوجدنا في أنفسنا فسر بذلك المسلمون وقالوا أصبت وكانوا الى على قريباً حينما راجع الامر بالمعروف

أول خطاب لابني بكر

بعد ان تمت بيعته قام في الناس خطيباً (١) فقال ايها الناس قد وليت

(١) كانت الخطبة بعد تمام أمر الخلافة عادة للخلفاء بعد أبي بكر يظهر بها مالا انفسهم من الخطة التي سيتبعونها في سياسة أمتهم اجمالاً

عليكم ولست بخيركم فان احسنت فأعينوني وان صدفت فقوموني الصدق
امانة والكذب خيانة والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ له حقه والقوى
فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه ان شاء الله . لا يدع احد منكم الجهاد
فانه لا يدعه قوم الا ضربهم الله بالذل اطيعوني ما طعت الله ورسوله فاذا
عصيت الله فلا طاعة لى عايكم قوموا الى صلاتكم يرحمكم الله وهذه الكلمة
هي مجمل الطريقة التى اتبعها في خلافته اخبرهم بواجب عليهم وهو إعانتة
وحق لهم وهو تقويمه اذا صدف عن الحق وفي هذا ضمان لحريةهم فى القول
اعطاهم عهداً ان يعدل فيهم فلا تمنعه قوة الظالم ان ينصف منه المظلوم ولا
يمنعه ضعف المظلوم ان ينصفه من ظالمه - حثهم على الجهاد الذى كان
لا بد منه - اخبرهم انه خليفة لينفذ الشريعة فاذا عدل عنها فلا طاعة له
عليهم

ترجمة ابي بكر

هو ابو بكر بن ابي قحافة من بنى تيم بن مرة بن كعب بن لؤى بن
غالب بن فهر وامه ام الخير سامى بنت صخر بن عامر من تيم بن مرة ولد
لستين من عام الفيل وشب على الاخلاق الفاضلة والسيرة الكريمة وكان
ذايسار يحمل الكل ويكسب المعدوم وكان محبباً الى قريش يعرف من انسابهم
مالا يعرفه غيره وكان مصاحباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبل النبوة فلما
شرف الله محمداً برسالاته كان أبو بكر أول رجل أجابه حتى قال في ذلك رسول
الله صلى الله عليه وسلم مادعوت أحداً الى الاسلام الا كانت له كبوة غير
أبي بكر وكان له فى الدعوة الى الاسلام اليد الطولى وقد أراد ان يهاجر

إلى الحبشة حينما اشتد إيذاء المشركين على المسلمين فمنعه من ذلك ابن الدغنة سيد القارة وأجاره على قريش على شرط أن لا يستعان بصلاته ولما لم يجد بعد ذلك بداً من أن يتخلص من هذا الشرط رد على ابن الدغنة جواره وأقام راضياً أن يصيبه ما يصيب اخوانه : ولما كانت هجرة المدينة كان له شرف الصحبة وكان ثاني اثنين إذ هما في الغار وشهد بعد الهجرة جميع المشاهد الإسلامية لم يتخلف عن واحدة منها وكان صاحب الراية في غزوة تبوك وأمره النبي صلى الله عليه وسلم على الحج في السنة التاسعة ولما مرض عليه السلام أمره أن يقوم مقامه في الصلاة

تزوج أبو بكر في الجاهلية قتيلة بنت عبد العزى من بنى عامر بن لؤي فولدت له عبد الله وأسماء التي تزوجها الزبير بن العوام — وتزوج في الجاهلية أيضاً أم رومان بنت عامر من بنى غنم بن مالك بن كنانة فولدت له عبد الرحمن وعائشة التي تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم — وتزوج في الإسلام أسماء بنت عميس من خثعم بعد أن قتل عنها زوجها جعفر بن أبي طالب فولدت له محمداً — وتزوج في الإسلام أيضاً حبيبة بنت خزيمة بن زيد من الخزرج فولدت له بعد وفاته جارية سميت أم كلثوم . فذكر أولاده ثلاثة وأناتهم ثلاث

أخلاق أبي بكر

لكل عظيم أخلاق يظهر أثرها في أعماله ظهوراً واضحاً وتظهر للناس صورتها كلما ذكر اسمه وإذا أردنا أن نعرف ذلك من أبي بكر فانا نجد أظهر أخلاقه

﴿صدق العزيمة . الرقة﴾

وصدق العزيمة أن يبحث الانسان في الامر على قدر ما يتهيأ له من طرق البحث ويستعين بأراء غيره إن كان شوريا فاذا اتضح له السبيل عزم ومضى عزم لا يثنيه شيء عما عزم عليه حتى إذا رأى الجبال أمامه تريد صدده حاول أن يفتح له منها طريقاً : هكذا كان أبو بكر

والرقة أن يكون الوجدان سريع التأثر وضدها القسوة فترى الرقيق يتأثر من الآلام التي تصيب الناس حتى اعداءه وتجد عبراته تسابق قلبه إلى التأثر

وهذان الخلقان يدفع أحدهما شر الآخر في سواس الأثم لأن الرقة المتناهية تجعل الانسان متردداً في أموره حسب المؤثرات التي تنال نفسه فاذا كان معها صادق العزيمة أمن شر التردد المهلك

أول مظهر من صدق عزيمة أبي بكر ما كان منه في بعث أسامة بن زيد قبيل مرض الرسول صلى الله عليه وسلم هياً بعثا ليرسلا الى مشارف الشام حيث قتل زيد بن حارثة وأصحابه في مؤتة وكان في هذا البعث ابو بكر وعمر وكثير من كبار الصحابة ولما كاد البعث يبرح المدينة مرض عليه السلام فتوقف خارجها حتى كانت الوفاة وبويع بالخلافة أبو بكر وحينئذ بلغه أن الاعراب ارتد كثير منهم عن الاسلام فكلم في تأخير بعث أسامة ليكون عدة على المخالفين فأبى شديد الالباء وصمم على تنفيذ البعث مهما تكن النتيجة ولو كان قد تردد في الامر أو اخر البعث لكان قد شرع للناس لأول مرة مخالفة ما أمر به الرسول أمراً حتماً وكان يدور على لسانه وقت مرضه

التأكيـد بانفـاذ بعـث اسامة . ثم تسكـم في ان يـهـير اسامة برجل اسـن منه يقود
الجيش فغضب غضباً شديداً وقال يوليه رسول الله ويعزله ابو بكر ١٩! واشتد
في الكلام مع عمر الذي كان يكلمه في ذلك عن بعض الانصار حتى قام
وأخذ باحـيته وقال عـدمـتـك امـك وثـكـلـتـك يا بن الخطاب استعمله رسول الله
صلى الله عليه وسلم وتأمرني ان انزعه . ولما كان عمر من ضمن ذلك البعث
وكان من الضروري وجوده بالمدينة ليعين ابا بكر لم يشأ الخليفة ان يستبد
على رئيس السرية بابقائه بل قال لاسامة إن رأيت ان تعينني بعمر فافعل
فأذن له . وهذا مقام كبير في احترام ذي السلطان في سلطانه وفي الحقيقة ذلك
راجع الى احترام الامر النبوي حيث رغب ابو بكر ان ينفذ تماماً واعتبر
ان اسامة مولى من سلطان اعلى من سلطانه فلا ينبغي له ان يفتات عليه .
ولما ودع ابو بكر هذا البعث اوصاهم بتلك الوصية وهي :

لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا
شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ولا تقطعوا
شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً الا لما كله وسوف تمرون باقوام
قد فرغوا انفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا انفسهم له وسوف تقدمون
على قوم يأتونكم بآنية فيها الوان الطعام فاذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء
فاذكروا اسم الله عليها . وتلقون اقواماً قد فخصوا اوساط رؤوسهم
وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقاً يدفعها باسم الله (١)

(١) في لسان العرب ، وفي الحديث أنه أوصى أمراء جيش مؤتة — وستجدون
آخرين - لالشيطان في رؤوسهم مفاحص فافلقوها بالسيف أي أن الشيطان قد استوطن

فسار أسامة وشن الغارة على بلاد قضاة وأخافهم وغنم منهم واستمر
في بعثه أربعين يوماً ثم عاد وكان هذا البعث مفيداً للمسلمين لأن أعداءهم
تسامعوا به قالوا لو لم يكن للقوم قوة ما أرسلوا جيوشهم تغير على من بعد
عنهم من القبائل القوية !

ومما يظهر صدق عزيمة أبي بكر ما كان منه في أخبار الردة
أخبار الردة

قدمنا أن كثيراً من أعراب البادية بنجد واليمن لم يتأثروا بعد بأثر
الاسلام ولم ترك أنفسهم الزكاة المطوب وقد بين الكتاب ذلك بقوله في سورة
الحجرات (قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل
الايمن في قلوبكم) فهذه كانت حالهم خضوع في الظاهر والقابض بعد لم
يتمكن منها الدين فأروا أن موت الرسول صلى الله عليه وسلم فرصة يتخلون
بها عن الفروض الاسلامية خصوصاً ما كان منها في المال كالزكاة ومنهم فريق
قام فيها دعاء يدعون الى أنفسهم مدعين أنهم أنبياء فتبعوا دعوتهم وبذلك
كانوا فريقين :

(١) فريق امتنع عن أداء الزكاة (٢) وفريق تبع المتنبيين ورفض الدين
كله : فكانت عزيمة أبي بكر صادقة في حرب هؤلاء الذين خرجوا من الدين

رؤوسهم فجعلها له مفاحص كما تستوطن القطا مفاحصها وهو من الاستعارات اللطيفة
لأن من كلامهم اذا وصفوا انسانا بشدة الفى والانهماك في الشر قالوا قد فرخ
الشيطان في رأسه وعشش. وفي حديث أبي بكر وسجد قوماً فحصبوا عن اوساط
رؤوسهم الشعر فاضرب ما فحصبوا عنه بالسيف وفي الصحيح كانهم حلقوا وسطها
وتركوها مثل أفاحيص الطير مجازها

و حاربوه بعد ان دخلوا فيه مع ما يعلمه من هذا الانتفاض الذى كاد يكون فى
عامه الاعراب ولكن صدق العزيمة يذلل كل شىء

فلما جاءت به الاخبار مكث ينتظر بعث أسامة لانه كان فيه معظم القوة
وكان جيران المدينة من عبس وذيان قد اجترءوا عليها يريدون مهاجمتها فلما
قدم بعث أسامة استخلف أبو بكر أسامة على المدينة وكان قصده بذلك ان
يرتاح جنده ويرمحوا ظهورهم وهم بالخروج فيمن معه من الجنود وحرس المدينة
لحرب عبس وذيان فقال له المسلمون نشدك الله يا خليفة رسول الله أن لا
تعرض نفسك فانك ان تصب لم يكن للناس نظام ومقامك أشد على العدو
فابعث رجلاً فان أصيب بعثت آخر فقال والله لا أفعل ولا واسينكم بنفسى
فخرج في تعييته حتى نزل على أهل الربة فلا برق فاقتتل جنده مع بنى عبس
فهزم العبسيون وأخذ الحطيئة الشاعر أسيراً واقام أبو بكر بالابرق أياماً
وقد غلب بنى ذبيان على البلاد وحماتها خيول المسلمين وأرعى سائر الربة
الناس ثم عاد أبو بكر إلى المدينة فلما استراح جنده أسامة خرج الى ذى
القصة فنزل بهم وذو القصة على بريد من المدينة تلقاء نجده فقطع فيها الجند
وعقد الألوية عقد في ذلك اليوم احد عشر لواء الاحد عشر اميراً وهم

(١) خالد بن الوليد ووجهته طليحة بن خويلد الاسدى بهزاة فاذا فرغ

منه قصد مالك بن نويرة بالبطاح

(٢) عكرمة بن ابى جهل ووجهه الى مسيلمة باليمامة

(٣) ووجهه فى اثره شرحبيل بن حسنة

(٤) المهاجر بن ابى امية ووجهه الى جنود الاسود العنسي بصنعاء ومعاونة
الابناء

(٥) حذيفة بن محصن ووجهته اهل دبا بعمان

(٦) عرجة بن هرثمة ووجهته اهل مهرة وامر هذا ومن قبله ان يجتمعا
وكل امير على صاحبه في عمله

(٧) سويد بن مقرن الى تهامة اليمن

(٨) العلاء بن الحضرمي ووجهه الى البحرين

(٩) طريفة بن حازم ووجهه الى بني سليم ومن معهم من هوازن

(١٠) عمرو بن العاص ووجهه الى قضاة

(١١) خالد بن سعيد ووجهه الى مشارف الشام

وبعد ان عين الجنود والامراء كتب للمرتدين من العرب كتابا واحداً
(منشوراً) ارسله اليهم قبل ان تسير الجنود قال فيه بعد ان بدأه باسم الله
وذكر الرسالة والوفاة قال (وقد بانني رجوع من رجوع منكم عن دينه اقر
بالاسلام وعمل به اغتراراً بالله وجهالة بامرره واجابة للشيطان قال الله تعالى (واذ
قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا ابليس كان من الجن ففسق عن
امر ربه افنتخذونه وذريته اولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا)
وقال (ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً انما يدعو حزبه ليكونوا من
اصحاب السعير) واني قد بعثت اليكم فلانا في جيش من المهاجرين والانصار
والتابعين باحسان وامرته ان لا يقاتل احداً ولا يقتله حتى يدعوه الى داعية
الله فمن استجاب له واقر وكف وعمل صالحا قبل منه واعانته عليه ومن ابى

أمرت أن يقاتله على ذلك ثم لا يبقى على أحد منهم قدر عليه وأن يحرقهم بالنار ويقتلهم كل قتلة وان يسبي النساء والذراري ولا يقبل من أحد إلا الاسلام فمن اتبعه فهو خير له ومن تركه فلن يعجز الله وقد أمر رسولي أن يقرأ كتابي في كل مجمع لكم والداعية الاذان فاذا أذن المسلمون فاذنوا كيف عنهم وان أقرؤا قبل منهم وحماهم على ما ينبغي) فنفذت الرسل بالكتب أمام الجنود وهذا فيما نعلم أول منشور عام صدر عن خليفة المسلمين ليقرأ في مجامع الناس وأنديتهم
وكتب إلى القواد عهداً صورته واحدة وهو هذا :

هذا عهد من أبي بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم لفلان حين بعثه فيمن بعثه لقتال من رجع عن الاسلام وعهد اليه أن يتقي الله ما استطاع في أمر كله سره وعلايته وأمره بالجد في أمر الله ومجاهدة من تولى عنه ورجع عن الاسلام إلى امانى الشيطان بعد أن يعذر اليهم فيدعوهم بداعية الاسلام فان أجابوه أمسك عنهم وإن لم يجيبوه شن غارته عليهم حتى يقرؤا له ثم ينبئهم بالذي عليهم والذي لهم فيأخذ ما عليهم ويعطيهم الذي لهم لا ينظروا ولا يرد المسلمون عن قتال عدوهم فمن أجاب إلى أمر الله عز وجل وأقر له قبل ذلك منه واعانه عليه بالمعروف وإنما يقاتل من كفر بالله على الاقرار بما جاء من عند الله فاذا أجاب إلى الدعوة لم يكن عليه سبيل وكان الله حسيبه بعد فيما استسره به ومن لم يجب داعية الله قتل وقوتل حيث كان وحيث بلغ مراغمة لا يقبل من أحد شيئاً أعطاه إلا الاسلام فمن أجابه وأقر قبل منه وعامه ومن أبي قاتله فان أظهره الله عليه قتل منهم كل قتلة بالسلاح والنيران ثم قسم ما

إفء الله عليه الا الخس فانه يبلغناه وأن يمنع أصحابه العجلة والفساد وان
لا يدخل فيهم حشواً حتى يعرفهم ويعلم ما هم لا يكونوا عيوناً ولا يوثى
المسلمون من قيامهم وان يقتصد بالمسلمين ويرفق بهم في السير والنزل ويتفقدهم
ولا يجعل بعضهم عن بعض ويستوصى بالمسلمين في حسن الصحبة ولين القول
طليحة ومالك بن نويرة

كان طليحة رجلاً من بني أسد بن خزيمة علم بمرض رسول الله صلى الله
عليه وسلم بعد انصرافه من حجة الوداع فسوات له نفسه أن يدعي للناس
النبوة ليكون له من الشأن ما رأى ابني قريش فدعا الى ذلك قومه من بني
أسد فشايعوه والتفت اليه طيء لما كان بينها وبين أسد من الحلف ودخلت
في غمارهم غطفان الا ما كان من خواص أقوام فيهم لم يغير وأمن دينهم وكان
مقام جنده بزاخة وهو ماء اطيء بارض نجد . وكان بالمدينة عدي بن حاتم
الطائي وهو سيد من ساداتهم فطلب من ابى بكر ان يذهب الى قومه فاذن
له فقدم عليهم فصار يفتلهم في الذروة والغارب حتى قالوا فاستقبل جيش خالد
فكفه عنا حتى نستخرج من لحق بزاخة منا فانا إن خالفنا طليحة وهم في
يديهم قتلهم او ارتهم فاستقبل عدي خالداً وقال له امسك عنى ثلاثاً يجتمع لك
... مقاتل تضرب بهم عدوك ففعل خالد ثم عاد عدي الى قومه وقد ارساوا
الى اخوانهم فاتوهم من بزاخة كالدلهم ثم راجعوا الاسلام فعاد الى خالد
واخبره ثم فعل ذلك بمجديلة فالحق بالمسلمين من الجيش الف مقاتل فسار حتى
اتى بزاخه واصطدم الجيشان اصطداماً شديداً فلما احس عيينة بن حصن
الفزاري بالضعف جاء الى طليحة وهو ملتف بكسائه فقال له الا ترى ما

يصنع بنا فهل جاءك ذو النون بشيء قال نعم قد جاءني وقال ان لك يوما ستلقاه ليس لك اوله ولك آخره ورحا كرحاه وحديثا لا تنساه فقال عيينة ارى والله ان لك حديثا لا تنساه يا بني فزاره هذا كذاب وولى عن عسكره فانهمزم الناس وهرب طليحة وانقضت جموعه ثم جاء بعد ذلك مسلما فقال له عمر انت الكاذب على الله حين زعمت انه انزل عليك ان الله لا يصنع بتعفير وجوهكم فاذكروا الله قياما فان الرغبة فوق الصريح فقال يا امير المؤمنين ذلك من فتن الكفر الذى هدمه الاسلام كله فلا تعنيف على ببعضه فأسكت عمر

بنو تميم ومالك بن نويرة

كان الرسول قد امر على بطون تميم امراء منهم الزبرقان بن بدر وقيس بن عاضم ووكيم بن مالك ومالك بن نويرة فلما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم كان منهم من ظل على الوفاء بما عاهد عليه الله فأرسل الزكاة إلى أبي بكر ومنهم من منعها كما لك بن نويرة ومنهم المتردد في الأمر وكان ذلك الخلاف مدعاة ان يشتغل بعضهم ببعض وبيناهم على ذلك الخلاف اقبلت عليهم من الجزيرة سجاح بنت الحارث وكانت هي وابوها وبنو تغلب واصلها من بني ربوع من تميم ادعت النبوة فتبعها جمع كبير من نصارى تغلب فهبطت بهم تريد غزو بني بكر فلما قربت من ديار بني تميم راسات مالك بن نويرة سيد بني ربوع ودعته إلى الوادعة فوادعها وثناها عن غزو أبي بكر وحماها ان تغزو بعض الاحياء من تميم وهم الذين يخالفونه ثم أرسلت إلى وكيم بن مالك سيد بني مالك بن حنظلة تدعوه إلى مثل ما دعت ابن نويرة فأجابها فاجتمع وكيم ومالك وسجاح وترددوا

بأى تميم يبدؤن فسجعت لهم سجاح قائلة أعدوا الركاب واستعدوا للنهاب ثم
أغبروا على الرباب فليس دونهم حجاب فكانت بذلك خطوب في بطون تميم
ولكن لم يستم لها أسر بين أظهرهم فتركت بنى تميم وعولت على المسير إلى
اليامة بجموعها وكان بها مسيامة الخنفي فلما سمع بها هاب جموعها وصالحها
وبينما هم على ذلك إذ سمعوا بقدم خالد بن الوليد في جيوشه فتفرقت جموعها
وعادت إلى الجزيرة وحينذاك ندم مالك بن نويرة على ما فعل وتخير في أمره
وكذلك من فعل فعله من رؤساء تميم غير أن من عداه ندموا ندماً ظاهراً
وأخرجوا الزكاة وأرسلوها إلى خالد أما مالك فوقف وأمر بنى يربوع أن
يتفرقوا فلما ورد خالد البطاح لم يجد أحداً فبث سراياه مغيرة على القوم فجاءته
بمالك في نفر من بنى يربوع فأمر بهم خالد فحبسوا ثم أمر بقتلهم فقتل مالك
ومن معه وكان بعض أفراد الجيش ومنهم أبو قتادة شهدوا أنهم أذنوا فلما
حصل القتل رأوه مخافاً لأمر الخليفة ومما كبر التهمة أن خالدًا تزوج زوجة
خالد بن نويرة فلما بلغ ذلك أبا بكر أسف وقال له عمر إن في سيف خالد
رهقاً فإن يكن هذا حقاً حتى عليه أن تقيده وأكثر عليه في ذلك وكان
أبو بكر لا يقيد من عماله ولا وزعته فقال هب يا عمر تأول فأخطأ فرفع
لسانك عن خالد وودى مالكاً وبخذلان بنى يربوع عاودت تميم كلها الإسلام
ورضيت أن تدفع صدقاتها إلى أبي بكر كما كانت تدفعها إلى رسول الله صلى
الله عليه وسلم

بنو حنيفة ومسيامة

كانت بنو حنيفة قد وفدت على الرسول في حياته وأسامت وكان

فهيهم مسيامة فلما شاع مرض الرسول تنبأ مسيامة ودعا الناس إلى اتباعه
وكان من طلبه أن يكون نصف الأرض لقريش ولبنى حنيفة نصفها ثم
يقول ولكن قريشا قوم لا بعدنون . فلما وجه ابوبكر الجيوش إلى المرتدين
وجه عكرمة لمحاربة بنى حنيفة باليمامة ووجه في أثره شرحبيل وأمرهما أن
يجتهدا فتعجل عكرمة ليفوز بمفخرة اليوم فنكب دون قصده فلما بلغ ذلك
أبوبكر غضب ووجه كلا من عكرمة وشرحبيل وجها آخر ثم اختار خالد بن
الوليد بعد أن انتهى من مالئ بن نيرة ليسير إلى اليمامة وانتدب معه قوة كبيرة
وكانت قوة مسيامة كبيرة جداً تبلغ أربعين ألفاً لأن أكثرها تبعه عصبية
حتى كان بعضهم يقول أشهد أن مسيامة كذاب وإن محمداً صادق ولكن
كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر . سار خالد حتى وصل طرف اليمامة
فكان بينهم يوم شديد الهول تذامر فيه بنو حنيفة وقتلوا عن أنفسهم وعن
أحسابهم قتلاً شديداً حتى انكشف المسلمون وكادت تتم الهزيمة عليهم
لولا رجال من ذوى الحمية والغيرة صرخوا في الناس فنبعثهم فنهضوا ثم كروا
بجمعهم ثانية على عدوهم حتى قتل مسيامة واشترك في قتله وحشي قاتل حمزة
ورجل من الانصار ولما رأى بنو حنيفة ذلك دخلوا حصونهم واحتموا بها
فصالحه عنهم مجاعة بن مرارة وكان القصد من الصالح أن لا يقتل المقاتلون
ويكتفى باخذ ما عندهم من النقود ذهباً وفضةً والسلاح وربيع السبي فاتفقا
على ذلك وكان ابوبكر قد ارسل إلى خالد أن يقتل مقاتلتهم فجاءه الكتاب
بعد أن كتبت شروط الصالح فوفي لهم خالد بما عاهدهم عليه ثم راجعت بنو
حنيفة البراءة مما كانت عليه والاقرار بالاسلام فبعث خالد منهم وفداً إلى

أبي بكر فقال لهم حينما قدموا عليه ويحكم ما هذا الذي استنزل منكم ما استنزل
قالوا يا خليفة رسول الله : لقد كان الذي بلغك مما أصابنا كان أمر لم يبارك
الله عز وجل له ولا لعشيرته فيه ثم سألهم عن بعض اسجاع مسيامة فقالوا له
شيئاً منها فقال ويحكم إن هذا الكلام ما خرج من إل ولا بر فأين يذهب
بكم : واقام خالد بعد فراغ الامر في واد من اودية اليمامة يقال
له الوبر

اليمن والاسود العنسي

ولما اسلم اهل اليمن ولى عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم باذان
الذي كان عاملاً لكسرى فلم يزل والياً عليها حتي مات فجعل عليه السلام ابنه
شهرًا والياً على صنعاء وعين ولاية آخرين على بقية بلاد اليمن حيث قسمها
إلى عشر عمالات وكان معاذ بن جبل معلماً يتنقل في هذه الولايات قبل
وفاة الرسول ثم قام رجل من عنس إحدى قبائل قحطان اسمه الاسود فتنبأ
وتبعه قوم من اعراب اليمن سار بهم الى نجران فاستولى عليها لعشر من
مخرجه ودخل معه عوام مذحج ثم جاء صنعاء وقاتل عاملاً بها شهرًا واستولى
عليها وهزم الابناء الخمس وعشرين ليلة من مخرجه فجعل امره بعد ذلك
يستطير استطارة الحريق وقد وصل الخبر بذلك الى رسول الله صلى الله
عليه وسلم وكان اهل اليمن في امره قسمين فقسم يتقيه وهو على إسلامه
وقسم تابعه وارتد عن دينه . فأرسل عليه السلام كتاباً على يد وبر بن
يحنس الى من بصنعاء من الابناء يأمرهم فيه بالقيام على دينهم والنهوض الى
الحرب والعمل في أمر الاسود أما غيلة وإما مصادمة وان يبلغوا عنه من

وأوا أن عنده نجدة ودينًا . وقد صادف ذلك أن تغير الاسود على رئيس
جنده قيس بن عبد يغوث المرادى فهو يخافه خوفاً شديداً ففأحبه الأبناء في
أمر اغتيال الاسود فاجابهم الى ذلك وصاروا يمهدون لذلك الامر واتفقوا على
ذلك مع امرأة شهر التي اغتصبها الاسود بعد قتل زوجها وبعد خطوب
طويلة تمكن فيروز أحد الأبناء من قتله غيلة داخل منزله ولما طلع فجر تلك
الليلة نادوا على القصر بشعار المسلمين وهو الاذان وبذلك خلصت صنعاء
والجند من هذا الشر المستطير واتفق الناس أن يولوا أمرهم معاذ بن جبل
فكان يصلي بهم وكتبوا إلى رسول الله بالخبر فوصل الرسول بالمدينة صبيحة
اليوم الذى توفى فيه عايه السلام وكان بين خروج الاسود ومقتله نحواً من
أربعة أشهر

ولما بلغ أهل اليمن موت رسول الله صلى الله عليه وسلم عادوا إلى ما
كانوا عليه من الخلاف وقادهم الى ذلك بعض الرؤساء من المرتدين فبعث
أبو بكر إلى من بقي على اسلامه من رهوس اليمن يأمرهم بالوقوف حيال
المرتدين حتى تصلهم النجدة وما زالوا كذلك حتى وصلتهم الجنود يقودها
المهاجر بن أبي أمية فلستردت صنعاء وأسرت زعماء الفتنة قيس بن عبد يغوث
وعمر بن معدى كرب ثم ذهبت الى كندة بحضر موت وكانت قد ارتدت
أيضاً وهناك اجتمع جند المهاجر وجند عكرمة بن أبي جهل فخاربوا كندة
حتى غلبوهم وأسروا الاشعث بن قيس سيد كندة وبعثوا الى أبي بكر
يبشرونه بالفتح

البحرين والحطيم

كان عليه السلام قد ولي على البحرين المنذر بن ساوى وبها قبائل من عبد القيس وبكر بن ربيعة فأت المنذر في الشهر الذي مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وحينذاك ارتد أهل البحرين فأما عبد القيس فأنه أفاضت إلى الدين من غير قتال تبعوا نصيحة الجارود بن المعلى حيث جمعهم فقال يامعشر عبد القيس اتى سائلكم عن أمر فاخبروني أن علمتم وما تجيبوني ان لم تعلموا : تعلمون أنه كان لله أنبياء فيما مضى قالوا نعم قال فما فعلوا قالوا ماتوا قال فان محمداً مات كما ماتوا وأنا أشهد أن لا اله الا الله وان محمداً عبده ورسوله فقالوا ونحن نشهد ان لا اله الا الله وان محمداً عبده ورسوله وانك سيدنا وفضلنا وثبتوا على اسلامهم . اما بكر فانها تمت على ردتها يقودها إلى ذلك الحطيم بن ضبيعة واستقوى كثيراً ممن يسكنون القطيف وهجر ولم يزل كذلك حتى قدم عليه الملاء بن الحضرمي اميراً على الجنود الذي سيره ابو بكر لقتال من ارتد بالبحرين ولحق به ثمامة بن اثال في مسامة بنى حنيفة وجموع من تميم وبعد مقام طويل اصطدم المسلمون مع جند الحطيم فغلبهم المسلمون وقتل الحطيم وضرب الاسلام بجرانه في البحرين وكتب العلاء إلى ابى بكر يخبره بالفتح ورجوع العرب من ربيعة إلى الاسلام

وكانت هناك وقائع اخرى بين القواد وبين المرتدين من العرب في غير هذه الجهات في جميعها انتصر المسلمون

اشتغل أبو بكر في أمر الردة بعزيمة لم تعرف لغيره من الابطال الذين لا تزوعهم السكوارث ولا تلين من قلوبهم الخطوب وما ظنك بهذه النار التي

هاجت في جميع انحاء الجزيرة حينما شعرت بنقد الرسول صلى الله عليه وسلم
فأطفأها وليد عجاجها قبل أن تنقضي السنة التي لحق فيها الرسول بربه وأن
الانسان ليحار بادىء بدء في هذا الامر ولكن اذا رجع إلى قوة العزيمة
وحسن النظام في تسيير الجنود وتوارد الكاتبة من رؤساء الجند واليه في مواعيد
قليلة لا يلبث أن تقر نفسه ويعترف لأبي بكر أن له نفساً هي أكبر نفس
عرفت عن خليفة

كان ابو قتادة وهو من كبار الصحابة وممن لهم الشرف العريض في جند
خالد بن الوليد فلما نهم عليه ما كان منه من قتل مالك بن نويرة وزواج زوجته
فارقه وذهب الى ابي بكر يخبره بالحادثة فغضب ابو بكر منه غضباً شديداً ولم
يكن هناك هوادة في رجوعه إلى خالد ثانية ونهيه عن ان يترك الجند لاي سبب
كان من غير أمر الرئيس ولم يشفع له مقامه العظيم وطول صحبته وحاول عمر
أن يوقع أبو بكر بخالد مع جسامته ذنبه فلم يفعل لانه خاف الوهن واعتذر
عنه بأنه تأول فأخطأ

إنا نقول في ذلك قولاً صريحاً لولا أبو بكر وعزيمته القوية بعدمعونة
الله وتأييده ما كان يسير بالمسلمين مسيره الذي عرف . حصل ذلك في وقت
استولى فيه الذهول على أفئدة المسلمين كافة حتى اقواهم شكيمة وأشدهم قلباً



المحاضرة العشرية

ظهور الأمة العربية — حال الفرس والروم لاول عهد

أبي بكر — غزو الفرس — غزو الروم

ظهور الامة العربية

مكثت الامة العربية تلك الازمنة الطويلة وهي محصورة في جزيرتها
قائمة بصحرائها ومفاوزها ووديانها قوام متفانية في حروبهم بعضهم مع
بعض بأسهم بينهم شديد والامم المجاورة لهم قد ماكنت عليهم امرهم في
أخصب بقاعهم وان كان للعرب ملك أو رياسة فعلى أنهم عاملون لغيرهم
من الفرس أو الروم حتي جاء الاسلام فكون منهم تلك الامة العظيمة
التي سلبت أقوى الامم سلطانها وتغيرت الحال فصار المقهور قاهراً والمسود
سيداً

كان يجاور الامة العربية دولتان عظيمتان تعترف العرب لهما بالسيادة
والتغلب من قديم الاعصار وهما دولة الفرس ودولة الرومان الشرقية
دولة الفرس

فاما دولة الفرس ويقال لها دولة الاكاسرة فكانت قاعدتها (المدائن)
وهي مدينة عظيمة كانت على شاطئ دجلة الشرقي والغربي جنوبي بغداد
في منتصف المسافة بينا وبين واسط ودور الاكاسرة هذه تكونت منذ

وجد أزدشير بن بابك وغلب ملوك الطوائف على أمرهم واستبد بالامر
دونهم ووجد كلمة الفرس ثانية بعد أن كانت تفرقت في عهد اسكندر
المقدوني وكان ظهور أزدشير سنة ٢٣٠ م وأدخل في ملكه العراق وما يجاوره
من بلاد العرب وجميع الممالك الفارسية المتفرقة وكان يسمى شاهنشاه أي
ملك الملوك وأمراء الأقاليم يسمى واحدهم شاهاً وما زال بنوه يتوارثون ملك
الفرس من بعده حتى كان كسرى أنوشروان الملقب بالملك العادل وهو الذي
ولد لعهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان ملكاً عظيم الشأن واسع السلطان
ثم جاء بعده هرمز ثم كسرى أبرويز وهو الذي أرسل إليه الرسول صلى الله
عليه وسلم يدعو إلى الاسلام فرأى ذلك أمراً عظيماً أن يدعو عبده من عبيده
وعمه ليكون خاضعاً لدينه فراسل عامله على اليمن يطلب منه أن يرسل إليه
ذلك الراعي ليرى فيه رأيه وحصل عند ذلك أن قام عليه ابنه شيرويه فقتله
واستلب منه تاج الملك ولكن شيرويه لم يتمتع بالملك طويلاً بل مات بعد
سنة وتسعة أشهر من ولايته بعد أن أساء كثيراً إلى أهل بيته فولى من بعده
ابنه أزدشير وهو صغير السن فكفله أحد عظماء المملكة وكان في ذلك الوقت
من كبار القواد شهر بزار مرابطاً بجنده بشغور الروم فلما رأى أن ولي
أزدشير من غير استشارته أقبل بمجموعه إلى مدينة الملك فاستولى عليها وقتل
أزدشير واستلب تاج الملك لنفسه ولم يكن من أهل بيت الملك إلا أن ذلك
لم يرق لبعض العظماء منهم فأجمعوا أمرهم على قتله فقتلوه لاربعين يوماً من
ولايته ثم ولوا أمرهم بوران بنت كسرى أبرويز اخت شيرويه ولهذا ذكر
حسن في تاريخ الفرس وكانت ولايتها في آخر حياة رسول الله صلى الله عليه

وسلم واستمرت ملكة سنة وأربعة أشهر ثم ملك بعدها جشندسده من بني عم
ابرويز الأبعدين أقل من شهر وبعده وليت آزرميدخت بنت كسرى
ابرويز أخت بوران وهي التي جاءها رستم وقتلها لقتلها أباه فرخهرمز
أصبح خراسان وعظيم فارس وولى بدلها رجلاً من عقب
ازدشير بن بابك يقال له كسرى بن مهر جشنس ولكن لم يبق ملكه إلا
أياماً وما زال حالهم في اختلاف حتى ملك يزد جرد بن شهريار وهو
آخرهم

الرومان

كانت الدولة الرومانية الدولة الثانية العظمى في العالم تنافى دولة الفرس
في سعة الملك وقوة السلطان وكانت عاصمتها الكبرى رومية أدخلت تحت
نيرها أكثر الأمم الشرقية وفي مقدمتها مصر وسوريا ولم يزلوا على تلك
العظمة حتى انقسمت دولتهم إلى قسمين الشرقية وقاعدتها قسطنطينية
والغربية وقاعدتها رومية في زمن القيصر تيودثيوس الذي ولى أمر الرومان
إلى سنة ٣٩٥ وأجزأ الملك بين ولديه وكان المشرق من نصيب ابنه رقادايوس
الذي ولى من سنة ٣٩٥ إلى سنة ٤٠٨ وما زالت الملوك تتوالى على هذا الكرسي
حتى كان ملكهم لاول العهد الاسلامي هرقل الذي كان قبل ان يتولى
الملك واليا في افريقية ثم خرج على الملك فوقاً فقتله وتوج بالملك بدله سنة
٦١٠ واستمر ملكاً حتى سنة ٦٤١ وهو الملك الذي سقطت على يده
سوريا وملكها المسلمون

وكانت الدولتان الفارسية والرومانية في نزاع دائم وكان ميدان النزاع

بينهما بلاد العراق وسوريا حيث كانت نار الحرب لا تتمد في هذه البقاع
وكانت الحرب بينهما سجالات : فمرة يغلب الفرس فيمتد سلطانهم حتى يصل
إلى شواطئ بحر الروم ومرة يطغى عليهم الجيش الروماني فيستلب منهم
بلاد الجزيرة ويملك النهرين دجلة والفرات وما يستقيان من تلك الاراضي
الخصيبة الجميلة

وأقرب تلك الوقائع إلى العهد الاسلامي ما حصل اولاً من الحروب
بين جنود فوقا ملك الرومان وجنود كسرى انوشروان ملك الفرس وقد
انتصرت فيها الفرس انتصارات متتابة حتى أجلاوا الروم عما كان لهم من
الجزيرة في الشمال وما زالت جنود الفرس توالي فتوحها حتى وصلت إلى
الفسفور تسفك دماء من يقف في طريقها وشنوا غاراتهم على فينيقيا وفلسطين
وفعلوا بتلك البلاد الافاعيل ثم أعادوا كراتهم في عهد هرقل الذي خلف
فوقا على سرير الملك وأخذوا من اورشليم خشبة الصليب المقدسة واتفوا
كثيراً من الآثار المسيحية ثم زحفوا سنة ٦١٦ إلى مصر فأخذوا
اسكندرية . وقد اشار الكتاب إلى هذه الواقعة في أول سورة الروم التي
نزلت بمكة ابان هذه الحروب قال تعالى (غلبت الروم في ادنى الارض) ثم
قال مخبراً عما تكون له العاقبة فقال (وهم من بعد غلبهم سيفعلون في
بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد) ثم أخبر بعد ذلك عما يصادف
انتصار الروم من انتصار المسلمين على أعدائهم من المشركين فقال (ويومئذ
يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم وعد الله لا يخاف
الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون)

وقد حصل ذاك فعلاً فان هرقل تنبه من غفلاته سنة ٦٢٢ بعد عشر سنين من ولايته وتهيأ لحرب الفرس واعد لذلك عدته ورتب جنوده وهاجم الفرس هجمات المستعجل فانتصر عليهم في الوقت الذي كان المسلمون فرحين بانتصارهم في بدر وقد كانت بدر في مارس من سنة ٦٢٤ والروم في ذلك الوقت يذيقون الفرس مذاقوه منهم قبلاً : ولم يزل الامر على ذلك حتى تولى على الفرس شيرويه بعد ان قبض على أبيه ثم قتله فصالح الروم سنة ٦٢٨ ورد جميع النصراني الذين كان أخذهم أسرى وخشبة الصليب المقدسة فنال هرقل بذلك منتهى الفخار وذهب الى اورشليم سنة ٦٢٩ ليشكر الله على ما آتاه من النصر وهذه السنة هي التي راسل فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم الملوك يدعوهم الى الاسلام وكان ممن راسله هرقل وهو في ذلك الوقت باورشليم (أول يناير سنة ٦٢٩ م ٢٩ شعبان سنة ٧ من الهجرة) وطرد في ذلك الوقت اليهود من اورشليم وأمر أن يستمروا بعيدين عنها ثلاثة أميال : وبعد ذلك عاد هرقل الى حمص وكانت منزله لأنها كانت مكان لهو وترف

هذا مجمل حال تلك الدولتين لاول عهد الخلفاء الراشدين

غزو الفرس

انتدب أبو بكر أعظم قواده خالد بن الوليد بعد أن انتهى من حروب الردة ليغزو بلاد الفرس وأمره أن يبدأ بشعر الهند وهو الابلّة وانتدب عياض ابن غنم ليغزو الفرس من الشمال ويبدأ بالمصيخ وهو في شمال العراق وأمرهما أن يستنفرا من قاتل أهل الردة وأن لا يستعينا بمرتد وقد وصل خالد كتاب

التعيين وهو باليمامة فكتب لصاحب الثغر وهو هرمز كتاب انذار يقول له فيه أما بعد فاسلم تسلم أو اعتقد لنفسك وقومك الذمة وأقرر بالجزية والا فلا تاومن الا نفسك فقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة

ثم فرق جيشه ثلاث فرق واتعدوا جميعهم الحفير ليصادموا به عدوهم والحفير ماء بالقرب من البصرة : فلما بلغ الكتاب هرمز بعث به الى كسرى يعلمه وجمع جموعه ثم تعجل إلى الكواظم وهي من جادة اليمامة فبلغه أن الجنود العربية قد اتخذت طريقها الى الحفير فمأج يبادرهم اليه وهناك عبأ جيشه ولما أتى خالداً أخبر أن هرمز بالحفير عدل عنه إلى كاظمة فأحقه هرمز بها وكان هرمز هذا من اسوأ أمراء ذلك الثغر جواراً للعرب فكل العرب عليه مغيظ وقد كانوا ضربوه مثلاً للخصب : تراخف الجيشان وكانت كل من خالد وهرمز في مقدمة جيشهما فتبارزا فقتل خالد هرمز فلم يكن للعجم بعده ثبات فانهزموا

ثم أمر خالد بالرحيل وسار حتى بلغ قريباً من موضع البصرة والبصرة لم تبني إذ ذاك

كان كسرى قد أمد هرمز بجند تحت قيادة قارن بن قريانس وبينما هو قادم إذ باعته هزيمة هرمز فتوقف بالمدار (١) وعسكر به فسار خالد اليه على تعبئة فتقاتل الجيشان على حنق وحفيظة ولم يطل الامر حتى هزمهم خالد وقتل قائدهم فعبروا الى الجهة الشرقية وضمو اليهم السفن فلم يتمكن

(١) المدار بينها وبين البصرة اربعة ايام الى الشمال بالقرب من واسط

المسلمون من طلبهم وقتل من الفرس عدد جسيم قدره الطبري بثلاثين ألفاً بلغت هذه الهزيمة ملك الفرس فبعث جنداً كشيافاً يقوده الاندر زغر ففصل عن المدائن حتى أتى الواجة (١) ثم اتبعه كسرى جنداً آخر يقوده بهمن جاذويه وقد انضم الى صفوف الفرس كثير من العرب المنتصرة ولما بلغ خالداً خبر تجمعهم اذن بالرحيل اليهم على تعبئة بعد ان ترك خلفه حامية تحمي خطر رجعتة ولما وصل الواجة رتب الهجوم على عدوه من ثلاث جهات وصادمهم هو من احداها ولم يلبث الفريقان الاخران ان خرجا على الفرس من مكنهم فلم يلبث الفرس ان انهزموا ومضى قائد الجيش في هزيمة حتى مات في طريقه عطشاً وقتل في هذه الواقعة كثير من بكر بن وائل الذين أعانوا الفرس فغضب لهم نصارى قومهم فسكاتبوا الاعاجم وحصاروا معهم يداً على حرب المسلمين واجتمعوا بأليس (٢) وقائداً لجميع بهمن جاذويه فصار اليهم خالد وأوقع بهم وقعة كبيرة قتل فيها مقتلة عظيمة

ولما فرغ من أليس نهض الى امغيشيا وهي بالقرب من اليس وكان فرات باذقلى ينتهي اليه فلما وصاها خالد امر بهدمها وكانت مصرأ كالخيرة : لما علم الاذاذبة مر زبان الخيرة بما كان من خالد في امغيشيا علم انه غير متروك فتهيأ لحرب خالد وقدم ابنه امامه وكان مما فعله أن فجر الانهار الآخذة من الفرات فقل الماء فيه حتى لم يعد يحمل السفن تسير فيه وكان خالد قد حمل الرحل في السفن مع الأنفال والأثقال فلم يفجأه الا والسفن جوائح فسأل عن السبب فاعلم به

(١) وهي في الشمال من المذار من ارض كسكر

(٢) قرية من قرى الانبار

فجعل خالد نحو بن الأزاذة حتى لقيه هو وجنده على فم فرات باذقلى فهزمهم
وفجر الفرات وسد الانهار فسلك الماء سبيله ثم سار خالد حتى عسكر بالخورنق
مشرفاً على الحيرة وأهلها متحصنون بقصورهم فحاصروهم خالد ولما رأى أهل
الحيرة أن لا طاقة لهم بحرب خالد مالوا الى الصلح وأول من طلبه منهم عمرو
ابن عبد المسيح الملقب ببقيلة ثم تبعه بقية الرؤساء فصالحه على ١٩٠ ألف
درهم وأهدوا له هدايا فاعتدها من الجزية بأمر أبي بكر وكتب لهم خالد
كتاباً هذا نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما عاهد عليه خالد بن الوليد عدياً وعمراً ابني
عدي وعمرو بن عبد المسيح وإياس بن قبيصة وحيرى بن أكال وهم تقباء أهل
الحيرة وورضى بذلك أهل الحيرة وأمرهم به عاهدتهم على ١٩٠ ألف درهم تقبل في
كل سنة جزاء عن أيديهم في الديار هبائهم وقسيسهم الا من كان منهم على غير
ذي يدحيساً عن الدنيا تاركاً لها وعلى المنعة وان لم يمنعهم فلا شيء عليهم حتى
يمنعهم وان غدروا بفعل أو قول فالذمة منهم بريئة (١) وكتب في شهر ربيع الاول
من سنة ١٢ : ومما يستطرف ذكره أن رجلاً من الاعراب اسمه شويل كان
أسلم على يدى النبي صلى الله عليه وسلم فسمعه ذات مره يبشر المسلمين بأن ستفتح
عليهم قصور الحيرة فسأله أن يعطي من سبيهم كرامة بنت عبد المسيح فقال له عليه
السلام هي لك فلما أراد خالد صلحهم جعل من شروط الصلح أن يسلموا اليه
كرامة فأعظم أهلها ذلك لخطرهما فقالت لهم كرامة دعوه فانه رجل أحق
وأتى في شببتي فظن أن الشباب يدوم فأسلموني له فاني سأفتدى منه

(١) يظهر أن هذه الجملة مدرجة في الرواية لان التاريخ بالهجرة لم يكن الا أيام عمر

فلما وصلت إلى الرجل قالت ما أربك من عجوز كما ترى فاذني قال لا
الا على حكمتي قالت فلك حكمك فقال فلست لام شويل أن نقصتك
عن الف درهم فاستكثرت ذلك لتخذه ثم أتته بها ورجعت لاهها فاستماع
الناس بذلك فعنفوه قال ما كنت أرى أن عدداً يزيد على ألف فأبوا عليه إلا أن
يخاصمهم فقال كانت نيتي غاية العدد وقد ذكروا أن العدد يزيد على ألف فقال خالد
أردت أمراً وأراد الله غيره فأخذ بما يظهر وندعك ونيتك . ولما صالح أهل الحيرة
خرج صلوبا بن نسطور ناصحاً بـ قس الناطف فصالحه على بانقيا وباروسما وضمن له
مأعليهما وعلى أرضيهما من شاطيء الفرات على عشرة آلاف وكتب لهم
كتاباً هذا نصه :

(بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب من خالد بن الوليد لصلوبا بن
نسطورنا وقومهماني عاهدتكم على الجزية والمنعة على كل ذي يد بانقيا وباروسما
جميعاً على عشرة آلاف دينار سوى الخرزة : القوي على قدر قوته والمقل على
قدر اقلاله في كل سنة وانك قد تقبت على قومك وان قومك قد رضوا
بك وقد قبلت ومن معي من المسلمين ورضيت ورضى قومك فلك الذمة
والمنعة فان منعناكم فلنا الجزية والا فلا حتى نمنعكم)

ولما رأى دهاقين البلاد ماتم لخالد من الظفر أتوه فصالحوه على ما
بين الفلاليج (١) الى هرمز جرد (٢) على أنمي الف درهم وكتب لهم بذلك
كتاباً . ثم بعث خالد عماله ومسالحه منهم عمال الخراج لجبايته ومنهم

(١) فلاليج السواد قراها واحدها فلوجة والفوجة الكبرى والصغرى قريتان
من سواد بغداد والكوفة قرب عين التمر (٢) ناحية من أطراف العراق

امراء الثغور : وكتب في مقامه بالحيرة كتابين أحدهما الى ملك فارس والآخر الى مرزابة الفرس ورؤسائهم وصورة الاول — بسم الله الرحمن الرحيم من خالد بن الوليد الى ملوك فارس أما بعد فالحمد لله الذي حل نظامكم ووهن كيدكم وفرق كلمتكم ولو لم يفعل ذلك بكم لكان شر الكيد فادخلوا في أمر ناندعكم وارضكم ونجوزكم الى غيركم والا كان ذلك وانتم كارهون على غلب على أيدي قوم يحبون الموت كما تحبون الحياة: وصورة الثاني — (بسم الله الرحمن الرحيم من خالد بن الوليد الى مرزابة فارس اما بعد فاسلموا تساموا والا فاعتقدوا مني الذمة وادوا الجزية والا فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون شرب الخمر وكان اهل فارس في ذلك الوقت في ارتباك داخلي بشأن من يتولى الملك فيهم ولم يكن منهم في ذلك الوقت الا المدافعة عن بهر سير وهي احدى المدائن التي سميت بهامدائن كسرى وكانت في الغربي من دجلة امام الايوان الذي كان في الجهة الشرقية منها : فلما جاءتهم كتب خالد ارادوا ان ينهوا امر اختلافهم فاختاروا رجلا يولونه الملك وليس من بيته الى ان يجدوا من آل كسرى من يولونه وهو الفرخذاذ بن البندوان

ولما استقام خالد امره اراد ان يسير لاغاثة عياض بن غنم الذي ارسل ليفتح العراق من شماليه ويلتقى بخالد فاستخاف خالد على الحيرة القعقاع ابن عمرو وخرج حتى انتهى الى الانبار (١) وقد تحصن اهلها وخندقوا على انفسهم واشرفوا من اعالي الحصون فأمر خالد جنده ان يرشقوهم بالنبل ففعلوا واصابوا في عدوهم ثم انتهى الامر بان طلب قائد جند

(١) مدينة على الفرات غربي بغداد بينهما عشرة فراسخ

الانبار الصالح على ان يخليه ويأخذه بأمنه في جزيرة خيل ليس معهم من المتاع والاموال شيء فاجابه الى ذلك خالد وتسلم الانبار وصالح من حولها ثم استخلف عليها الزبرقان بن بدر وقصد عين التمر (١) وسها يومئذ مهران بن بهرام جوين في جمع عظيم من الفرس وعقة بن أبي عقة في جمع عظيم من العرب من النمر وتغلب واياذ ومن ان لفهم فلما سمعوا بقسودم خالد قال عقة لمهران ان العرب اعرف بقتال العرب فدعنا وخالد اذ قال له صدقت لعمري لانتم اعلم بقتال العرب وانكم لثاننا في قتال العجم فلزم مهران عين التمر وخرج عقة على تعبئة يريد مقابلة خالد بالطريق فقدم عليه خالد في تعبئة واقتتل الجندان فاسر خالد عقة ولم يكن الا قليل قتال حتى انهزم جنده ولما وصل خبر الهزيمة الى مهران هرب في جنده تاركا الحصن اما فل جنده عقة من العرب والعجم فانهم رجعوا الى الحصن واعتصموا به حتى جاءهم خالد فاستنزلهم من حصنهم بدون امان وقتل معظمهم ووجد في بيتهم اربعين غلاما يتعلمون الانجيل منهم نصير أبو موسى بن نصير وسير بن أبو محمد بن سيرين وجران مولى عثمان وغيرهم فقسمهم خالد في الناس وكان من عقب هؤلاء علماء أجلة وجاء خالد وهو بمقامه كتاب من عياض بن غنم يستنجد به وهو محاصر دومة الجندل وأهاها محاصروه فأرسل اليه خالد هذا الكتاب:

من خالد إلى عياض اياك أريد

وهو أخصر كتاب فيما نعرف : ثم سار إلى دومة وقد تجمعت بها طوائف كثيرة من العرب المنتصرة ولما بلغهم دنو خالد قال لهم احذر رئيسهم

(١) بلدة قريبة من الانبار غربي الكوفة وهي على طرف النهرية

أكيدر بن عبد الملك أنا أعلم الناس بخالد لا أحد أيمن طائراً منه ولا أحد في حرب ولا يرى وجه خالد قوم ابداً قلو أو كثروا إلا انهزموا عنه فأطيعوني وصالحوا القوم فأبوا عليه فقال لن أمالكم على حرب خالد فشانكم فيخرج لطيته وقد قتل في خرجته هذه ثم سار خالد حتى نزل بدومة وعلى من فيها الجودي بن ربيعة ورؤساء القبائل التي جاءت لنجدتهم فناهدهم خاد بجنوده هو من جهة وعياض من جهة فكانت الهزيمة على أهل دومة ولم ينج منهم من القتل إلا بني كلب لأنهم كانوا حلفاء تميم فأجارهم عاصم بن عمرو التميمي وبعد أن أقام خالد قليلاً عاد إلى الحيرة لما بلغه من تحرك العجم لإعادة الكرة على المسلمين وأرسل مريتين إلى الحصيد (١) والخنافس فوافقت بمن تجمع بهما من العدو ثم سار خالد حتى أرى المصيح هناك وافته سراياه كما أمر فكانت لهم واقعة مع العرب المتجمعين هناك إذاقوهم فيها نكالاً ثم كانت له وقائع بالثنى (٢) والزميل ثم في الفراض وهي تخوم ما بين الشام والعراق والجزيرة وكان ذلك في رمضان وفي الفراض اجتمع عليه الروم والفرس والعرب فانتصر عليهم خالد جميعاً وكانت هذه الواقعة في منتصف ذي القعدة ثم أقام بها عشرًا وبعد ذلك أذن في الرجوع إلى الحيرة لخمس بقين من القعدة سنة ١٢ وأمر عاصم بن عمرو أن يسير بالجند وأظهر أنه في الساقة ولكنه خرج من الفراض حاجاً معه عدة من أصحابه يعتسف البلاد حتى أتى مكة بالسمت

(١) موضع في أطراف العراق من جهة الجزيرة والخنافس قرب الأنبار تقام غنيمة سوق للعرب

(٢) موضع بالجزيرة قرب الرصافة وبقرية الزميل

فتأتى له من ذلك ما لم يتأت لدليل اوريبال فما توافى الى الحيرة آخر جنده حتى وافاهم مع صاحب الساقة فقدموا معا وخالدوا اصحابه ما يحقون لم يعلم بحجة الا من افضى اليه بذلك من الساقة ولم يعلم ابو بكر بذلك الا بعد فعتب عليه ووافاه كتاب ابى بكر بصرفه الى الشام منصرفه من حجه الى الحيرة وهذا هو الكتاب الذى ارسله اليه ابو بكر « سر حتى تأتى جموع المسلمين باليرموك فأنهم قد شجوا واشجوا وإياك ان تعود لمثل ما فعلت فانه لم يشج الجموع من الناس بموت الله شجيك ولن ينزع الشجي من الناس نزعك فليهنئك ابا سايمان النيسة والخطوة فاتهم الله لك ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخذل واياك ان تدل بعمل فان الله له الميز وهو ولى الجزاء »

كانت مدة خالد بالعراق سنة وشهرين من المحرم بدء السنة الثانية عشرة الى صفر من سنة ١٣ وقد فعل في هذه السنة ما لم يفعله قائد جيش : اقنطع من بلاد العجم حوض نهر الفرات من شمالى الابله الى الفراض وهي تخوم الشام والعراق والجزيرة في شرقي الفرات وصادم جنود الفرس والعرب والروم في عدة مواقع لم يقهر فيها مرة وكان اسمه يسبقه الى كل موقعة اراها وكان في كل عمله فاتحاً لا مغيراً فانه كن يعد حمة طريقه ليأسن ان يؤتى من خلفه وكان اذا افتتح بلداً اقام فيه اميراً من قبله ينظر شؤونه وآخر يجي الخراج من اهل الذمة ومن احسن ما يؤثر عنه انه لم يكن يتعرض للفلاحين بسوء بل كان يعاملهم بالرافة ويمنعهم من عدوهم حتى صاروا يفضلون حكمه على حكم الفرس الذين كان يضاهوهم يستعبدونهم ويدلونهم وعلى نسبة رافته يهولاء كانت شدته على المقاتلين واهل الحرب وكان لا يصبر عن الميدان

إذا رأى الجنود ينظر بعضها بعضاً بل سرعان ما يخرج طالباً رئيس القوم للمبارزة وفيها القضاء على خصمه فلا يطول أمر الحرب بعده . وعلى الجملة فهذه السنة كانت لخالد غرة في جبين تاريخه ومما يبين عظم علمه ما قاله الهيثم البكائي . قال : كان أهل الايام من أهل الكوفة يوعدون معاوية عند بعض الذي يبلغهم ويقولون ماشاء معاوية نحن أصحاب ذات السلاسل (وهي أول واقعة بين خالد والفرس) ويسمون ما بينها وبين الفراض ما يذكرون ما كان بعد احتقاراً لما كان بعد فيما كان قبل

غزو الروم

كان إرسال الجيوش لافتتاح بلاد الشام متأخراً عن إرسال خالد لافتتاح العراق فان أبا بكر في أواخر سنة ١٢ من الهجرة اختار من قواد المسلمين أربعة من كبار القواد وهم عمرو بن العاص ويزيد بن أبي سفيان وأبو عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة والثلاثة الأولون قرشيون والرابع قحطاني وتخبر لكل منهم جنده وأمر كل واحد أن يسير بجنده من طريق سماها له وعين لكل منهم الولاية التي يتولاها بعد الفتح فجعل لعمر فلسطين ويزيد بن أبي سفيان دمشق ولأبي عبيدة حمص وشرحبيل الأردن فسارت هذه الجيوش من الطرق التي عينها لهم يتبع بعضهم بعضاً وكان عدد جميع الجنود التي سیرت قبل ان يأتيتهم مدد خالد بن الوليد ستة وثلاثين ألفاً

لما علم الروم بمسير الجنود الاسلامية اليهم اهتم بالامر هرقل وكان تازلا بحمص وكان قد علم تفرق جنود المسلمين على أربعة من القواد فاراد

أب يقاتلهم متفرقين لان العدد عنده كثير فيمكنه أن يشغل كل أمين
باضعاف مامعه ولما علم بذلك الرؤساء الاربعة تكاتبوا وسألوا عمرو بن العاص
ما الرأي ؟ فراسلهم أن الرأي الاجتماع وذلك أن مثلنا اذا اجتمع لم يغلب
من قلة واذا نحن تفرقنا لم يبق الرجل منافي عدد يقرن فيه لاحد ممن
استقبلنا وأعد لنا لكل طائفة منا فاستحسنوا الرأي واتعدوا باليرموك (١)
ليجتمعوا به وكتبوا الى أبي بكر بمثل ما كاتبوا به عمرواً فجاءهم كتابه بمثل
رأي عمرو وأمرهم ان يجتمعوا باليرموك متساندين وان يصلي كل رجل
باصحابه . بانغ ذلك هرقل فكتب الى قواده ان اجتمعوا فاجتمعوا ونزلوا
بالروم منزلاً واسع العطن واسع المطرد ضيق المهرب فنزلوا الواقصة (٢)
وهي على ضفة اليرموك وصار الوادي خندقاً لهم وهو لهيب لا يدرك وقد أراد
رؤساء الروم ان تستفيق الجنود ويأمنوا بالمسلمين وترجع اليهم فقتلهم عن
طيرها وقد وافتهم الجنود الاسلامية هناك فنزلوا بجذائهم على طريقهم وليس
للروم طريق الا عليهم فصاروا كأنهم محصورون ودام الامر على ذلك صفر من
سنة ١٣ وشهر ربيع لا يقدر من الروم على شيء ولا يخلصون اليهم للهب وهو
الواقصة من ورائهم والخندق من امامهم وكان المسلمون استمدوا أبا بكر في شهر
صفر فكتب الى خالد ليلاحق بهم وأمره أن يخلف على العراق المثنى بن حارثة فخرج
بمن استخلص من جند العراق وهم نحو عشرة آلاف وسار سيراً حثيثاً حتى
وجي فرسه وصادف قدوم خالد أن قدم مدد عظيم على الروم وكانت عدة

(١) واد في طريق الغور يصب في نهر الاردن

(٢) واد في أرض حوران

جنود الروم على ما حكاه الطبري ٢٤٠ ألفاً

جاء خالد فوجد المسلمين يقاتلون متساندين أي أن كل أمير يحرك جنوده مستقلاً عن غيره وقد علم أن الروم قد عزموا على الخروج من خنادقهم للصدمة الكبرى فجمع الأمراء وخطب فيهم قائلاً إن هذا يوم من أيام الله لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي اخلصوا جهادكم وأريدوا الله بعملكم فإن هذا يوم له مابعده ولا تقاتلوا قوماً على نظام وتعبية وأنتم على تساند وانتشار فإن ذلك لا يحل ولا ينبغي وإن من ورائكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذي ترون أنه الرأي من واليكم ومحبتهم قالوا أفهات فما الرأي قال إن أبا بكر لم يبعثنا إلا وهو يرى أننا سنتياسر ولو علم الذي كان ويكون لكان قد جمعكم إن الذي أنتم فيه أشد على المسلمين مما قد غشيهم وأنفع للمشركين من امدادهم ولقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم فالله الله فقد أفرد كل رجل منكم ببلد من البلدان لا ينتقصه منه إن دان لأحد من أمراء الجنود ولا يزيد عليه أن دانوا له إن تأمير بعضكم لا ينتقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله هلموا فإن هؤلاء قد تهيئوا وهذا يوم له مابعده إن رددناهم إلى خنادقهم اليوم لم نزل نردهم وإن هزمونا لم نفلح بعدها فهموا فلنتعاود إلا مارقة فليكن عليها بعضنا اليوم والآخرة غداً والآخرة بعد غد حتى يتأمر كلكم ودعوني إليكم اليوم فأمر وهفعي خالد الجيش تعبئة لم تعبها العرب قبل ذلك قسم الجيش إلى ثمانية وثلاثين كردوساً (فرقة) رتب القلب ١٨ كردوساً وأقام فيه أبا عبيدة وجعل الميمنة ١٠ كرديس وعليها عمرو بن العاص وفيها شرحبيل بن حسنة وجعل الميسرة ١٠ كرديس وعليها يزيد بن أبي سفيان وجعل لكل كردوس

رئيساً يأمر بأمر رئيس الميمنة أو اليسرة أو القلب وكان كل كردوس يزيد
قائلاً عن الالف وجعل للجيش قاصداً يذكروهم وكان القاص أبا سفيان بن حرب
فكان يقف على الكراديس • يقول الله الله انكم ذادوا العرب وأنصار الاسلام
وأنهم ذادوا الروم وأنصار الشر لشالله ان هذا يوم من ايامك اللهم أنزل نصرك على
عبادك . وقال رجل لخالد ما أكثر الروم وأقل المسلمين فقال خالد ما أقل
الروم وأكثر المسلمين انما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال
والله لو ددت ان الاشقر براء من توجيه وانهم اضعفوا في العدد
(الاشقر فرسه)

وخرجت الروم في تعبئة لم ير مثاها فامر خالد مجنبي القلب ان ينشبا
القتال وكان فيهما عكرمة بن ابي جهل والقعقاع بن عمرو ففعلا وكان القعقاع
يرتجز :

يا ليتني القالك في الطراد قبل اعتزام الجحفل الورد
وانت في حلمتك الورد

ويرتجز عكرمة :

قد علمت بهكنة الجواوي اني على عكرمة احاي
وكانت هذه الارجيز لهم تقوم الموسيقى في تشجيع القلوب
نشب القتال والتحم الناس وتطارد الفرسان : وأمر خالد بالزحف العمام
ونهد خالد بالقلب حتى كان بين خيل الروم ورجلهم وكان مقاتلهم واسع
المطرد ضيق المهرب فلما وجدت خيلهم مذهبا ذهبت وتركوا رجلهم في
مصافهم وخرجت خيلهم تشتد بهم في الصحراء ولما رآها المسلمون كذلك

أفرجوا لها ولم يخرجوها فذهبت فتفرقت في البلاد وأقبل خالد ومن معه على الرجل فكانما هدم بهم حائط فاقتموا في خندقهم فاقتموه عليهم فعمدوا الى الواقصة من ورائهم حتى هوى فيها كثير منهم فهافت فيها على ما يقول الطبري ١٢٠ ألف سوى من قتل بالمعركة من الخيل والرجل وكان القتال قد استمر طول النهار ومعظم الليل وأصبح خالد وهو في رواق رئيس جند الروم

وكان لكثير من فرسان المسلمين في ذلك اليوم القدح المعلى في الثبات والصبر منهم عكرمة بن أبي جهل فانه كان يقول قاتلت رسول الله في كل موطن وأفر اليوم ثم ينادي من يبايع على الموت فيبايعه أرباب النجدة من وجوه المسلمين وفرسانهم فقاتلوا جميعاً قدام فسطاط خالد وهو في وسط القاب حتى أثبتوا جميعاً جراحاً وقتلوا الامن برأ منهم وأتى خالد عند الصبح بعكرمة جريحاً فوضع رأسه على فخذه وبعمرو بن عكرمة فوضع رأسه على ساقه وجعل يمسح عن وجوههما ويقطر في حلوقهما الماء ويقول كلا زعم ابن الحنتمة أنا لانتشهد (يريد عمر) وقاتل النساء في ذلك اليوم في جولة وقتل من المسلمين في اليرموك نحو ثلاثة آلاف بينهم كثير من الوجوه والفرسان

ولما بلغ خبر هذه الموقعة هرقل وانهزام نخبة جيوشه هذه الهزيمة المنكرة وهو دون حصص ارتحل فجعل حصص بينه وبين الجنود الاسلامية وقال سلام عليك ياسوريا سلاما لالقاء بعده

في أثناء الواقعة جاء بريد المدينة وفيه خبر وفاة أبي بكر وخلافة عمر
ابن الخطاب وعزل خالد عن إمارة الجيش وتولية أبي عبيدة قائداً عاماً
مكانه فأخذ خالد الكتاب وأسره إلى أبي عبيدة ولم يذعه لئلا تنهب
قوة الجنود وأخذ الكتاب فوضعه في كنفاته حتى انتهت الواقعة بهذا
النصر فسلم الكتاب إلى أبي عبيدة وسلم عليه بالامارة ومما يؤثر عن خالد
في هذا اليوم قوله : الحمد لله الذي قضى على أبي بكر بالموت وكان أحب
إلي من عمر . والحمد لله الذي ولي عمر وكان أبغض إلي من أبي بكر ثم
أزمنى حبه

جيش عدته أربعون ألفاً يغلب جيشاً فيه خمسة أمثاله لا بد أن يبحث
فيه عن سبب ذلك الفوز والعدد الكبير مدرب على الحروب وخوض
المعارك وكان قريب عهد بالانتصار على الجنود الفارسية . يقولون أن ارتباك
الدول التي حاربها المسلمون كان سبباً في فوزهم هذا الفوز السريع : كان
يمكن أن يكون هذا سبباً لو كانت الارتباكات منعت تلك الدول عن
حشد الجنود ومساعدة الثغور فكان في ذلك فرصة لمن يغزوهم أما وقد
حشدوا ذلك العدد الجسيم مسلحاً منظماً معبئاً أعظم تعبئة فلا بد أن يكون
هناك سبب وراء العدد والعدد ذلك أن الجندي المسلم كان يخوض هذه
المعارك وقلبه متأثر بأمرين الأول : ثقته بأن العاقبة له لما قرأه من الكتاب
وما سمعه من الرسول عليه الصلاة والسلام من التبشير بهذه الفتوح
العظيمة : وهذه الثقة في قلبه بمنزلة مدد من الله يؤيده . الثاني أنه واثق
بالعاقبة في الأخرى فهو إن قتل كان شهيداً عاقبته الحسنى وزيادة وإن

ظفر كان ذلك خيراً فهو يرجو إحدى الحسينيين إماموت بعده سعادة وإمارة
فوز فيه فخر الدنيا وإسماء دينه أضف الى ذلك ما وفقوا اليه من هؤلاء
القواد المعطاء الذين أعجزوا من من بعدهم أن يقدم أقدامهم وقليل كانت
أمثالهم في تاريخ الشرق فرحم الله خالداً فقد كان زينة في تاريخ أبي بكر :
والى هنا انتهت الاعمال الكبرى التي حدثت بين المسلمين وبين دولتي الروم
والفرس في أيام أبي بكر وقطبها خالد بن الوليد المخزومي
يظهر لنا هذا التاريخ القصير الذي لم يستمر أكثر من سنتين وأربعة
أشهر ما وصفنا به أبا بكر من صدق العزيمة ومضائها
إدارة البلاد في عهد أبي بكر

كانت الجزيرة العربية هي البلاد التي تحت الإدارة الإسلامية نهائياً
وكان أبو بكر قد جزأها الى ولايات وعلى كل ولاية أمير من قبله وكان لهذا
الامير اقامة الصلاة والفصل في القضايا وإقامة الحدود فهو أمير قاض
منفذ لان أبا بكر لم يعين قضاة يتولون القضاء دون الامراء وهذه ولايات
الجزيرة لمعهده :

(١) مكة وأميرها عتاب بن اسيد وهو الذي ولاه رسول الله صلى

الله عليه وسلم

(٢) الطائف وأميرها عثمان بن أبي العاص وهو الذي ولاه رسول

الله صلى الله عليه وسلم

(٣) صنعاء وأميرها المهاجر بن أبي أمية وهو الذي ولي فتحها

بعد الردة

- (٤) حضر موت ووالها زياد بن ليبيد
 - (٥) خولان ووالها يعلي بن امية
 - (٦) زيدور مع ووالها ابو موسى الاشعري
 - (٧) الجند واميرها معاذ بن جبل
 - (٨) نجران ووالها جرير بن عبد الله البجلي
 - (٩) جرش ووالها عبد الله بن ثور
 - (١٠) البحرين ووالها العلاء بن الحضرمي
- اما العراق والشام فكانت لاتزال الحروب قائمة فيها وكان امراء الجند هم ولاة الامر فيها
- ولم يكن لابي بكر وزير وانما كان عمر يلى القضاء وابو عبيدة امينا لبيت المال قبل ان يسيره الى الشام
- وكان يكتب له زيد بن ثابت ويكتب له الاخبار عثمان بن عفان وكان يكتب له من حضر وفي عهده كتب القرآن لأول مرة في مصحف واحد يجمع سورة كلها وكان قبله محفوظاً مرتباً في الصدور ومكتوباً آيات وسوراً ليست مجتمعة فلما حصلت حروب الردة وكان قد قتل فيها كثير من القراء رأى أبو بكر أن يجمع القرآن في مصحف واحد واختار لذلك كاتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأحد القراء الذين كانوا يستظهرون القرآن وهو زيد بن ثابت فقام بالامر وكتب أول مصحف بملا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والحفاظ منهم ووضع هذا المصحف عند أبي بكر

رزق الخليفة

كان أبو بكر رجلاً تاجراً قبل أن يستخلف واشتغل بالتجارة بعد الخلافة ستة أشهر ثم وجد أن التجارة تشغله عن أمور الناس فقال لا والله ما تصاح أمور الناس التجارة وما يصلحهم إلا التفرغ لهم والنظر في شأنهم ولا بد لعيالي ما يصلحهم فترك التجارة واستنفق من مال المسلمين ما يصلحهم ويصلح عياله يوماً بيوم وكان يحج ويعتمر وكان الذي فرضه في السنة ستة آلاف درهم (— بالتقريب ١٢٨ جنيهاً مصرياً) ولما حضرته الوفاة قال ردوا ما عندنا من مال المسلمين فاني لأصيب من هذا المال شيئاً وإن أَرْضِي التي يمكن كذا وكذا المسلمين بما أصبت من أموالهم فدفع ذلك إلى عمر فقال عمر لقد أتعب من بعده . فمن هذا يفهم أن المبدأ الذي اختطه أبو بكر هو أن الخليفة لا ينبغي أن يشغله شيء من التجارات عن النظر فيما وكل إليه من أمور العامة وأنه يأخذ ما يفرض له من بيت المال والظاهر أن الفرض لغيره وليس هو الذي يفرض لنفسه وكأن هذا الأخوذ فيه شبهة في نظر أبي بكر فأمر برده إلى بيت المال

ارزاق الجند

كان الجند متطوعين لا يجمعهم ديوان وكانوا يأخذون أربعة أخماس الغنيمة يوزعها عليهم رئيس الجند غير ما يتاله القاتل من سلب القتل وغير ما ينقله رئيس الجند للممتازين وكان أبو بكر يسوي في إعطاء لا يفضل أحداً على أحد

ارزاق العمال

كان يرد لبيت المال خمس الغنائم وصدقات المسلمين وجزية أهل الذمة

ومن ذلك كان يعطي العمال ارزاقهم ويوزع ما بقى على من عينوا في الكتاب
لمصارف الزكاة

وفاة ابي بكر

حم ابو بكر لسبع خلون من جمادى الآخرة سنة ١٣ ومكث نحو ما ١٥
يوما وتوفي في مساء ٢١ جمادى الآخرة سنة ١٣ (٢٢ اغسطس سنة ٦٣٤)
فكانت مدته سنتين وثلاثة اشهر وعشر ليال ودفن في حجرة عائشة بجوار
رسول الله صلى الله عليه وسلم يميل عنه قليلا الى الجهة الشرقية



المواظرة الحادية والعشرون

كيف انتخب عمر — ترجمته — أول خطاب له — الفتوح في بلاد الفرس
بدء القادسية

٢ ﴿عمر بن الخطاب﴾

كيف انتخب

لما مرض أبو بكر وأحس بدنو أجله رأى مصالحة المسلمين في ان
ينتخب خليفته قبل موته وذلك ما يعبر عنه بولاية العهد وكانوا يحسون دائماً
بان كثيرين يرون أنفسهم أهلاً للخلافة وهم أحق بها فاذا ترك الناس من غير
عهد انتشر عقد نظامهم وكان يرى عمر بن الخطاب أجدر الناس بالخلافة ولكنه
أحب ان يستشير فيه كبار الصحابة فدعا بعبد الرحمن بن عوف وقال أخبرني
عن عمر فقال يا خليفة رسول الله هو والله أفضل من رأيك فيه من رجل
ولكن فيه غلظة فقال أبو بكر ذلك لانه يراني رقيقاً ولو أفضى الامر اليه
لترك كثيراً مما هو عليه ويا أبا محمد قد رمقته فرأيتني إذا غضبت على الرجل
في شيء أراي الرضا عنه وإذا كنت له أراي الشدة عليه لا تذكر يا أبا محمد مما
قلت لك شيئاً قال نعم ثم دعا عثمان بن عفان فقال يا أبا عبد الله أخبرني عن
عمر قال أنت أخبر به فقال أبو بكر على ذلك يا أبا عبد الله قال اللهم علمي

به أن سريره خير من علانيته وإن ليس فينا مثله قال أبو بكر رحمك الله يا أبا عبد الله لا تذكر مما ذكرت لك شيئاً قال افعل فقال له أبو بكر لو تركته ما عدوتك وما أدري لعله تاركه والخيرة له ألا يلي من أموركم شيئاً لو دونت أني كنت خلواً من أموركم وأنى كنت فيمن مضى من سالفكم

ولما تم له الرأي دعا عثمان بن عفان فأملى عليه (بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة إلى المسلمين أما بعد) — ثم أغمى عليه فكتب عثمان — (فاني قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ولم آلكم خيراً) ثم ألقى أبو بكر فقال اقرأ على فقراً عليه فكبر أبو بكر وقال أراك خفت أن يختلف الناس إن افلتت في غشيتي قال نعم قال جزاك الله خيراً عن الاسلام وأهله وأقرها أبو بكر من هذا الموضع قال الطبري ثم أشرف على الناس وزوجه أسماء بنت عميس ممسكته فقال لهم أترضون بمن استخلف عليكم فاني والله ما ألوت من جهد الرأي ولا وليت ذا قرابة وأنى قد وليت عليكم عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا فقالوا سمعنا وأطعنا

وكان بدء خلافة عمر بن الخطاب يوم الثلاثاء ٢٢ جمادي الثانية سنة

١٣ هـ (٢٣ أغسطس سنة ٦٣٤ م)

ترجمة عمر

هو عمر بن الخطاب بن نفيل من بني عدى بن كعب بن لؤى وأمه حنتمة بنت هاشم بن المغيرة من بني مخزوم بن يقظة بن مرة ولد لثلاث عشرة سنة خلت من ميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم . تربى على الشهامة والنجدة والجرأة وقول الحق لا يرى فيه هوادة فلما تشرف رسول الله بالرسالة كانت

سنة ٢٧ سنة ولما دعي الى الاسلام لم يكن في بدء أمره مقتنماً بصحة الرسالة
فحارب الاسلام حرباً شديداً حتى كان ينال المسلمين منه أذى كثير حتى
كانت هجرة الحبشة ورأى شدة تمسك المسلمين بدينهم وتحمل الأذى ومفارقة
الأوطان فإن ذلك مما دعا إلى أن يستمع الدعوة بقلب مفتوح فأمن وصدق
وذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في دار الأرقم بن أبي الأرقم الخزومي
التي كان المسلمون مستخفين بها وهناك أعلن إيمانه فكانت به للمسلمين قوة
وذهب إلى البيت الحرام فأعلن لقريش تصديقه بالدين الإسلامي وهناك
أصابه من أذى المشركين ما كان يصيب أخوانه وكادوا يقتلونه لولا أن أجاره
منهم العاصي بن وائل السهمي ولما كانت هجرة المدينة كان الناس يخرجون
متسللين خيفة أن يحبسهم أهلهم أما هو فاعلن أنه مهاجر وقال من أراد أن
تشكله أمه فليلقني وراء هذا الوادي ثم خرج مهاجراً فلم يتبعه أحد وحضر
مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مشاهده كلها فلم يتخلف عن واحدة منها
وكان كثيراً ما يشير على الرسول فينزل القرآن موافقاً لما أشار وكان هو
وأبو بكر بمنزلة الوزير لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقد صاهره
عليه السلام فتزوج بنته حفصة بعد أن قتل عنها زوجها : ولما لحق عليه
السلام بربه كان أمراً كبير الفضل في الإسراع ببيعة أبي بكر قطعاً للنزاع
في أمر الخليفة وخوفاً أن يتشتت الأمر وكان لأبي بكر بمنزلة الوزير الأول
يشير عليه ويعينه وكان أبو بكر يحيل عليه فصل القضايا فكانه كان قاضيه
وإن لم يتسم باسم القاضي وقد أفادته صحبة أبي بكر الأناة في الأمور
وكثيراً غيرها

أول خطاب له

بعد أن بويغ بالخلافة عقب وفاة أبي بكر صمد المنبر فقال هذه الكلمات القصيرة وهي تنبئ عن سياسته التي ساس بها العرب قال بعد أن حمد الله واثني عليه (إنما مثل الجمل كمثل جمل أنف اتبع قائده فليُنظر قائده أين يقوده أما أنا فو رب الكعبة لا حملنكم على الطريق) والجمل الانف هو الجمل الذليل الموالي الذي يأنف من الزجر والضرب ويعطي ما عنده من السير عفواً سهلاً وهذا تشخيص حسن للامة الاسلامية لعهد فاتها كانت سامعة مطيعة اذا أمرت ائتمرت وإذا نهيت انتهت ويتبع ذلك المسؤولية الكبرى على قائدها بانه يجب عليه أن يتبصر حتى لا يوجه هذه الامة الى مافيه خطر عليها بل يتخير لها أسلح الطرق وأسهاها ولذلك وعدم مقسما فقال أما أنا فو رب الكعبة لا حملنكم على الطريق ويفهم بالبداهة أنه الطريق الاقوم الذي لا اعوجاج فيه والعرب من شأن لغتها الاكتفاء بدلالات الاحوال

الفتوح في عهد عمر

في بلاد الفرس

لما صرف أبو بكر خالد بن الوليد الى العراق أمره أن يستخلف على البلاد المثنى بن حارثة الشيباني ويترك عنده نصف الجنود ففعل خالد ما أمر به وأقام المثنى بالحيرة وهي دار امارته وكان قد استقام أمر الفرس على شهر براز فوجه الى المثنى والتقى به عند بابل وأوقع بهوقعة شديدة انهزم فيها بهمن وجنده وتتبع الطالب الفل الى قرب المدائن ثم عاد المثنى الى الحيرة وأبطأت

عليه أخبار أبي بكر وتوقع أن الفرس يجمعون له جموعاً لا يقدر على مقاومتها
 تخلف على الجند بشير بن الخصاصية وخرج نحو المدينة ليخبر أبا بكر خبر المسلمين
 وأعدائهم وايستأذنه في الاستعانة بمن قد ظهرت توبته وندمه من أهل الردة
 وليخبره أنه لم يخلف أحداً انشط إلى قتال فارس وحربها ومعوثة المهاجرين
 منهم فقدم المثنى وأبو بكر في مرضه الأخير فاستدعى عمر فقال له اسمع
 يا عمر ما أقول لك ثم اعمل به أني لأرجو أن أموت من يومي هذا فإن أنا
 مت فلا تمسين حتى تندب الناس مع المثنى ولا تشغلنكم مصيبة وإن عظمت
 عن امر دينكم ووصية ربكم وقد رأيته متوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم
 وما صنعت ولم يصب الخلق بمثله وبالله لو أني أني عن امر الله وأمر رسوله لخذلنا
 ولعاقبنا فاضطربت المدينة ناراً وإن فتح الله على امرء الشام فاردد أصحابه
 نخالداً إلى العراق فانهم أهله وولادة امره وحده وأهل الضراوة بهم والجرأة
 عليهم . ومات أبو بكر من يومه فبعدان دمه عمر ندب الناس مع المثنى وقال
 عمر كان أبا بكر قد علم أنه يسوءني أن أؤمر خذلاً على العراق حين امرني
 بصرف أصحابه وترك ذكره . كان الناس يجمعون عن الخروج إلى فارس
 لما في أنفسهم من عظمتها ، شوكتها القديمة فخطبهم المثنى فقال أيها الناس
 لا يعظمن عليكم هذا الوجه فإنا قد تبجحنا ريف فارس وغلبناهم على خير شق
 السواد وشاطرناهم ونلنا منهم واجترأ من قبلنا عليهم ولها أن شاء الله ما بعدها
 وقال لهم عمر أن الحجاز ليس لكم بدار إلا على النجعة ولا يقوى عليه أهله
 إلا بذلك أين الطراء (١) المهاجرون عن موعود الله سيروا في الأرض التي

وعدهم الله في الكتاب أن يورثكموها فأن قال (ليظهره على الدين كله) والله
مظهر دينه ومعهز ناصره ومولى أهله مواريث الأمم أين عباد الله الصالحين
— فكان أول منتدب للمسير أبو عبيد بن مسعود الثقفي ثم قفاد رجـلان
سعد بن عبيد وسليط بن قيس فأمر عمر على هؤلاء المنتدبين أسبقهم اجابة
وهو أبو عبيد وقال له اسمع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم
وأشركهم في الأمر ولا تجتمهم مسرعاً - حتى تتبين فأنها الحرب والحرب لا يصاحبها
الا الرجل المكث الذي يعرف الفرصة والـحـاف . فسار أبو عبيدة بالجند
وهو الـاهـير حتى بلغ الحيرة — كان الفرس في ذلك العهد قد ولوا عليهم
آزرميدخت ملكة واختارت هي رستم أحد عظماء الفرس قائداً عاماً للجند
الفارسية فدانت له الفرس عقب ورود أبي عبيد

كان أول ما صنعه رستم أن كتب الى دهقير السواد أن يثوروا بالمسلمين
ودس في كل رستق رجلاً يثور بأهله وكن ممن أرسله جابان ونوبى من
القواد فأناروا الناس من أعلى الفرات إلى أسفله واجتمع جند عظم قام في
التمارق (١) لما رأى ذلك اللئى ضم اليه مساحله وحذر وحينما جاء أبو عبيد
أراح الجند قليلاً ثم سار الى التمارق فحارب جابان ومن معه وهزم جنده
وأسر جابان أسره رجل من عامة العرب من ربيعة فقال له جابان إني معاشر
العرب أهل وفاء فهل لك أن تؤمنني وأعطيك كذا وكذا قال نعم قال
فادخني على ملككم حتى يكون ذلك بشهد منه ففعل فاحاز أبو عبيد ما فعل
الرابعي ولما علم القوم أنه الرئيس كانوا فيه أباعبيد فقال متروني فعلا معاشر

ربيعة أيؤمنه صاحبكم وأقتله أنا مماذ الله ما لزم بعض المسلمين فقد لزمهم
كلهم

لما انهزم الفرس ذهبوا إلى كسكر (١) لاجئين إلى نرسي فاجتمع اليه
الجند الذين معه وقل جابان فتبعهم ابو عبيد والتقي بهم أسفل من كسكر
فهزمهم وغلب على عسكر نرسي وأرضه وأخرب ما كان حول معسكرهم
من كسكر : وهناك جاءه الدهاقين مسالين فسالهم وجاءوه بهدايا من أطعمة
فارس وألوانها فلم يأكل منها وقال بشس المرء ابو عبيد إن صحب قوما من
بالادهم اهرقوا دماءهم دونه أو لم يهرقوا فاستأثرو عليهم بشيء يصيبه لا والله
لا يأكل مما أفاء الله عليهم الا مثل مايا كل اوساطهم

لما جاء رستم خبر الهزيمة جهز جيشاً آخر عظيماً يقوده بهمن جاذويه
واعطاه الراية الكبرى لفارس المسماة درفش كايان وعرضها ثمانية اذرع
وطولها اثنا عشر متراً من جلود النمر فसार اليه ابو عبيد حتى نزل المروحة (٢)
موضع البرج والعاقول فبعث اليه بهمن اما ان تعبروا الينا وندعكم والعبور
واما ان تدعونا نعبركم فأشار الناس على ابي عبيد بعدم العبور فاج وتوكل
الرأى وعبر بالمسلمين فدارت رحا الحرب وفي آخر النهار قتل ابو عبيد
فقال المسلمون جولة ثم تموا عليها وركبهم أهل فارس فبادر رجل من ثقيف
فقطع الجسر فأنهى الناس اليه والسيوف تأخذهم من خلفهم فتنهافتوا في الفرات

« ١ » كورة واسعة كانت قصبتها قبل أن يحضر الحجاج واسطا خسر وسابور
ثم صارت واسط قصبتها ومن مشهور نواحيها المبارك والمدار ونقيا وميسان ودست
ميسان (٢) على شاطئ الفرات الغربي نجاه قس الناطف وذلك بالقرب من الكوفة

الفرات فأصيب منهم يومئذ أربعة آلاف بين غريق وقتل وحي المثنى ومن معه الناس وعقد الجسر وعبروا فأقاموا بالمروحة وهرب من الناس بشر كثير على وجوههم وافتضحوا في انفسهم واستحيوا مما نزل بهم

وبلغت هذه المصيبة عمر فقال اللهم ان كل مسلم في حل مني أنا فئة كل مسلم يرحم الله أبا عبيد لو كان عبر فاعتصم بالخيف أو تحيز اليان ولم يستقل لكناله فئة وحصل في هذه الواقعة غلظتان الأولى مخالفة أبي عبيد لمن معه من رؤساء الجيش فانهم نهوه عن العبور فلم ينته والذي زاد تلك الغلظة تأثيراً مافعله ذلك الرجل اللاحق عبد الله بن مرثد الثقفي من قطعه الجسر عند مارأي جولة المسلمين واراقتهم العبور ولولا ثبات المثنى بن حارثة لهلك المسلمون عن آخرهم

لم يبق مع المثنى من الجنود الا القليل لا قدرتهم على ان يحافظوا على مراكزهم ولا ان يردوا عنهم هجمات عدوهم وقد علم بذلك عمر فشرع يبعث الامداد الى المثنى منهم جرير بن عبد الله البجلي في قومه من بني بجيلة فلما علم المثنى بتقدمهم طلب منهم أن يسيروا اليه حتى يقابلوه على البويب (١) وتقدمهم هو اليه فساروا اليه وكان رستم قد أرسل الى المسلمين جنداً مع قائد اسمه مهران فوقف امامهم ويفصل بين الفريقين الفرات فأرسل مهران الى المثنى يخبره بين أن يعبر بجنوده أو يعبر مهران اليه وكان الجواب طبعاً ان طلب من مهران العبور لان واقعة الجسر لم يمح أثرها بعد فعبى الفرس واقتتلوا مع المسلمين وكان ذلك في رمضان وقد أمر المثنى

(١) نهر كان بالعراق موضع الكوفة ياخذ من الفرات

بالافطار فافطروا وكانت تسمية الحديس خالدية فالبحر المثنى رجلاً يستوفى ويستقتل
من الصف فقال ما بال هذا قالوا هو ممن فر يوم الجسر وهو يريد أن
يستقتل فقرعه بالرمح وقال لا أبالك الزم موقفك فإذا أتاك قرناك فأغنه عن
صاحبك ولا تستقتل قال اني بذلك لجدير فاستقتل ولزم الصف وكانت
الحرب في هذه الموقعة من أشد ما صادفه المسلمون هو لا لكثرة عدوهم
ولكنهم اضطهروا صبراً جميلاً وكانت الهزيمة على الفرس بعد أن كاد يفنى
قلب جنودهم ولما شرعوا في الهزيمة سبقهم المثنى الى الجسر فقطعه فارادوا
العبور فلم يمكنهم فذهبوا في البلاد مصعدين ومنحدرين بعد أن قتل منهم
ما قدر بمئة ألف ومما يؤثر عن المثنى حكمه على نفسه في قطعه الجسر وأحراجه
العدو قال لقد عجزت عجزاً وقى الله شرها بمسابقتي اياهم الى الجسر وقطعه
حتى أخرجتهم فاني غير عائد فلا تعودوا ولا تقتدوا بي أيها الناس فانها كانت
مني زلة لا ينبغي إخراج أحد الا من لا يقوى على الامتناع : ثم أرسل المثنى
في أثر المهزمين من اتبعهم الى أن وصلوا الى السيب (١) بعد أن عقد لهم
جسراً : وكانت هذه الواقعة من الوقائع الكبرى التي أوقعت الرعب في قلوب
أهل فارس حتى سار المسلمون فيما بين الفرات ودجلة لا يمنعون مانع ولا يقف
في وجوههم محارب

وأقام المثنى بعد ذلك يصعد ويصوب في الجزيرة ويبيت السرايا للاغارة
ومما يدل على تنبهه عمر لما كان يحصل بين أولئك الجنود أن المثنى أرسل رجلين
من بكر بن وائل في جند فأغاروا على صفين وبها النمر وتغلب متساندين

فأغاروا عليهم حتى رموا بطائفة منهم في الماء فنادشدهم فلم يقاموا عنهم وجعلوا
ينادونهم الفرق الفرق وجعل عتيبة وفرات البكر يان يذمران الناس وينادونهم
تغريق بتغريق يذكرونهم يوماً من أيامهم في الجاهلية أحرقوا فيه قوماً
من بكر بن وائل في غيضة من الغياض ثم انكفؤا راجعين إلى المشى وقد
غرقوهم : كانت لعمريون في كل جيش فكتب العين إلى عمر بما قال عتيبة
وفرات يوم بنى ثعلب والماء فاستقدمهما عمر فسألها فآخبراه أنهما قالا ذلك
وجه أنه مثل وأنهما لم يفعلوا ذلك على وجه طلب ذحل الجاهلية فاستحلفها
خلفا أنهما ما أراد بذلك إلا المثل واعزاز الإسلام فصدقهما وردهما حتى قدما
على المشى

أمر القادسية (١)

نظر الفرس بعد هزيمة مهران إلى أنفسهم فوجدوا أنفسهم يضعفون أمام
العرب وروا أن الاختلاف الذي هم فيه مما ساعد العرب على تقدمهم وانتصارهم
فقالوا الرستم والفيرازن وهما عظيم فارس والمستنقان في أمر سلطانها أين يذهب
بكما لم يبرح بكما الاختلاف حتى وهنتم أهل فارس وأطمعتم فيهم عدوهم
وأنه لم يبلغ من خطر كما أن تقر كما فارس على هذا الرأي وإن تعرضها
للهلكة ما بعد بغداد وساباط وتكريت إلا المدائن والله لتجتمعان أو لنبدأن
بكما قبل أن يشمت بنا شامت فرأى الرجلان أن كلام القوم حق فبحثا في
كل نساء كمرى وسراويه عن عقب له يبينن فبعدلأى وجدا رجلا يدعى يزدرج

(١) بينها وبين الكوفة ١٣ فرسخا وبينها وبين العذيب أربعة أميال وهي على

جادة الكوفة

عن ولد شهر يار بن كسرى وهو ابن احدى وعشرين سنة فملكه النرس واجتمعوا عليه و تبارى الرؤساء في طاعته ومعاونته وحينئذ سمي الجنود لكل مسلحة كانت لكسرى أو موضع ثغر فسمى جنود الحيرة والانباء والمسالخ والابلة . بلغ المشي ذلك كله فكتب به إلى عمر ولم يصل الكتاب إلى عمر حتى كفر أهل السواد من كان له عهد ومن لم يكن له عهد فخرج المشي على حاميته حتى نزل بذي قار (١) ثم جاءهم كتاب من عمر يأمرهم بالانسحاب من بين أظهر الاعاجم والتفرق في المياه التي تلى حدود بلادهم فكان منزل المشي ذا قار ونزل الناس بالجل (٢) وشراف (٣) إلى غضى وغضى حيال البصرة وكانوا بحيث يغيب بعضهم بعضاً ان كان فزع تم ذلك في ذي القعدة سنة ١٣

أما عمر فكتب الى عمال العرب على الكور والقبائل في ذي الحجة سنة ١٣ لاتدعو أحداً له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأي الا انتخبتموه ثم وجهتموه الى والعجل العجل وكان يريد توجيه جيش كثيف إلى العراق حتى يقاتل جموع المعجم بجموع العرب فأما القبائل التي طرقها على مكة والمدينة فوافته بالمدينة وكذلك من كان من أهل المدينة على النصف ما بينه وبين العراق وأما من كانوا أسفل منهم فانضموا إلى المشي فلما تكامل ورود الجنود على عمر خرج بهم من المدينة حتى نزل على ماء يدعي صرار (٤) فعسكر به

«١» ماء ليكر بن وائل قريب من الكوفة بينها وبين واسط

«٢» موضع بالبادية على جادة طريق القادسية الى ذباله بينه وبين القرعاء ١٦٠ ميلا

«٣» بين واقصة والقرعاء ومن شراف الى واقصة ميلان

«٤» وضع على ثلاثة أميال من المدينة من طريق العراق

ولا يدري الناس ما يريد أيسير أم يقوم وكانوا إذا أرادوا أن يسألوه عن شيء رموه بعثمان أو بعبد الرحمن بن عوف وكان عثمان يدعى في أمانة عمر وديفا والرديف الرجل الذي يكون بعد الرجل فإذا لم يقدر هذان على علم شيء مما يريدون ثلثوا بالعباس بن عبد المطلب فقال عثمان لعمر ما تريد فنأدى الصلاة جامعة فاجتمع الناس عليه فأخبرهم الخبر وانتظر ما يقول الناس فقالت العامة سر وسر بنا معك فدخل معهم في رأيهم وكره أن يدعهم حتى يخرجهم منه في رفق فقال استعدوا وأعدوا فاني سائر الا أن يجيء رأي أمثل من هذا ثم بعث الى أهل الرأي فاجتمع اليه وجوه الصحابة وأعلام العرب فاجتمع رأيهم جميعا على أن يبعث رجلا من اصحاب رسول الله صلى عليه وسلم ويقم ويرميه بالجنود فان كان ما يرجو من الفتح وإلا أعاد رجلا وندب جندا آخر فنأدى عمر الصلاة جامعة وبعث الى علي وكان قد خلفه على المدينة والى طلحة وكان على مقدمته ولما تكامل جمعهم قاتلهم الله قد جمع على الاسلام أهله فألف بين القلوب وجعلهم فيه إخوانا والمسلمون فيما بينهم كالجسد لا يخلو منه شيء من شيء أصاب غيره وكذلك يحق على المسلمين ان يكون امرهم شورى بينهم بين ذوى الرأي منهم فالناس تبع لمن قام بهذا الامر ما اجتمعوا عليه ورضوا به لزم الناس وكانوا فيه تبعاً لهم ومن اقام بهذا الامر تبع لاولى رأيهم ما رآوا لهم ورضوا به لهم من مكيدة في حرب كانوا فيه تبعاً لهم ايها الناس اني انما كنت كرجل منكم حتى صرفني ذؤو الرأي منكم عن الخروج فقد أيت ان اقيم وابعث رجلا وقد احضرت هذا الامر من قدمت ومن خلفت (يريد علياً وطلحة) وهذا

الخطاب يبين ما كان يدور في رأس عمر من النظام الشورى ويوضح
الاساس لذلك النظام . ثم اجال معهم الرأي فيمن يوليه قيادة ذلك الجيش
العظيم واتفق الرأي اخيراً على تولية القائد العظيم سعد بن ابي وقاص الزهرى
القرشى وكان فى ذلك الجيش حد الامة العربية فان عمر لم يدع رئيساً ولا
ذا شرف ولا ذا رأى ولا ذا سلطة ولا خطيباً ولا شاعراً الارماهم به فرماهم
بوجوه الناس وغررهم



المحاضرة الثانية والعشرون

تمام القادسية — فتح المدائن

ثم امر سعداً بالمسير وقال اذا انتهيت الى زرود (١) فانزل بها فسار حتى اذا وصل الى زرود فنزل بها وتفرق الجنود فيما حولها من امواه بنى تميم واسد وانتظر اجتماع الناس وامر عمر وفي ذلك الوقت مات المشنى بن حارثة من جراحة كانت اصابته وقبل وفاته ارسل الى سعد وصيته لانه قد اختبر امر العجم قبله اوصاه ان يقاتل الفرس على حدود ارضهم على اذن حجر من ارض العرب واذنى مدر من ارض العجم فان يظهر الله المسلمين عليهم فليهم ماوراءهم وان تكن الاخرى فاؤا الى فئة ثم يكونون اعلم بسيلهم واجراً على ارضهم الى ان يرد الله الكرة لهم . ثم سار سعد من زرود حتى اتى شراف وفيها جاءه كتاب من عمر يقول فيه اذا جاءك كتابي هذا فاعشر الناس وعرف عليهم وامر على اجنادهم وعيهم ومر رؤساء المسلمين فليشهدوا وقدرهم وهم شهود ثم وجههم الى اصحابهم وواعدهم القادسية واكتب الى بالذى يستقر عليه أمرهم ففعل سعد ما امر به فقدر الناس وعباهم بشراف وامر امراء الاجناد وعرف العراف فعرف على كل عشرة رجلاً وامر على الرايات رجلاً من اهل السابقة وعشر

«١» رمال بين الثعلبية والخزيمية على طريق الحاج الى الكوفة

الناس وأمر على الاغشار رجالا من الناس لهم وسائل في الاسلام وولى الحرب رجالا فولى على مقدماتها ومجنباتها وساقها ومجراتها وطلائعها ورجلها وركبانها فكان أسراء التعمية ياون الامير ويليهام أمراء الاغشار ثم أصحاب الرايات ثم القواد روعس القبائل ولم يفصل سعد من شراف الا على تعبئة وباذن عمر وهذا كتابه الذى أمره فيه بمبارحة شراف :

أما بعد فسر من شراف نحو فارس بمن معك من المسلمين وتوكل على الله واستعن به على أمرك كله واعلم أنك تقدم على أمة عددهم كثير وعدتهم قاضاة وبأسهم شديد وعلى بلد منيع وان كان سهلا كؤودا لبحوره وفيوضه وداآته (١) إلا أن ترفقوا غيضا من فيض واذا لقيتم القوم وأحدأ منهم فابدهوهم اللند والقرب وإياكم والمناظرة لجموعهم ولا يخذ عنكم فانهم خدعة مكرة أمرهم غير أمركم إلا أن مجادوهم واذا انتهيت الى القادسية والقادسية باب فارس فى الجاهلية وهى أجمع تلك الابواب لما دهم ولما يريدونه من تلك الاصل وهو منزل رغب خصيب حصين دونه قناطر وأنهار ممتعة فتكون مسالحك على أنقابها ويكون الناس بين الحجر والمدر على حافات الحجر وحافات المدر والجراع بينهما ثم الزم مكائك فلا تبرحه فانهم اذا أحسوك أنقضتهم رموك بجمعهم الذى يأتي دلى خيلهم ورجلهم وحدثهم وجدهم فان أنتم صبرتم لعدوكم واحتسبتم لقتاله واوربتم الامانة رجوت أن تنصروا عليهم ثم لا يجتمع لكم مثاهم أبداً إلا أن يجتمعوا وليست معهم قلوبهم وان تكن الاخرى كان الحجر من أرضكم ثم كنتم عليها أجراً وبها أعلم وكانوا عنها اجبن وبها أجهل حتى يأتي الله بالفتح

عليهم ويرد لكم الكرة) وكتب اليه باليوم الذي يرثحل فيه من شراف فزار
سعد على تعيينته والكتب بينه وبين عمر متواصلة

ثم جاءه كتاب آخر يقول له فيه — واكتب الى ابن بلخ جمعهم ومن
رأسهم الذي يلي مصادمتكم فانه قد منعني من بعض ما اردت الكتاب به
قلة علمي بما هجمتم عليه والذي استقر امركم عليه فصف لنا منازل المسلمين
والبلد الذي بينكم وبين المدائن صفة كأني انظر اليها واجعلني من امركم على
الجلية — فكتب اليه سعد بصفة البلدان القادسية بين الخندق (١) والعتيق
وان ماعن يسار القادسية بحراً أخضر في جوف لاح (٢) الى الحيرة بين طريقين
فأما احدهما فعلى الظاهر واما الآخر فعلى شاطئ النهر يدعى الحوض (٣)
يطلع بمن ساسكه على ما بين الخورنق (٤) والحيرة وان ماعن يمين القادسية
الى الواجة فيض من فيض مياههم وان جميع من صالح المسلمين من أهل
السوادق الى اب لاهل فارس قد خفوا لهم واستعدوا لنا وان الذي اعدوا
لمصادمتنا رستم في امثال له منهم فهم يحاونون انغاضنا واقعد منا ونحن نحاول
انغاضهم وابرازهم وامر الله بعد ماض وقضاء مسلم الى ما قدر لنا وعلينا فانسأل
الله خير القدر في عافية — فكتب اليه عمر يأمره بالمقام بالقادسية وكان مما

«١» خندق سابور في برية الكوفة حفره سابور بينه وبين العرب خوفاً من
تشرهم واوله من هيت يشق طف البادية الى كاظمة مما يلي البصرة وينفذ الى البحر
يربني عليه المناظر والجواسق ونظمه بالمخ ليكون مانعاً لاهل النادية من السوار
«٢» ضيق «٣» نهر كان بين الحيرة والقادسية «٤» قصر كان
بظاهر الحيرة بناه أحد ملوك العرب بالحيرة وهو النعمان بن امرئ القيس ثم رقي
الفرات وغريبه بساين

حضه به على الوفاء بالامانة قوله له انى قد القى في روعي انكم اذا اتقيتم العدو هزمتموهم فاطرحوا الشك وآثروا التمية عليه فان لاعب احد منكم احداً من العجم بأمان او قرفه بإشارة او لسان كان لا يدري الاعجمي ما كلمه به وكان عندهم اماناً فأجروا ذلك مجرى الامان واياكم والضحك الوفاء الوفاء فان الخطأ باوفاء بقية وان الخطأ بالغدر الهلكة وفيها وهنكم وقوة عدوكم وذهاب ربحكم واقبال ربحهم واعلموا انى احذركم ان تكونوا شيئاً على المسلمين وسبباً لتوهينهم

كان الفرس قد اتفقوا على تولية رستم أعظم قوادهم قيادة الجيش الذي يوجهونه لحرب المسلمين فرضي بذلك وقبل أن يفصل بجنوده بعث سعد دعاة الى الملك حسب أمر عمر فاختر من جنده قوماً عليهم نجار ولهم آراء وفقرآ لهم منظر وعليهم مهابة ولهم آراء نفخجوا من العسكر حتى جاؤا للمدائن فاستأذنوا بالدخول على الملك فأذن لهم ومع يزدجرد وزراؤه ووجوه ارضه فلما دخلوا عليه أمرهم بالجلوس ثم قال لترجمانه سلهم ما جاء بهم وما دعاهم الى غزونا والولوع ببلادنا أمن أجل انا أجمعناكم وتشاغلنا عنكم اجترأتم علينا هرد عايه النعمان بن مقرن وكان رئيس الوفد فذكر تاريخ ارسال الرسول وما كان من شأن العرب معه ودخولهم في دينه وقال بعد ذلك ثم أمرنا أن تبدأ بمن يلينا من الأمم فندعوهم الى الانصاف فنحن ندعوكم الى ديننا وهو دين سن الحسن وقبح القبيح كله فان أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخر شر منه الجزاء فان أبيتم فالمناجزة فان أجبتهم الى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله وأقنناكم عليه على أن تحكموا باحكامه ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم وان اتقيتمونا

بالجزء قبائنا منكم ومنعناكم والاقتانناكم فقال يزدجرد اني لا أعلم في الارض
أمة كانت أشقى ولا أقل عدداً ولا أسوأ ذات بين منكم قد كنا نوكل بكم
قرى الضواحي فيكفوننا اياكم لا تغزوكم فارس وتطمعون أن تقوموا لهم فان
كان عدد لحق فلا يغيرنكم منا وان كان الجهد قد دعاكم فرضنا لكم قوتاً الى
خصبكم وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم وملكننا عليكم ما كما يرفق بكم
فسكت القوم فقام المغيرة بن زرارة الأسدي فقال ايها الملك ان هؤلاء
رؤوس العرب ووجوههم وهم اشراف وانما يكرم الاشراف الاشراف ويعظم
حقوق الاشراف الاشراف ويفخم الاشراف الاشراف وليس كل ما أرسلوا
به جموده لك ولا كل ما تكلمت به اجابوك عليه وقد أحسنوا ولا يحسن بمثلهم
الا ذلك فجأوني لا كون الذي ابغاك ويشهدون على ذلك . اما ما ذكرت من
سوء الحال فما كان اسوأ حالاً منا واما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع كناناً كل
الحنافس والجمالان والعقارب والحيات فترى ذلك طعامنا واما المنازل فانما هي
ظهر الارض ولا نلبس الارض ولا نلبس الا ما غزلنا من اوبار الابل واشعار
الغنم ديننا ان يقتل بعضنا بعضاً ويغير بعضنا على بعض وان كان احدنا ليدفن
ابنته حية كراهية ان تأكل من طعامنا فكانت حالنا قبل اليوم على ما ذكرت
لك فبعث الله الينا رجلاً معروفاً نعرف نسبه ونعرف وجهه ومولده فأرضه
خير من ارضنا وحسبه خير من احساننا وبيته اعظم بيوتنا وقبيلته خير قبائلنا
وهو بنفسه كان خيرنا في الحال التي كن فيها اصدقنا واحلمنا فدعانا الى امر
فلم يجبه احد اول من ترب كازله وكان الخليفة من بعده فقال وقائنا وصدق
وكذبنا وزاد وتقصنا فلم يقل شيئاً الا كان فقذف الله في قلوبنا التصديق

له واتباعه فصار فيما بيننا وبين رب العالمين فما قال لنا فهو قول الله وما امرنا
 فهو امر الله فقال لنا ان ربكم يقول اني انا الله وحدي لا شريك لي كنت
 اذ لم يكن شيء وكل شيء هالك الا وجهي وانا خلقت كل شيء وإلى يصير
 كل شيء وإن رحمتي ادرتكم فبعثت اليكم هذا الرجل لادلکم على السبيل
 التي بها انجيکم بعد الموت من عذابي ولا حلکم داری دار السلام فنشهد عليه
 انه جاء بالحق من عند الحق وقال من تابعکم على هذا فله مالکم وعليه
 ما عليکم ومن ابى فاعرضوا عليه الجزية ثم امنعوه مما تمنعون منه انفسکم
 ومن ابى فقاتلوه فانا الحكم بينکم فمن قتل منکم ادخلته جنتي ومن بقي منکم
 اعقبته النصر على من ناواه فاختران شئت الجزية عن يد وانت صاغر واز شئت
 فالسيف او اسلم فتعجبى نفسك فقال كسرى استقباني بمثل هذا فقال ما استقبات
 الا من كانى ولو كانى غيرك لم استقبلك به فقال لولا ان الرسل لا تقتل
 لقتلتکم لاشيء لکم عندي ثم قال ائتوني بوقر من تراب فاحملوه على اشرف
 هؤلاء ثم سوقوه حتى يخرج من المدائن ارجعوا الى صاحبکم فاحملوه اني
 مرسل اليه رستم حتى يدفنکم ويدفنه في خندق القادسية وينکل بکم وبه
 من بعد ثم اوردکم بلادکم حتى اشغلکم في انفسکم بأشد مما ذلکم ثم قال من
 اشرفکم فقال عاصم بن عمرو انا فحملوه وقر التراب على عنقه فحمله حتى اتى
 راحته فحمله عليه ثم ساروا فأتوا بالتراب سعداً وبشروه بالظفر متفائلين
 فصل رستم من المدائن في تعبئة كبرى وعدد جنده ١٢٠ الف عدا من تبعهم
 وسارت طلائئه حتى اتت الحيرة فنزلت بها ثم سار رستم حتى اتى النجف
 فسكر بها والطلائع تسير امامه ولم يزل الجيشان يتقاربان حتى كن رستم

على العتيق وسعد أمامه وكانت بين الفريقين مراسلات قال المسلمون فيها
لرستم كثيراً ومما قيل في مجلسه ما قاله المغيرة بن شعبه أحد الوفد فانه لما جاء
جلاس مع رستم على سريريه فوثب عليه الفرس وأنزلوه فقال لهم كانت تباغنا
عنكم الاحلام ولا أرى قوماً أسفه منكم إنا معشر العرب سواء لا يستعبد
بعضنا بعضاً الا أن يكون محارباً لصاحبه فظننت انكم تواسون قومكم
كما تتواسى وكان أحسن من الذي صنعتم أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض
وأن هذا الامر لا يستقيم فيكم فلا نصنعه ولم آتكم ولكنكم دعوتوني اليوم
فعلمت ان أمركم مضمحل وأردكم مغلوبون وأن ما كالا يقوم على هذه السيرة ولا على
هذه العقول فقال السفلة صدق والله العربي وقالت الدهاقين لقد رمي بكلام لا زال
عبيدنا ينزعون اليه قاتل الله أولينا ما كان أحقهم حين كانوا يصغرون أمر هذه الامة
ثم اجمع رستم أمره على عبور العتيق فسكركه ثم عبر هو وجنده
وكان البريد بينه بين المدائن متصلاً بحيث تصل الاخبار الى نردجرد
ساعة حدوثها وكان سعد قد عبأ الحيش وانتظمت حماته ولم يكن سعد
مع المقتلين لانه لم يكن يستطيع أن يركب لحبوب كانت به فكان مقبلاً باعلى
القصر يشرف على الناس ويرمي بالرقاع فيها الامر والنهي الى خالد بن عرفة
وهو أسفل منه وكان الصف بجانب القصر ثم قام في الناس الخطباء فخطبواهم
وحشروهم على الصبر وكان وراء الفرس اعتبق ووراء المسلمين الخندق وميدان
الحرب بين ذلك وبعد أن أذن المؤذن بالظهور وأنمو اصلاتهم كبر سعدت أميراته
الثلاث التي كانت آخرها علامة بدىء الحرب فبرز أهل النجدات فأنشبوا
القتال وبرز غالب بن عبد الله الاسدي وهو يقول

قد علمت واردة المسائح ذات اللبان والبنان الواضح
أني سهام البطل المشايخ وفارج الامر اللهم الفادح
وبرز عاصم بن عمرو وهو يقول

قد علمت بيضاء صفراء اللب مثل اللجين إذ تغشاه الذهب
أني امرؤ لا من يعنيه السبب مثلي على ملك يغريه العتب

ثم كبر سعد التكبير الرابعة وهي علامة الهجوم العام فزحفت الجنود
اصطدمت صدمة هائلة وكان مما صعب الامر على المسلمين فيلة الفرس فانها
احمل اصحابها خافتها الخيل فتفرقت فكادت بحيلة أن تؤكل حين فرت
نهار خيلها تفاراً فأعانهم سعد بنى أسد وكان لهم في ذلك أعظم نحر وارئيسهم
للبيعة لاسدي ولم يكن للمسلمين حيلة في الفيلة هذا اليوم الا أن أعدوا
مئة النبل يرمون ركبان الفيلة فلما أعريت الفيلة من ركبائها عادت الى مواقعها
نفس عن بني أسد بعد الجهد الشديد فقد أصيب منهم خمسة رجال وجاءت
لجنتات جولة خفيفة ولم يزل القتال إلى أن مضى جزء من الليل وكان
لنجاح أظهر في صفوف الفرس في هذا اليوم ويسمى يوم ارمات

وفي اليوم الثاني نقلوا القتلى والجرحى من الميدان فأما القتلى فدفنهم
أما الجرحى فأسلموهم إلى النساء يداوينهم وقبل الانحام جاءت جنود
خالد التي أمر عمر أباعبيدة أن يصرنها الى العراق وأميرها هانم بن عتبة بن أبي
رقاص فقوى بها المسلمون وكانوا قد جاءوا بالابل وجللوها ورفعوها حتى
صار لها شكل غريب وأطافت بها خيولهم تحميها فلقيت خيول الفرس من
منه الابل في اليوم الثاني ماتت جنود المسلمين من الفيلة في اليوم الاول

ولم يزل القتال بين الفريقين شديداً الى نصف الليل ويسمى هذا اليوم يوم اغواث وكانت كفة المسلمين فيه ارجح

وفي اليوم الثالث تقلت القتلى والجرحى ثم اصطدمت الجنود على حلق وفيلة الفرس تفعل فعلا في الخيول فانتدب لا كبرها رجلان من اصحاب النجدة فوضعا رجليهما في عيني الفيل ونفض رأسه فطرح رأسه وولى مشفرد فنفضه احدهما بالسيف فرمي به ووقع اجنبه ثم فعلا مثل ذلك بفيل آخر فولى فوثب في العتيق فتبعته الفيلة فخرقت صفوف الفرس وكان ذلك مما اضعف قوتهم وقوى المسلمين وما زال القتال مشتداً حتى جاء الليل فلم ينفصل الفريقان وخشعت اصوات الناس فلم يكن يسمع الا صليل السيوف وهدير الفرسان ورأى العرب والعجم امراً لم يروا مثله وما زال القتال مشتداً حتى اصبحوا والناس حسرى لم يغمضوا ايلتهم فسار القعقاع في الناس يقول لهم ان الدبرة بعد ساعة لمن صبرها فاصبروا ساعة فقام قائم الظهيرة حتى انهزم مجنبتا الفرس وانفرج القاب وكانت همة اصحاب النجدة موجهة الى سرادق رستم فلما رأى ذلك اراد الهرب فتبعه هلال بن علفه حتى تبض عليه وقتله وصعد على سريره ثم نادى قتلت رستم ورب الكعبة فأطاف به الناس وكبروا وتنادوا فلم يكن للقاب بعد ذلك مقام وتتابع الهزيمة واخذوا الراية الفارسية وهي درفش كايان ثم تتبعوا بفيه المنهزمين حتى اجلوهم الى ما وراء القنطرة وكان اليوم الثالث من ايام القادسية يسمى يوم عماس وليلته تسمى ليلة الهرير ولم يمر على المسلمين موقعة اشد منها هو لا لامع الفرس ولا مع ذيرهم قتل منهم فيها نحو ثمانية آلاف فارس ومن الفرس نحو ثلاثين الفا

وبعد أن انتهت الموقعة كتب سعد إلى عمر هذا الكتاب (أما بعد
فإن الله نصرنا على أهل فارس ومنحهم سنن من كان قبلهم من أهل دينهم
بعد قتال طويل وزلزال شديد وقد لقوا المسلمين بعدة لم ير الرءون مثل زهائها
فلم ينفعهم الله بذلك بل سلبهموه ونقله عنهم إلى المسلمين واتبعهم المسلمون على
الأنهار وعلى طفوف الآجام وفي الفجاج وأصيب من المسلمين سعد بن عبيد
القارىء وفلان وفلان ورجال من المسلمين لأنعلمهم الله بهم عالم كانوا يدوون
بالقرآن إذا جن عليهم الليل دوى النحل وهم آساد الناس لا يشبههم الأسود
ولم يفضل من مضى منهم من بقي إلا بفضل الشهادة اذ لم يكتب لهم) :
كان عمر مشغول القلب جداً بأمر القادسية فكان في كل يوم يخرج متأسماً
أخبارهم من حين يصبح إلى انتصاف النهار فيرجع إلى أهله ومنزله وفي اليوم
الذي ورد فيه البشير لقيه عمر فسأله من أين فأخبره فقال يا عبد الله حدثني قال
هزم الله العدو وعمر يجري وراءه ويستخبره والآخر يسير على ناقته ولا يعرفه
حتى دخل المدينة فإذا الناس يسلمون عليه بأمر المؤمنين فقال الرجل فهلا
أخبرتني رحمتك الله أنك أمير المؤمنين وعمر يقول لا عليك يا أخى فقضى
كتاب الفتح على الناس ثم ورد عليه كتاب آخر من سعد يقول فيه (ان
أقواماً من أهل السواد ادعوا عهوداً ولم يقيم على عهد أهل الأيام لنا ولم يف
به أحد علمناه إلا أهل بانقيا وبسما وأهل أليس الآخرة وادعى أهل السواد
أن فارساً أكرهوهم وحشروهم فلم يخالفوا إلينا ولم يذهبوا في الأرض) ثم
كتاب آخر يقول فيه (ان أهل السواد جلوا فجاءنا من أمسك بعهد ولم يجلب
علينا فتمننا لهم ما كان بين المسلمين قبلنا وبينهم وزعموا أن أهل السواد قد

لحقوا بالمدائن فأحدث الينا فيمن تم وفيمن جلا وفيمن ادعى أنه استكره وحشر
فهرب ولم يقاتل أو استسلم فانا في ارض رغبة والارض خلاء من أهلها وعدونا
قليل وقد كثر أهل صاحبنا وان أعمر لها وأوهن لعدونا تألفهم (فقام
عمر في الناس واستشارهم فيما طالبه سعد فأجمعوا على أن الوفاء لمن أقام وكف
لم يزد غلبه إلا خيراً وان من ادعى فصدق أو وفى فيمنزاتهم وان كذب
نبذ اليهم وأعادوا صلحهم وأن يجعل امر من جلا اليهم فان شاءوا دعوهم
وكانوا لهم ذمة وان شاءوا تموا على منعهم من ارضهم ولم يعطوهم الا القتال
وان يخبروا من اقام واستسلم الجزاء او الجلاء وكذلك الفلاح - فكتب
عمر جواب الكتاب الاول يقول

(اما بعد فان الله جل وعلا أنزل في كل شئ رخصة في بعض الحالات
لا في أمرين العدل في السيرة والذكر فاما الذكر فلا رخصة فيه في حالة
ولم يرض منه إلا بالكثير وأما العدل فلا رخصة فيه في قريب ولا بعيد
ولا في شدة ولا رخاء وان رؤى ايما فهو أقوى وأظفا للجور وأقمع للباطل
من الجور وان رؤى شديداً فهو انكش للكفر فمن تم على عهده من اهل
السواد ولم يعن عليكم بشئ فلهم الذمة وعليهم الجزية واما من ادعى
انه استكره ممن لم يخالفهم اليكم او يذهب في الارض فلا تصدقوهم بما
ادعوا من ذلك الا ان تشاءوا وان لم تشاءوا فانبذ اليهم وابلغوهم ما منهم
وكتب جواب الكتاب الثاني

(اما من اقام ولم يجل وليس لهم عهد فلهم ما لاهل العهد بمقامهم لكم
وكفهم عنكم اجابة وكذلك الفلاحون اذا فعلوا ذلك وكل من ادعى ذلك

وصدق فلهم الذمة وان كذبوا انبذ اليهم : وأما من أعان وجلا فذلك أمر جعله الله لكم فان شئتم فادعوه الى أن يقيموا لكم في أرضهم ولهم الذمة وعليهم الجزية وان كرهوا ذلك فاقسموا ما أفاء الله عليكم منهم) - فلما عادت كتب عمر عرضوا على من يليهم مما جلا وتنجى عن السواد أن يتراجعوا ولهم الذمة وعليهم الجزية فتراجعوا وصاروا ذمة كمن تم ولزم عهده الا أن خراجهم أثقل فانزلوا من أدعى الاستكراه وهرب منزلتهم وعقدوا لهم وأنزلوا من أقام منزلة ذى العهد وكذلك الفلاحون ولم يدخلوا في الصلح ما كان لآل كسرى ولا ما كان لمن خرج معهم ولم يجبههم الى واحدة من اثنتين الاسلام او الجزاء وصارت فيئاً لمن أفاء الله عليه فهي والصوائف الاولى ملك لمن أفاء الله عليه وسائر السواد ذمة وأخذوهم بخراج كسرى وكان خراج كسرى على رؤوس الرجال على ما في أيديهم من الحصص والاموال - ولم يتأت قسمة ما كان لآل كسرى ومن صوب معهم لانه كان متفرقا في السواد فكان يليه لاهل النىء من وثقوا به وترضوا عليه

كان عمر يتخوف أن يؤتى المسامون من جهة الابل لانهم لم تكن فتحت بعد فتخير فصيلة من الجيش عليها عتبة بن غزاون ووجهها الى الابل لتمنع امداد فارس من هذا الوجه فساروا حتى أتوا المربد مربد البصرة فنزلوا هناك واختلطوا مدينة البصرة ونزل الجند منازلهم فيها ومن هناك فتحوا الابل وهي مرفا فارس على خليج عمان الموصل الى بحر الهند وكان فتحها في رجب من سنة ١٤ وصارت البصرة بعد ذلك مركزاً حريياً عظيماً تفصل منه الجنود لحرب فارس الا انها لم يتم تمصيرها الا سنة ١٧ حينما مصرت الكوفة

أقام سعد بالقادسية شهرين ليرتاح الناس ولينتظر أمر عمر ثم اجتمعوا
أمرهم على السير الى قاعدة الملك فكان مما يارب به الصبيان في العسكر وتلقيه
النساء عليهم وهم على شاطئ العتيق أمر كان النساء يلعبن به في زرود وذى
قار وتلك الامواه حين أمروا بالسير في جمادى الى القادسية وكان كلاماً أبين
فيه كلاً وابد من الشعر لانه ليس بين جمادى ورجب شيء

العجب كل العجب بين جمادى ورجب
أمر قضاء قد وجب يخبره من قد شجب
تحت غبار ولب

ثم ان سعداً ارتحل وكان على مقدمته زهرة بن الحوية وكان معظم
الجيش فرساناً مما غنموه من خيل الفرس ولقيتهم في سيرهم جنود فارسية
يرس وبها فل القادسية وبقايا رؤسائهم وفيهم الهرمزان فخاربهم حرباً غير
طويلة ثم بلغهم أن الجنود قد تجمعت لهم ببابل على الفرزان فساروا اليهم
وهزموا في أسرع من لفت الرداء فتفرق رؤساء الفرس فسار الهرمزان
نحو الاهواز وخرج الفرزان الى نهاوند وصعد الباقون الى المدائن وقطعوا
الجسر . فأقام سعد ببابل أياماً ثم سير المقدمة مع زهرة حتى وصل بهر سير
وهي المدائن الدنيا على شاطئ دجلة الغربي وتلاحقت به الجنود وفي مقام سعد
على بهر سير راسلته الدهاقين راضين أن يدفعوا الجزية على أن يمنحهم المسلمون
فرضى منهم سعد بذلك وصالحهم وحاصروا بهر سير شهرين ثم فتحوها بعد
أن تركتها مقاتلة العدو وعبرت الى المدائن القصوى الشرقية فنزل سعد
بهر سير وأنزل بها الجند ثم دهم أهل البلاد على مخاضة يعبرون منها الى

الجهة الشرقية لأنه لم يكن مراكب يعبر عليها الناس فان الفرس كانوا قد
ضموها الى الشاطئ الثاني وكان سعد قد أعد فصيلة تحمي الفراض حتى يعبر
الجند ثم أمر بالعبور فعبر الجند كله خوفاً والذي جعل سعداً يسرع بذلك
خوفه أن يزدجرد ينقل كل مافي المدائن من ذخائره فحمله ذلك على السرعة
والمخاطرة ولما رأى أهل المدائن ما يفعله المسلمون دهشوا ولم يكن منهم الا أن
تركوا المدائن وخرج يزدجرد هارباً على وجهه وذهب بعياله الى حلوان أما
أهالي المدائن فأقاموا بها راضين بالجزاء والذمة

نزل سعد القصر الأبيض وهو يقول (كم تركوا من جنات وعيون
وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها قوماً آخرين)
وصلى فيه صلاة الفتح وجعله مسجداً وفيه تماثيل الجص رجال وخيل ولم
يمنع هو والمسلمون لذلك وتركوها على حالها وأتم سعد الصلاة يوم دخول
المدائن لأنه أراد المقام بها وكانت أول جمعة جمعت بالعراق جمعت جماعة في
المدائن في صفر سنة ١٦ ثم جمع سعد مافي خزائن كسرى من الاموال
والغنائم وكان ذلك شيئاً كثيراً وأصاب الفارس من المغم اثني عشر ألفاً
وكلهم كان فارساً ومعهم من النجائب شيء كثير ثم قسم دور المدائن
بين الناس وأوطنوها ثم جمع الخمس وأدخل فيه كل شيء أراد أن يعجب منه
عمر من ثياب كسرى وحليته وسيفه ونحو ذلك وما كان يعجب العرب أن
يقع اليهم ومما ارسله بساط ستون ذراعاً في مثلها فيه طرق كالصور وفصوص
كالانهار وخلال ذلك كالدير وفي حافته كالارض المزروعة والارض المقبلة
بالنبات في الربيع من الحرير على قضبان الذهب وفوارة بالذهب والفضة

وأشبهه ذلك ولما ورد الخس على عمر قسمه على مستحقه ثم قال أشيروا علي في هذا القطف فاجمع ملؤهم على أن قالوا قد جملوا ذلك لك فرأيتك إلا ما كان من علي فإنه قال يا أمير المؤمنين الأمر كما قالوا ولم يبق إلا التروية أنك إن قبله على هذا اليوم لم تعدم في غد من يستحق به ما ليس له فقطعه عمر بينهم

وصدر بعد ذلك أمر عمر بولاية سعد بن أبي وقاص صلاة ما غلب عليه وحر به وولى النعمان وسويدا ابني عمر بن مقرن الخراج الأول على ما سقت مجلة والثاني على ما سقى الفرات



الحاضرة الثالثة والعشرون

جلولاء - تمصير الكوفة والبصرة - فتح الجزيرة - الأهواز - غزو فارس

من البحرين - فتح فارس - فتح نهاوند وما بعدها

واقعة جلولاء

لما انتهى فل الفرس الى جلولاء كانت هي مفترق طرقهم الى آذربيجان والباب والى الجبال وقارس فتذا مروا وقالوا ان افترقتم لم تجتمعوا أبداً وهذا مكان يفرق بيننا فهاجوا فالتجتمع للعرب به ولنقاتلهم فان كان لنا فهو الذي نريد وان كانت علينا كمننا قد قضينا الذي عاينا وأبلىنا عذراً فخصنوا جلولاء واحتفروا الخندق حولها واجتمعوا هناك على مهران الرازي وأقام يزدجرد في حلوان وصار يمد لهم بالرجال والاموال فأقاموا في خندقهم وأحاطوا به الحسك من الخشب الاطرقهم فأرسل سعد بن الخضر الى عمر فأمره أن يسرح اليهم جيشاً أميره هاشم بن عتبة وعين أمراء تعيينته ففصل هاشم من المدائن في صفر سنة ١٦ (مارس سنة ٦٣٧) في اثني عشر الفأحتى نزل بجلولاء وحاصرها فكان الفرس يراحفون المسلمين ثم يعودون إلى خندقهم ولما طال المطال صمم المسلمون على الهجوم عليهم في خندقهم واقتحامه فصادفوا في سبيل ذلك حرباً هائلة كانوا يشبهونها بالحرب ليلة البرير وانتهت بتغلب المسلمين على الخندق وكان بطل الهجوم القميص بن عمرو ولما رأى الفرس أن لا طاقة لهم

بمخالبة ذلك العدو الشديد أخذوا يمنة ويسرة هاريين وتركوا المدينة فاحتلها المسلمون ثم أمر هاشم القعقاع أن يتبع المهزمين فتبعهم حتى وصل خاتقين ولما بلغت الهزيمة يزدجرد بارح حاران قاصدا الري فसार القعقاع حتى أتى حلاوان فاحتلها وأقام بها مرابطا لأنها هي الثغر الذي يفصل بين السواد والجبل وكان من رأى عمر في ذلك الوقت أن يقتصر على ما ملكوه من سواد العراق وقال في كتاب له لوددت أن بين السواد وبين الجبل سداً لا يخلصون إلينا ولا نخاض إليهم حسبنا من الريف السواد واني آثرت سلامة المسلمين على الانفال

كان سعد قد أرسل حساب المغنم والنفي مع زياد وكان هو الذي يكتب للناس ويدونهم فلما قدموا على عمر كرم زياد عمر فيما جاءه ووصف له فقال له عمر هل تستطيع أن تقوم في الناس بمثل الذي كلفتني به فقال والله ما على وجه الأرض شخص أهيب في صدري منك فكيف لأقوى على هذا من غيرك فقام زياد في الناس بما أصابوا وبما صنعوا وبما يستأذنون فيه من الانسياح في البلاد فقال عمر هذا الخطيب المصقع فقال زياد هذه الجملة المأثورة (ان جندنا أطلقوا بالفعال لساننا) ثم كتب عمر لسعد باقرا والفلاحين على حالهم الا من حارب أو هرب منك الى عدوك فأدر كتبه وأجر لهم ما أجريت للفلاحين قبلهم واذا كتبت اليك في قوم فأجروا أمثالهم مجراهم وأعطاء الحرية في غير الفلاحين !! وأرسل سعد من المدائن فصيلة يقودها عبد الله بن المعتم لفتح تكريت حين بلغه تجمع الفرس بها وكان معهم فيها جمع كثير من العرب من اباد وتغلب والنمر فوصلت الفصيلة وقد خندق الفرس حول تكريت فحصرهم

أربعين يوماً تراحفوا فيها أربعة وعشرين زحفاً في جميعها يظفر المسلمون
وفي أثناء ذلك راسل ابن المعتم العرب لينضموا اليه فأجابوه الى ذلك وأسلموا
فأعطاهم السلم وحينئذ قال لهم (اذا سمعتم تكبيرنا فكبروا) فأجابوه ثم
أمر جنده بالهجوم على الخندق فهجموا معلنين التكبير فكبر العرب من
تغلب وأياد والتمر فظن الفرس أن المسلمين جاءوهم من خلفهم فتبادروا الى
الابواب التي عليها جنود ابن المعتم فأصيب منهم كثير من بين أيديهم ومن
خلفهم وبعد الانتصار أعطوا الفلاحين من أقام منهم مثل ما أعطى غيرهم
من قبلهم

وأرسلت من المدائن فصيلة أخرى يقودها ضرار بن الخطاب لفتح
ماسبذان (١) فسار اليها وافتتحها عنوة وكان أهلها قد تطايروا إلى الجبال
فدعاهم ضرار الى الرجوع بعد أن أمنهم فعادوا وأقام بها وخرجت فصيلة
ثالثة لفتح قرقيساء (٢) يقودها عمر بن مالك فافتتح في مسيره هيت (٣)
وفتح قرقيساء عنوة وأقر أهلها على الجزاء |

وبذلك صار السواد كله في يد المسلمين فهدوا طريقة ادارته وأقاموا
الجنود مرابطة في الثغور بينهم وبين الجبال

(١) كورة بها عدة مدن منها اربوجان عن يمين حلوان للقاصد الى همدان

(٢) بلد على نهر الخابور قرب رحمة مالك بن طوق على ستة فراسخ وعندها

الخابور في الفرات فهي مثلث بين الخابور والفرات

(٣) بلد على الفرات من نواحي بغداد فوق الانبار مجاورة للبرية

تصير الكوفة

كانت الرسل ترد على عمر بعد هذه الفتوح فيرى في أوجههم تقيراً فقال عمر (والله ما هيئتكم بالهبة التي أبدأتم بها ولقد قدمت وفود القادسية والمدائن وانهم لكانا أبدعوا فإغبركم) قالوا وخومة البلاد فكتب إلى سعد أخبرني ما الذي غير ألوات العرب وطمعهم فكتب إليه سعدان العرب خددهم وكفى ألوانهم وخومة المدائن ودجلة — فكتب إليه عمر أن العرب لا يوفقها إلا ما وافق إبلها من البلدان فابعث سلمان وحذيفة رالدين فليرتادا منزلاً برياً بحرياً ليس بيني وبينكم فيه بحر ولا جسر : فبعث سعد سلمان وحذيفة يسيران غربى الفرات مرتادين حتى أتيا موضع الكوفة وهو حصباء ورمل فأتيا عليها وفيها ديرات ثلاث فأعجبتهما البقعة فنزلا فيها وصليا ودعيا ثم كتبا إلى سعد بالخبر فأبلغه سعد عمر فأمره أن يسير بالجنود إليها فارسل سعد إلى امراء الثغور أن يستخلفوا على الثغور ويسيروا إليه ففعلوا فارتحل سعد بالناس من المدائن حتى عسكر بالكوفة في المحرم سنة ١٧ (يناير سنة ٦٣٨) وكان بين وقعة المدائن ونزول الكوفة سنة وشهران وكان قد أبقى بالمدائن جنداً ممن رضى الإقامة بها وكان عمر يريد أن يقيموا معسكرين في خيامهم ثم ذن لهم أن يبنوا بيوتاً من القصب فأصاب الكوفة حريق شديد فأذن عمر أن تبنى بالابن ، جعل على بناء المدينة أبا الهيثاج بن مالك الاسدي وأوضح مذهبها وما يليها وأزقتها فجعل المناهج أربعين ذراعاً وما يليها ثلاثين وما بين ذلك عشرين والأزقة سبع أذرع وليس دون ذلك شيء وفي القطائع ستين ذراعاً

فأول ما أسس بالمدينة مسجدها فاختطوه ثم قام في وسطه رام شديد
الترع فرمى عن يمينه وشماله ومن بين يديه ومن خلفه ثم أمر بالبناء وراء
مواقع السهام وبنى في مقدمة المسجد ظلة ذرعها مئتان على أساطين رخام
كانت للأكاسرة سماؤها كأسمية الكنائس الرومية وبنوا لسعد بجياله داراً
بينهما طريق منقب مئتي ذراع وجعل فيها بيوت الاموال والذي بناه له
فارسي كبناية الأكاسرة في الحيرة وجعل المناهج تخرج من أمام المسجد
والشكل الذي وضعت عليه الكوفة ينبت عن نظام جميل لم يحجب عن
العرب هواء البادية لكثرة المناهج واتساعها

وفي هذا العام نفسه بنيت الأبنية بالبصرة كما بنيت بالكوفة فهي
وان نزلها المسلمون سنة ١٣ من الهجرة لم يتم تخطيطها وتأسيسها الا في السنة
التي اختطت فيها الكوفة ومن هنا نشأ اختلاف الناس في الزمن التي
بصرت فيه

وكانت ثغور الكوفة في ذلك الزمن أربعة حلوان (١) وماسبذان
وقرقيساء والموصل (٢) وأميرها سعد بن أبي وقاص وكانت البصرة ثغراً
له أمير خاص يعينه أمير المؤمنين

صارت الكوفة والبصرة من هذا التاريخ مركزين حربيين تفصل
بينهما الجنود لحرب العجم ولكل منهما جنود خاصة

-
- (١) في آخر حدود السواد مما يلي الجبال من بغداد وكانت مدينة كبيرة عامرة
(٢) مدينة على طرف دجلة ومقابلة من الجانب الشرقي لنيوى وهي من
المدائن الإسلامية الكبرى

فتح الجزيرة (١)

فصلت من الكوفة ثلاث فصائل بأمر عمر أحداها يقودها سهيل بن عدي لفتح الرقة والثانية يقودها عبد الله بن عتياب لفتح نصيبين والثالثة يقودها عقبة بن الوليد لاختضاع عرب الجزيرة من ربيعة وتنبوخ وأمرهم أن كانت حرب أن يكون القائد العام عياض بن غنم وكان مقصد عمر من ذلك أن يكسر شوكة الروم الذين ثاروا من الجزيرة قاصدين بأعباءهم بمحصر فلما توجه الجنود إلى كورهم تفرقوا كل إلى كورته فكان في ذلك تخفيفا على جنود الشام

فسار عياض حتى أتى الرها فصالحه أهلها على الجزية ثم حران فصالحته ثم فتحت نصيبين ثم أرمينية أما عرب الجزيرة فانهم لما رأوا الطاب خفوا وتركوا أرضهم وأوغلوا في أرض الروم وبعد مراسلات بينهم وبين هؤلاء العرب قال المسلمون منهم لا تنفروا العرب بالخراج ولكن ضعفوا عليهم الصدقة التي نأخذونها من أموالهم فيكون جزاء فانهم يفضبون من ذكر الجزاء فرضى عمر بذلك وبهذا قبل العرب أن يعودوا إلى بلادهم ويقبلوا بها على ما قبل منهم

(٣) ما بين دجلة والفرات من جهة الشام يسمى جزيرة أقور تشمل على ديار مصر وديار بكر ومن أمهات مدنها حران والرها والرقة ورأس عين ونصيبين وجنار وواخا بور وماردين وآمد ومبا فارقيز والموصل وغير ذلك

فتح الاهواز (١)

كانت الاهواز تتأخم حدود البصرة وكان فيها الهرمزان وهو من
سادات فارس وعظماؤها وكان يغير على مايبذل المسلمين فأراد عتبة بن غزوان
مير البصرة أن يسير له جنداً فاستمد سعد بن أبي وقاص أمير الكوفة
أأمده فخرجت جنود البصرة وأمدادهم من أهل الكوفة فالتقت بالهرمزان
بين ذت ونهر تيرى فهزمته ودحرته حتى جاز شاطئ دجيل فصار شاطئ
دجيل بين المسلمين والهرمزان

ثم كاتبهم الهرمزان في الصلح فصالحوه على الاهواز كلها ومهرجان
نندق (٢) ما عدا ما أخذوه عنوة وجعلوا مناذر ونهر تيرى مساحتين للبصرة
فيهما الجنود من ابطيين : ثم حصل بين رؤساء القوة للرابطة خلاف في حدود
الارضين وقد دعا ذلك الهرمزان الى نقض الصلح والاستعانة بالاكراة
فابلغ عتبة أمير البصرة بذلك فأبلغ الأمر عمر فأمر بتسيير الجنود لحرب
الهرمزان وأرسل لهم امداداً فسارت الجنود الى الهرمزان وحاربوه عند
جسر سوق الاهواز وهزموه فتوجه إلى رامهرمز وبذلك اتفق للمسلمين
جميع الاهواز إلى تستر فراساهم الهرمزان في الصلح مرة ثانية فاجابوه الى
الصلح على ما لم يفتحوه عنوة وكان عمر يتخوف أن يكون هذا النقض من

« ١ » مجموع كور عدها ياقوت عشرا وهي سوق الاله از ورامهرمز وايندج
وعسكر مكرم وتستر وجمدى ساور وسوس وسرق ونهر تيرى ومناذر

« ١ » كورة واسعة ذت مدن وقرى قرب الصيمرة من نواحي الجبال عن عين
القاصد من حلوان العراق الى همدان في تلك الجبال

الهرمزان المظلمة لحقت أهل الذمة فطلب من عتبة أن يرسل إليه وقدأ فيه
عشرة من وجهاء الكوفة فإرسل عشرة فيهم الاخنس بن قيس فلما قدم على
هم قال له انك عندي لمصدق وقد رأيتك رجلاً فاخبرني أن ظلمت الذمة
المظلمة نفروا ام لغير ذلك فقال الاخنس لا بل لغير مظلمة والناس على ما يحب
قال فنعنم اذا انصرفوا الى رحالكم فانصرفوا وكتب إلى عتبة اعزب الناس
عن الظلم واتقوا واحذروا ان يدال عليكم لغدر يكون منكم او غي فانكم انما
ادركتم بالله ما ادركتم على عهد عاهدكم عليه وقد تقدم اليكم فيما أخذ عليكم
فأوفوا بعهد الله وقوموا على امره يكن لكم عوناً وناصرًا

غزو فارس من البحرين

كان العلاء بن الحضرمي أميراً على البحرين له ر و كان الملايعباري
مسعد بن أبي وقاص فلما كانت حروب الردة طار ذكر العلاء وظفر بالفضل
فلما ظفر مسعد بالقادسية وزاح الاكاسرة وأخذ حدود ما يلي السواد سر
العلاء أن يصنع شيئاً في الاعاجم يكون له به من الشهرة والسيادة ما لمسه
فغندب أهل البحرين الى فارس فتمسروا الى ذلك وفرقهم اجناداً سفهم في
البحر بغير اذن عمر وكان عمر لا بأن لا أحد في ركوب البحر غازياً : عبرت
تلك الجنود فخرجوا في اصطخر (١) وبازاتهم أهل فارس فلما رأوهم
حالوا بينهم وبين سفهم فلما رأى المسلمون ذلك اشتدت حميتهم وقتلوا أهل

(١) مدينة كبيرة بفارس وهي قاعدة كورة مسماة بهذا الاسم وكانت قصبة ملك

فارس حتى تحول اردشير الى جور

فارس مقاتلة المستميت فظفروا ثم ساروا يريدون البصرة لانه قد حيل بينهم وبين الرجوع الى البحرين فوجدوا شهرک الدارسی قد أخذ عليهم الطرق فمسكروا في موطنهم امتنعوا

بلغ خبر ذلك عمر فاشتد غضبه على العلاء وأرسل اليه يعزله . أمره بالآقل الاشياء عليه وأنقض الوجوه اليه بتأخير سعد عليه وقال له الحق بسعد عيّن قبلك فخرج بمن معه نحو سعد . كتب عمر الى عتبة بن غزوان أمير البصرة أن يسير جنداً لتخليص من أرسلاهم البلاء فانتدب عتبة من يسير فأجابهم جمع من ذوى النجدة فخرجوا في اثني عشر ألفاً وعليهم أبو سبرة بن أبي رهم فساحل بالناس لابقاء أحد في طريقه حتى وافوا شهرک وهو أخذ على جنود البحرين طريقهم فقاتلوه وهزموه . خلصوا اخوانهم وهذه هي القزوة التي شرفت بها ثبته البصرة وكانوا فضل نوابت ا مصار ثم انكشفوا بما أصابوا وذهب اهل البحرين عائدين الى بلادهم من طريق البصرة . ولما أحرز عتبة الأهواز وذال فارس استأذن عمر في الحج فؤذن له فلما قضى حجه استعفاه فأبى أن يعفيه وعزم عليه ليرجعن الى عمله فانصرف فمات في بطن نخله فدفن به وبلغ عمر خبره فمر به زائراً لقبره وقال انا قتلتك لولا أنه أجل معلوم وكتاب مرقوم وأثنى عليه بفضل له ووفى عمر بداهة المغيرة لابن شعبة مفتتح سنة ١٨ هـ

فتح رامهرمز والسوس . تسير

لم يزل يزدجرد يثير أهل فارس (١) وهو بمرو فكتب اليهم يذكرهم

(١) فارس اسم لولاية واسعة وأقليم منع اول حدودها من جهة العراق ارجان

الاحقاد ويؤنبهم على رضائهم بغاية العرب على سوادهم فتحرك من مكاتباته
أهل فارس والاهواز وتعاقدوا وتواثقوا على النصر فكتب أمراء الثغور
الى عمر فكتب الى سعد أمير الكوفة يأمره أن يبعث الى الاهواز جنداً
كثيفاً يقوده النعمان بن مقرن وأرسل الى أبي موسى الأشعري وكان
ولاه البصرة بعد عزل المغيرة أن يبعث جنداً الى الاهواز يقوده سهل بن
عدي وأمير الجندين معا أبو سيرة بن أبي رهم ففصلت جنود الكوفة مع
النعمان حتى اذا وصلت رامهرمز وبها الهرمزان خرج يقاتلها فهزم دونها
فترك رامهرمز والحق تستر فاحتل النعمان رامهرمز ثم توجهت الجنود الى
تستر وهناك توافقت جنود المصريين فحاصروا تستر اشهرًا وقتل في الحصار
جماعة من ذوى النجدة وزاحفهم المشركون مدة الحصار ثمانين زحفاً كانت
الحرب فيها سهلاً وفي آخر زحف هزمت الفرس حتى دخلوا خنادقهم ثم
احتال المسلمون لدخول المدينة فدلوا على ثغرة فيها منها تدخل المياه إلى البلد
فنهضوا إلى ذلك المكان ومنه هجموا على المدينة فدخلوها بعد جهاد عنيف
فذهب الهرمزان إلى القاعة، رأى شدة الأمر عليه نادى متبعيه وقل اضع
يدي في أيديكم على حاكم عمر يصنع بي كيف يشاء قلوا فلك ذلك واستأجروا
لهم فلك المسلمون بذلك تستر ثم رسلوا الطلائع لاختصاصها ما يحاط به من البلدان

ومن جهة كمان السرجان ومن جهة ساحل بحر الهند سيراف ومن جهة السند
مكران وأعظم مدنها شيراز وكورها المشهورة خمس ١ - اصطخر ٢ - اردشير
خره ٣ - دار مجرد ٤ - سابور ٥ - فباد حرة

وأرسل أبو سبرة وفداً إلى عمر معهم الهرمزان فلما وصلوا إلى المدينة دخلوا على عمر وهو في المسجد نائم ودركته معلقة في يده فقال الهرمزان ابن عمر فقالوا هو ذا فقال ابن حرسه وحجابه قالوا ليس له حارس ولا حاجب قال فينبغي أن يكون نبياً قالوا بل يعمل عمل الأنبياء فلما استيقظ عمر قالوا له هذا ملك الأهواز قال له عمر كيف رأيت وبال الغدر وعاقبة أمر الله فقال يا عمر أنا وإياكم في الجاهلية كان الله قد خلى بيننا وبينكم فغلبناكم إذ لم يكن معنا ولا معكم فلما كان معكم غلبتمونا فقال عمر إنما غلبتمونا في الجاهلية باجتماعكم وتفرقنا ثم قال عمر ما عذرنا وما حجتك في انتفاضك مرة بعد أخرى فقال أخاف أن تقتلني قبل أن أخبرك قال لا تخف ذلك واستسقي ماء فأتى به في قدح غليظ فقال لو مت عطشاً لم استطع أن أشرب في مثل هذا فأتى به في إناء يرضاه فجعلت يده ترتجف وقال أنا أخاف أن أقتل وأنا أشرب الماء فقال عمر لا بأس عليك حتى تشربه فا كفاد فقال عمر اعيدوا عليه ولا تجمعوا عليه القتل والعطش فقال لا حاجة لي في الماء إنما أردت أن استأمن به فقال له عمر أني قاتلك قال قد امنتني فقال عمر كذبت فقال أنس صدق يا أمير المؤمنين آمنت به قلت له لا بأس عليك حتى تخبرني وقلت لا بأس عليك حتى تشربه وقال له من حوله مثل ذلك فاقبل على الهرمزان وقال خدعتني والله لا انخدع إلا لمسلم فاسلم ففرض له في العطاء على الفين وانزله المدينة

ثم قال عمر للوفد لعل المسلمين يفضون إلى أهل الذمة بأذى وبأمور لها ما ينتقضون بكم فقالوا ما نعلم إلا وفاء وحسن ملكة قال فكيف هذا

فقال له الاخنف يا أمير المؤمنين أخبرك أنك نهيتنا عن الانسياح في البلاد وأمرتنا بالاعتصام على ما في أيدينا وإن ملك فارس حتى يبني أظهرهم وأنهم لا يزالون يساجوننا مادام ملكهم فيهم ولم يجتمع ملكان فاتفقا حتى يخرج أحدهما صاحبه وقد رأيت أنا لما نأخذ شيئاً بعد شيء إلا بأنبيائهم وأن ملكهم هو الذي يبعثهم ولا يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا فانسح في بلادهم حتى نزل عن فارس ونخرجهم من مملكتهم وعزائمهم فهناك ينقطع رجاء أهل فارس : فقال عمر صدقني والله وشرحت لي الأمر عن حقه ثم قدمت الكتب على عمر باجتماع أهل نهاوند : فكان ذلك مما جعل عمر يأذن بالانسياح

فتح نهاوند (١)

اجتمع بنهاوند من جنود الفرس من كل أنحاء جمعهم يزد جردريد إعادة الكرة بهم لاستعادة ما يملك ونهاوند من بلاد الجبل (٢) جنوبي همدان فكتب عمر إلى النعمان بن مقرن يوليّه محاربة المجتمعين بها وحشد إليه الجنود من البصرة والكوفة فلما وصات إليها الجنود رأوا بها جمعاً عظيماً متحصناً في حصون قوية ولا يخرجون إلا إذا شاءوا فلما طال عليهم المطال جمع النعمان رجال النجدة والرأي في الحروب ممن معه وقال لهم قد ترون المشركين واعتصامهم بالحصون من الخنادق والمدائن وأنهم

(١) مدينة عظيمة في قبلة همدان بينهما ثلاثة أيام فرسخا وهي اعتق مدينة في الجبل (٢) بلاد الجبل علم على ما يسميه السجم ببلاد العراق وهي ما بين أصبهان إلى زنجان وزوين وحمدان والديور وقرميسين والري وما بين ذلك من البلاد الجبلية والكور العظيمة قال ياقوت وتسمية هذا الجزء بالعراق غلط

لا يخرجون الا أن يشاءوا وقد ترون الذي فيه السامون من التضايق
بالذي هم فيه فإلّا رأى فتكلم عمرو بن ثبي وكان أكبر الناس يومئذ سنًا
وكانوا إنما يتكلمون على الاسنان فقال التحصن عليهم أشد من المطاولة
عليكم فدعهم ولا تخرجهم وطاولهم وقاتل من أتاك منهم فرد رأيهم وتكلم
عمرو بن معد يكرب مشيرًا بمناهدتهم فقلوا إنما تناطح بنا الجدران
والجدران لهم أمان علينا وتكلم طليحة الاسدي فقال أرى أن تبعث
خيلاً تحديق بهم ثم يرمونهم لينشبوا القتال ويحسوهم فإذا استحمسوا
واختلطوا بهم وأرادوا الخروج أرزأنا استطرادًا فأننا لم نستطرد لهم
في طول ماقاتلتناهم وأنا إذا فعلنا ذلك ورأوا ذلك منا طمعوا في هزيمتنا ولم
يشكروا فيها فخرجوا فجادونا وجادونا حتى يقضى الله فيهم وفينا ما أحب
فقبل منه رأيهم وأمر النعمان القعقاع أن ينشب القتال فقبل وتم ذلك الترتيب
الحين المتفق عليه فخرجت الفرس يتبعونه وحينذاك أمر النعمان بالهجوم
فاقتتلوا بالسيوف قتلاً شديداً وفي أثناء الموقعة قتل النعمان رئيس الجند
فأخفوا موته وأتلم الراية خليفته من بعده حذيفة بن اليمان ولم يأت آخر
النهار حتى تمت الهزيمة على الفرس واتبعت فصائل عليها القعقاع الفل إلى
همذان فدخاها السامون وماكروها وحينئذ جاؤهم رؤساء البلاد من الفرس
وصالحوهم على همذان . أما نهاوند فإن المسلمين دخلوها عقب الهزيمة واحتلوا ما
حولها وكانوا يسمون فتوح نهاوند فتوح الفتوح لأنه لم يكن بعده كبير حرب
ولما جاء البريد إلى عمر بالفتح وباستهاشد النعمان بكى عليه بكاء شديداً
وبعد انتهاء هذه الموقعة أذن عمر بالانسحاب في بلاد الفرس كما أشار

عليه بذلك الاحنف بن قيس فعين رؤساء الجنود التي تذهب لافتتاح البلاد وأرسل بالالوية الى أصحابها وهم :

- (١) الاحنف بن قيس التميمي ووجه الى خراسان
 - (٢) مجاشع بن مسعود السلمي ووجه الى أردشير خرة وسابور
 - (٣) عثمان بن أبي العاص الثقفي ووجه الى اصطخر
 - (٤) سارية بن زعيم الكناني ووجه الى فساود رابجرد
 - (٥) سهيل بن عدي ووجه الى كرامان
 - (٦) عاصم بن عمرو ووجه الى سجستان
 - (٧) الحكم بن عمر التغلبي ووجه الى مكران
- فاستعدت الجنود للخروج الى أوجهها مفتح سنة ١٨ هـ
- فتح اصبهان (١)

سار عبد الله بن عبد الله بن عتبة بجنده نحو اصبهان وقاعدتها جي والمالك بها الفاذوسفان فلما التقت الفشتان قال الفاذوسفان لعبد الله لا تقتل أصحابي ولا أقتل أصحابك ولكن ابرز لي فان قتلتك رجم أصحابك وان قتلتني سالمك أصحابي وان كل أصحابي لا يقع لهم نشابة فبرز له عبد الله وقال اما ان تحمل على واما ان احمل عليك فقال احمل فوقف له عبد الله وحمل عليه الفاذوسفان فطعنه فاصاب قربوس سرجه فكسره وقطع اللبب والحزام وزال اللبد والسرّج وعبد الله على الفرس فوقع عبد الله قائما ثم استوى على الفرس عريا وقال له اثبت فقال الفاذوسفان ما أحب أن أقاتلك فقد رأيتك

(١) اقليم من نواحي الجبل كان قاعدته جيا ثم صارت اليهودية

رجلا كاملا ولكن ارجع معك الى عسكري فأصالحك وأدفع المدينة اليك على أن من شاء أقام ودفع الجزية وأقام على ماله وعلى أن تجرى من أخذتم أرضه عنوة حجراهم ويتراجعون ومن أبي أن يدخل فيما دخلنا فيه ذهب حيث شاء ولكم أرضه قال لكم ذلك فرضي أهل جى بالصالح الا ثلاثين رجلا منهم خالفوا قومهم وتجمعوا فاحقوا بكرمان في حاشيتهم لجمع كان بها ودخل المسلمون جى واغتبط من الفرس من أقام وندم من شخص ثم استخلف عبد الله بجى خليفة له وسار حسب أمر عمر إلى كرمان لمساعدة سهل بن عدي

فتح أذربيجان (١)

بينما نعيم بن مقرن في همذان اذ بلغه تجمع الفرس واحتشادهم في واج روذ بين همذان وقزوین فسار اليهم وقتلهم في ملحمة كبرى كانت تعدل وقعة نهاوند وهزمهم هزيمة منكرة

فتح الري (٢)

بعد أن انتهى نعيم من واج الروذ سار الى الري فصالحه أهلها بعد أن قهرهم وكان المصالح عنهم رأسهم الزينبي بن قوله وكتب لهم كتاب صالح ثم وجه أخاه سويد بن مقرن الى قومس فسار اليها وأخذها سائما ومن هناك كاتبه ملك جرجان (٣) بالصالح فصالحه وكتب له كتاب صالح وتابعهم على ذلك أهل طبرستان

(١) صقع جليل ومملكة عظيمة الغالب عليها الجبال وحدها من برزعة مشرقا الى ارزنجان مغربا ويتصل حدها من جهة الشمال ببلاد الجبل والديلم وقصبتها تبريز وكانت قبل مدينة المراغة (٢) قصبة بلاد الجبال بينها وبين نيسابور ١٦٠ فرسخا والى قزوین ٢٧ فرسخا وكانت مدينة عظيمة جدا ويقال في النسب اليها رازي

(٣) مدينة عظيمة بين طبرستان وخراسان

فتح الباب (١)

كان قائد الجيش الذي وجهه الى الباب سراقة بن عمرو وعلى مقدمته
عبد الرحمن بن ربيعة فلما أطل عبد الرحمن على الباب كاتبه ملكها مشهوراً
مستأمناً ليأتيه فأمنه عبد الرحمن فجاءه الملك وقال له اني بازاء عدو كلب
وأمم مختلفة لا ينسبون الى أحساب ولا ينضون الى الحسب والعقل أن يصيب
أمثال هؤلاء ولا يستعين بهم على ذوى الاحساب والاصول وذو الحسب
قريب ذى الحسب حيث كان ولست من القبيح في شيء ولا من الأرمين
وانكم قد غلبتم على بلادى وأمتى فأنا اليوم منكم ويدي مع أيديكم وصغوى معكم
وبارك الله لنا ولكم وجزيتنا اليكم والنصر لكم والقيام بما تحبون فلا تذلو نأياً لجزية
فتوهنونا لعدوكم فقال عبد الرحمن فوقى رجل قد أظلاك فسر اليه فجوزته فسار
الى سراقة فلقية بمثل ما كان عبد الرحمن فقال سراقة قد قبلت ذلك فممن كان
معك على هذا مادام عليه ولا بد من الجزاء ممن يقيم ولا ينهض فقبل ذلك
وصار سنة فيمن كان يحارب العدو من المشركين وفيمن لم يكن عنده الجزاء
الا أن يستنفر فتوضع عنهم جزاء تلك السنة وكتب بذلك سراقة إلى عمر فاجازته
وحسنه وكان في كتاب صلحهم الامان لانفسهم وأموالهم وأن ينفروا لكل
غارة وينفذوا لكل أمر ناب أو لم ينب رآه الوالى صلاحاً على أن يوضع الجزاء
عمن اجاب إلى ذلك إلا الحشر والحشر عوض من جزائهم ومن استغنى عنه
منهم وقعد فعليه مثل ما على أهل أذربيجان من الجزاء والدلالة والنزل يوماً
كاملاً فان حشروا وضع ذلك عنهم وان تركوا أخذوا به — وهذه سنة حسنة

في عهد عمر بن الخطاب فليست الاستعانة بالخلفين في الدين من أهل الشرك
بوضع جزية الحماية عنهم بدعة جديدة

فتح خراسان (١)

كان يزيد جرد قد سار إلى خراسان فأقام بمرو ونقل نار فارس إليها
وأطمأن في نفسه وأمن أن يؤتى وكاتب من مرو من بقي من الأعاجم فيما لم
يقتضيه المسلمون فدانوا له فوجه إليه الأحنف بن قيس فدخل خراسان من
الطليسين فاقتتخ هراة عنوة ثم سار نحو مرو الشاهجان فخرج منها يزيد جرد
إلى مرو والروذ وكتب إلى خاقان ملك الترك يستمده وإلى ملك الصفد وملك
الصين أما الأحنف فأبجه إلى مرو والروذ حتى إذا بلغ ذلك يزيد جرد سار عنها
إلى بلخ فنزل الأحنف على مرو ووجه فصيلة من الجند نحو بلخ وتبعهم
الأحنف حتى إذا التقى الجندان انهزم يزيد جرد وعبر بمن معه في أهل فارس
فعاد الأحنف إلى مرو فنزلها وكتب إليه عمر ينهيه عن عبور النهر وأن يقتصر
على ما بيده : ولما عبر يزيد جرد النهر تته جنود مدداً من ملوك الترك والصفد
فعاد بهم يريد أخذ مرو من الأحنف فخرج إليه الأحنف لما أحس به فلم يكن
من الترك كبير حرب بل عادوا إلى بلادهم تاركين يزيد جرد ولما رأى ذلك ترك
البلاد ثانية وعبر النهر أما أهل خراسان فأنهم تعافدوا مع الأحنف وتراجعوا
إلى بلدانهم وأموالهم على أفضل ما كانوا زمن الأكرسة فكانوا كأنهم في
ملكهم إلا أن المسلمين أوفى لهم وأعدل فاغتبطوا

(١) بلاد واسعة في شرق البلاد الفارسية وقسمتها مرو وبها نيسابور وهراة وبلخ
وطالقان وسرخس وغير ذلك من المدن التي دونها نهر جيحون

ثم وجه سراقه فصائل الجبال المحيطة بارمينية موقان وتفايس وجبال
اللان

فتوح أهل البصرة

كان مما فتحه أهل البصرة من البلاد توج فتحها سارية بن زعيم الدؤلى
ثم فتح فساودا را بجر د وفتح عثمان بن أبي العاص اصطخر . وفتح سهيل بن عدى
كرمان . وفتح عاصم بن عمرو سجستان . وفتح الحكم بن عمرو النخلى
مكران

ومما يستظرف من الاخبار حديث قيس بن سامة الاشجعي فان عمر
ولاه قيادة جيش لمقاتلة الاكراد فسار اليهم وهزمهم ولما قسم عليهم النفل
رأى شيئاً من حاية فقال ان هذا لا يبلغ فيكم شيئاً فتطليب أنفسهم أن نبعث
به الى أمير المؤمنين فنله برداً ومؤنة قلوا نعم قد طابت أنفسنا فجعل تلك
الحلية في سبط ثم بعث برجل من قريته ليوصل ذلك الى عمر قال الرسول
فأتيت المدينة فاذا عمر يغدى الناس متكئاً على عصا كما يصنع الراعي وهو
يدور على القصاع فلما دفعت اليه قال اجلس فجلست في أدنى الناس فاذا
طعام فيه خشونة طعامي الذي معي أطيب منه فلم يفرغ الناس قال يارب فأرفع
قصاعك ثم أدبر فاتبعه فدخل داراً ثم دخل حجرة فاستأذنت وسامت فأذن
لي فدخلت عليه فاذا هو جالس على مسح متكئ على وسادتين من آدم
محشوتين ليفاً فنبذ الى باحداها فجلست عليها واذا بهو في صفة فيها بيت عليه
مستير فقال يا أم كلثوم غداءنا فأخرجت اليه خبزة بزيت في عرضها ملح لم يدق
فقال يا أم كلثوم الا تخرجين الين تأكلين معنا من هذا فقالت اني أسمع عندك

حسن رجل قال نعم ولا أراه من أهل البلد قالت لو أردت أن أخرج إلى الرجال لسكنتي كما كسا ابن جعفر امرأته وكما كسا الزبير امرأته وكما كسا طلحة امرأته قال أو ما يكفيك أن يقال أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب وامرأة أمير المؤمنين عمر ثم قال كل فلو كانت راضية لا طعمتك أطيب من هذا قال فأكلت قليلاً وطعمني الذي معي أطيب منه وأكل فما رأيت أحداً أحسن أكلًا منه ما تلبس طعامه بيده ولا فيه ثم قال اسقونا فحاءوا بعس من سلت فقال اعط الرجل قال فشربت قليلاً ثم أخذه فشرب حتى قرع القدح جبهته فقلت حاجتي يا أمير المؤمنين أن أرسول سلامة بن قيس قال مرحباً بسلامة بن قيس ورسوله حدثني عن المهاجرين كيف هم كما تحب من السلامة والظفر على عدوهم قال كيف اللحم فيهم فقامها شجرة العرب ولا تصالح العرب إلا بشجرتها قات البقرة بكدا والشاة بكذا ثم أدى إليه رسالته وأخبره خبر الحلية التي اختصه بها سلامة فلما نظر إلى فصوصها وثب ثم جعل يده في خاصرته ثم قال لا أشبع الله إذا بطن عمر ثم قال ما جئت به أم والله لئن تفرق المسلمون في مساتيرهم قبل أن يقسم هذا فيهم لأفعلن بك وبصاحبك الفاقة قال فارتحلت حتى أتيت سلامة فقلت مابارك الله فيما اختصصتني به أقسم هذا في الناس قبل أن يصيبني وإياك فاقة

فقسمه فيهم

ولست في حاجة إلى أن أنبهكم إلى ما يؤخذ من هذه الحادثة فهي تبين لكم كيف كانت المرأة فيهم فقد كانت أم كلثوم صاحبة الرأي الأعلى في بيت أمير المؤمنين وكانت المرأة تتكلم في شأن نفسها كما يتكلم أعظم في

الرجال نفساً ثم تبين كيف كان عمر يتنزه عن أموال المسلمين في هذه
الحالية شيء قد طابت به أنفسهم ومع ذلك لم يرض إلا أن يردوها عليهم فكيف
لا تكون قلوبهم بين يديه يصرفها كيف شاء وكيف أحب

والى هنا انتهى ما نريد قصته عليكم من أمر الفرس ومسقوط مملكتها
نهائياً بين أيدي المسلمين فقد صار إليهم قطعة من الأرض بمحدها من الغرب نهر
الفرات ومن الشرق نهر جيحون والسند ومن الجنوب البحر الهندي ومن
الشمال بلاد إرمينية كل ذلك في زمن لم يتجاوز سبع سنين كان النصر لهم في
جميع المواقع التي زاحفوا فيها أعداءهم وكان لهم اسم جميل عند عامة الفرس
عرفوا بالوفاء فانهم لم يكونوا يتهاونون في أمره كما كان يوصيهم بخليفتهم
دائماً وعرفوا بالعدل في حكمهم حتى شهد لهم بذلك أهل ذمتهم كبرهم
وصغيرهم الملك منهم والسوقة وسنفيض القول فيما كان لهم من الأخلاق
والمدنية في عهد عمر عند الفراغ مما كان في أرض الروم

تم الجزء الأول ويليه الجزء الثاني



فهرست الجزء الاول

من محاضرات تاريخ الامم الاسلامية

صفحة	صفحة
٢٤ تجارة العرب	٥ المحاضرة الاولى
٢٤ صناعة العرب	٥ مباحث التاريخ الاسلامى
٢٥ احوال العرب	٦ مايلزم للمؤرخ
٢٥ حال العرب الاجتماعية	٧ جزيرة العرب ووصفها
٣٧ المحاضرة الثالثة	١٠ أقسام الجزيرة الطبيعية
٣٧ حال العرب السياسية	١٢ الوصف الطبيعى لجزيرة العرب
٣٧ ملك اليمن	١٢ جو البلاد
٤٣ الملك بالحيرة	١٤ محاج الجزيرة
٥١ المحاضرة الرابعة	١٦ الشعوب العربية
٥٣ الملك بالشام	١٦ شعب قحطان
٥٣ الامارة بالحجاز	٢٠ المحاضرة الثانية
٥٦ الحكم عند الاعراب في بواديهم	٢٠ شعب عدنان
٥٩ المحاضرة الخامسة	٢١ مساكن العدنانية
٥٩ الاخلاق	٢٣ بدو العرب وحضرم

صفحة	صفحة
١٣٨ التشريع المسكي	٦٧ لغة العرب
١٤٠ المحاضرة الحادية عشرة	٧٣ المحاضرة السادسة
١٤٠ لم شرع القتال	٧٣ المكتابة عند العرب
١٤٤ العهد والمواثيق	٧٤ علوم العرب
١٤٦ أسرى الحرب	٧٩ دين العرب
١٤٨ حياة المدينة	٨٧ المحاضرة السابعة
١٥١ المحاضرة الثانية عشرة	٨٧ النسيء
١٥١ الاعمال الحربية	٩٢ محمد بن عبد المصلي اللعاية وسلم
١٥١ ودان	٩٨ السيرة الادبية قبل النبوة
١٥٢ بواط	١٠١ المحاضرة الثامنة
١٥٢ العشيرة	١٠١ البعثة والدعوة
١٥٢ سفوان	١١٦ المحاضرة التاسعة
١٥٤ بدر الكبرى	١١٦ مقاطعة قريش لبنى هاشم والمطلب
١٦١ السكر	١١٨ هجرة الطائف
١٦١ السويق	١٢٠ العرض على القبائل واجابة
١٦٣ ذى أمر	الانصار
١٦٣ الفرع	١٢١ بيعة الانصار
١٦٣ قينقاع	١٢٢ الهجرة
١٦٤ كعب بن الاشرف	١٢٨ المحاضرة العاشرة

صفحة	صفحة
٢٠٧ المعاملات	١٦٦ المحاضرة الثالثة عشرة
٢٠٨ الحدود والقصاص	١٦٦ أحد
٢١٠ الدعوة ونتائجها	١٧٤ يوم الرجيع
٢٢٢ المحاضرة السابعة عشرة	١٧٥ حديث بئر معونة
٢٢٢ صفة الرسول وأخلاقه	١٧٧ المحاضرة الرابعة عشرة
٢٣١ البيت النبوي	١٧٧ أجلاء بني النضير
٢٣٥ ختام القرآن	١٧٨ بدر الآخرة
٢٣٥ الوفاة	١٧٩ الخندق
٢٣٧ المحاضرة الثامنة عشرة	١٨٥ بني لحيان
٢٣٧ الخلافة	١٨٥ ذى قرد
٢٣٨ بيت الخلافة	١٨٦ بني المصطلق
٢٤٢ شكل الانتخاب	١٨٧ الحديبية
٢٥٢ المحاضرة التاسعة عشرة	١٩٣ مؤتة
٢٥٥ انتخاب أبي بكر	المحاضرة الخامسة عشرة
٢٥٥ أول خطاب لأبي بكر	١٩٤ فتح مكة
٢٥٦ ترجمة أبي بكر	١٩٧ حنين
٢٥٧ أخلاق أبي بكر	١٩٩ تبوك
٢٦٠ اخبار الردة	٢٠٠ الشرائع الدينية
٢٦٤ طائفة الرشيدي	٢٠١ الشرائع الاجتماعية
٢٦٥ بنو تميم ومالك بن نوره	٢٠٢ نظام البيوت
٢٦٦ بنو حنيفة ومسيمة	٢٠٧ المحاضرة السادسة عشرة

صفحة	صفحة
٢٩٨ في بلاد الفرس	٢٦٨ اليمن والاسود العنسى
٣٠٤ أمر القادسية	٢٧٠ البحرين والحطم
٣٠٨ المحاضرة الثانية والعشرون	٢٧٢ المحاضرة العشرون
٣٠٨ تمام القادسية فتح المدائن	٢٧٢ ظهور الامة العربية
٣٢٣ المحاضرة الثالثة والعشرون	٢٧٢ دولة الفرس
٣٢٢ جلولا	٢٧٤ الرومان
٣٢٦ تمصير الكوفة	٢٧٥ غز والروم
٣٢٨ فتح الجزيرة	٢٧٦ غزو الفرس
٣٢٩ فتح الأهواز	٢٩١ ادارة البلاد في عهد أبي بكر
٣٣٠ غزو فارس من البحرين	٢٩٣ رزق الخليفة
٣٣١ فتح رامهرمس والسوس وتستر	٢٩٣ أرزاق الجند
٣٣٤ فتح نهاوند	٢٩٣ أرزاق العمال
٣٣٧ فتح أصبهان	٢٩٤ وفاة أبي بكر
٣٣٧ فتح أذربيجان	٢٩٥ المحاضرة الحادية والعشرون
٣٣٧ فتح الري	٢٩٥ عمر بن الخطاب
٣٣٨ فتح الباب	٢٩٥ كيف انتخب
٣٣٩ فتح خراسان	٢٩٦ ترجمة عمر بن الخطاب
٣٤١ فتوح أهل البصرة	٢٩٨ أول خطاب لعمر
تمت فهرست الجزء الاول	٢٩٨ الفتوح في عهد عمر

تنبيه — وقع خطأ تكرر في ترقيم صفحات الجزء الثاني فتكررت في الصفحة ٢٢٥ الى
الصفحة ٢٣٢ مع بقاء سياق الكلام على حالة قسرت الى تلك الاظهار